مكتبة ياسمين

مايكل غوركن ورفيقة عثمان

ثلاث أمهات وثلاث بنات

قصص نساء فلسطينيات

ترجمة: أمل إسماعيل

غاف

مكتبة ياسمين

مايكل غوركن ورفيقة عثمان

ثلاث أمهات وثلاث بنات

قصص نساء فلسطينيات

يقدم كتاب ثلاث أمهات وثلاث بنات، لمحةً عن الحياة الفلسطينية اليومية تحت الاحتلال «الإسرائيلي» كما تسردها نساءٌ فلسطينياتٌ من أجيال متعاقبة، ومناطق مختلفة من فلسطين. إنه نتاجُ تعاونٍ بين امرأةٍ مسلمة -رفيقة عثمان- وطبيبٍ نفسيٍّ يهودي -مايكل غوركن- حاولا أخذ مصطلح «الحياة اليومية» أبعد من قالبه النظريّ، كيلا تختنق تجارب هؤلاء النساء تحت وطأة التنظير والبحث العلمي.

في هذا الكتاب ستجدُ رواياتٍ نجح محقّقاها في مزاوجة خطابها النظري والأكاديمي بالشّهادة الشّخصية الأكثر جموحًا وفوضى في كثيرٍ من الأحيان، إذ نرى مسرّات النساء من الداخل في خضم حياتهنّ المنزلية، بل ونصاحبهنّ في أحلكِ الأوقات، ونتلمّسُ مشقّة تهجيرهنّ عن منازلهنّ قبل أن تُدمّر أو تستولي عليها قوّات الاحتلال. تمنحنا النساء اللاتي قوبلن نافذةً على العديد من الأحداث التي شكّلت عتباتٍ في حياتهن، حيث يشير الانتباه إلى تفاصيل الحياة اليومية لإيمان المؤلّفَين العميق بأن السياسة الثقافية تبدأ من المستوى المحلي وقد تنتهي عند المستوى المحلي، عوضًا عن الإشارة إليها على الصعيد العالمي.

سمير ديّال

ISBN 978-1-961335-07-3
9 781961 335073

www.ghafpublishing.com
info@ghafpublishing.com
ghafpublishing

Ghaf
Publishing
منشورات غاف

t.me/yasmeenbook

ثلاث أمهات
وثلاث بنات

قصص نساء فلسطينيات

مكتبة ياسمين

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مايكل غوركن / رفيقة عثمان
ثلاث أمّهات وثلاث بنات: قصص نساء فلسطينيّات
ترجمة: أمل إسماعيل

الطبعة الأولى - 2023
ISBN 978-1-961335-07-3
جميع الحقوق محفوظة

Ghaf
Publishing
منشورات غاف
Dubai. UAE
info@ghafpublishing.com
www.ghafpublishing.com

Copyrights © ghafpublishing 2023

لوحة الغلاف: **للفنان سليمان منصور بعنوان «وداع» 1982**

t.me/yasmeenbook

مايكل غوركن
رفيقة عثمان

ثلاث أمهات وثلاث بنات

قصص نساء فلسطينيات

ترجمة: أمل إسماعيل

2023

مكتبة ياسمين

فهرس

خريطة فلسطين 9

مقدمة المترجمة 11

شكر وتقدير 17

مقدّمة المحرّر 19

تمهيد بقلم مايكل غوركن 29

المقدمة 37

أم محمود وماريان (القدس الشرقية) 51

أم عبدالله وسميرة (مخيم عايدة) 127

أم خالد وليلى (قرية أبو غوش) 207

خاتمة بقلم رفيقة عثمان 277

التسلسل الزّمني 287

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

إلى ابنتيَّ

مايا وتاليا

مايكل غوركن

/

إلى والديَّ

قاسم وفاطمة

رفيقة عثمان

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

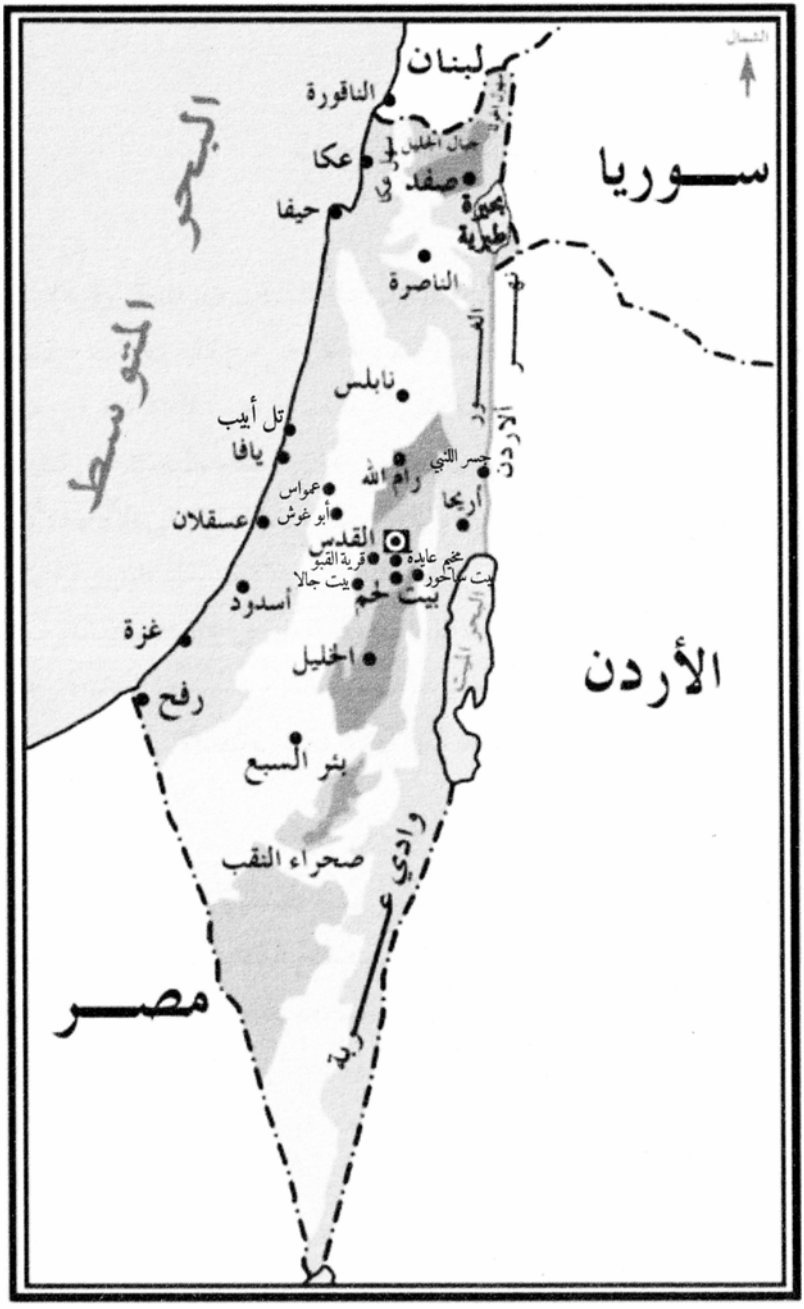

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

مقدمة المترجمة

عشرون سنةً مرّت منذ أن صافحتُ هذا الكتاب مصافحةً أولى، كنتُ حينها أبحثُ عن كتابٍ مميّزٍ يناسب مشروع تخرّجي من كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية والترجمة، كتاب يبقى أثره بعد تخرجي، لا مجرّد فرضٍ من فروض التّخرج في الجامعة. يومها نصحني أخي عصام بالبحث عن كتابٍ يناسبني، يعكس هويتي وثقافتي، وبما أنني نشرتُ بالفعل كتابي الأول «لأنها لا تموت»، وكنت عضوًا فاعلًا في تجمّع الكتّاب والأدباء الفلسطينيين وقتها، وعضو أسرة تحرير مجلة «حيفا لنا»، ومسؤولة ثقافية في مجلة «ديوان العرب» الإلكترونية، فإنني أُخذتُ بالفكرة؛ سأطبعُ مشروع تخرجي حالما أترجمه وأحصلُ على درجتي الأكاديمية. فمن أين لي بكتابٍ كهذا؟

❧

«ثلاث أمهات وثلاث بنات: قصص نساء فلسطينيات»، عنوانٌ جذّابٌ أرسل لي رابطه أخي عصام ناصحًا إياي بتصفّح الكتاب الذي كان متوافرًا للمطالعة على موقعٍ إلكتروني مجانًا. تصفّحته، كتاب من 271 صفحة، يحكي قصص ثلاث أمهات وبناتهن، كلّ واحدةٍ تروي حكايتها على حدة، تتقاطع الحكايات مع حكايتي، مع وطني، مع هويتي. كتابٌ عظيم! طبعتُ نسخةً من الكتابَ وأخذتها إلى الجامعة. فكّرتُ بأن أترجم قصّةً أو اثنتين منه لمشروع التخرج على أن أكمل ترجمة الكتاب كاملًا لاحقًا. ألقى المشرف على مشروعي أ. د. طاهر بادنجكي نظرةً على المادة أمامه، شاورته في تردد، فقال

t.me/yasmeenbook

لي بصوته الأجشّ متحدّيًا: Take it all or leave it all!

التمعت عيناي، أجبتُ موافقةً على التحدي: I will take it all!

ها أنا أمام البحر، أحاول تعويض عينيّ عن شهرين من عذاب الترجمة المتواصلة لألاحق موعد تسليم مشروع التخرج قبل المناقشة النهائية. وقتها أثارت ترجمتي للكتاب كاملًا لغطًا -الذي بدا ضخمًا في ورق طباعة 4- مقارنة بمشاريع تخرج زميلاتي الأخريات اللاتي اخترن كتبٍ أو كتيّباتٍ صغيرة ليترجمنها -لدى إدارة الجامعة؛ فهل يمكن لطالبة لم تتخرج بعد من كلية الآداب أن تنجز في شهرين فحسب ترجمة كتابٍ كهذا وحدها؟ دفاعي عن ذلك اللغط كان حاضرًا في الجلسات الموثقة بالتواريخ لمراجعة مسودات الترجمة مع مشرفي، وكتابي المنشور، وأنشطتي الأدبية والثقافية هنا وهناك. أدهشني حينها أن يحاول بعض الناس التشكيك في جهودك عوضًا عن مساندتك ودعمك. لكنه تحدٍّ أخذته على عاتقي، ونجحت فيه، وتعلّمت منه.

المهمة الأصعب التي تلت اجتياز مناقشة مشروع التخرج تجلّت في مسألة طباعة الكتاب. كيف أتواصل مع مطبعة جامعة كاليفورنيا؟[1] مر عامٌ تلو آخر، وتعلّمت تلك الفتاة الناريّة فضيلة الصبر. انتشر تطبيق فيس بوك، وصار بإمكانها أن تبحث عن مؤلّفي الكتاب لتتواصل معهما. وصلتُ إلى المؤلفة رفيقة عثمان، عرفتها بنفسي، وشرحت لها رغبتي في التواصل مع زميلها المؤلف مايكل غوركن أو الحصول على إذن الناشر لطباعة النسخة العربية المترجمة - رغبةٌ تمنّتها هي نفسها في خاتمة الكتاب - لكنني لم ألحظ

---

1. حينها لم تكن الطبعة الثانية من الكتاب قد صدرت بعد لدى ناشرٍ مختلف.

مكتبة ياسمين

منها تجاوبًا ولا تعاونًا. لم أُرجِع ذلك حينها -ربما- لتخوّفها من سرعة إصدار نسخةٍ عربيّةٍ من الكتاب مما قد يعرضها لحنق المشاركات اللاتي اشتركن شاعراتٍ بشيء من الأمان لأن الكتاب صادرٌ بالإنجليزية لا العربية، حيث شريحة قرّائه خارج نطاقهن مما يجعلهن في مأمنٍ من ردود فعل عائلاتهن ومن حولهن، ولكنّي الآن أظن أن هذا السبب كان كافيًا لتأجيل نشره مترجمًا بالنسبة لها إلى إشعارٍ آخر.

هكذا، ظلّت نسختي المترجمة حبيسة الأدراج عامًا بعد عام. في كل مرة كنتُ أعيد فيها ترتيب مكتبتي، لأفرز كتبي وأضيف عليها ألمحُ مسودة الترجمة، أتصفحها، أبتسمُ للتحدي الذي خضته، وأتساءل عن موعد إصدار الكتاب المترجم. لم أفقد الأمل قط.

❧

عشرون سنةً مرّت! وها هو الكتاب المترجم بين أيديكم. كيف؟ إنه الأمل والإيمان. الأمل الذي جعل المؤلفين يشتغلان على جمع حكايات ستّ نساء ميدانيًّا في ظروفٍ غير مألوفة، والإيمان بأن قصّة كل امرأةٍ على حدة تستحق أن تسجّلَ وتروى لآخرين في الجهة الأخرى من العالم.

عندما افتتحت دار غاف أبوابها، سألتُ العزيزة عفراء البنا عن خطة النشر، وعن إمكانية استقبال كتبٍ مترجمة، فأبدت استعدادًا وفضولًا تجاه العناوين التي يمكن أن أزودها بها، وكان أن اقترحتُ عليها هذا الكتاب. إنّ أفضل عطايا الله للكاتب والمترجم هي ناشرٌ يحترمه ويقدّره ويدعمه، وقد تجلّى كل ذلك في دار غاف التي سعت للتواصل مع الوكيل الأدبي للحصول على حقوق ترجمة الكتاب. في عام 2022 تلقّيت أجمل هديّة بعد طول انتظار؛ حقوق ترجمة الكتاب.

❧

t.me/yasmeenbook

أوّل رد فعلٍ لي كان الاتصال بأخي عصام لأخبره أني سأطبع الكتاب الذي اقترحه عليّ قبل عشرين سنة، ولأشكره ثانيةً على نصيحته الثمينة التي تساوي ألف جمل. ثم أخرجتُ نسختي الورقية الأولى المهيبة متآكلة الأطراف، وشرعتُ في تنقيحها. الآن وقد صار بإمكاني العودة إلى العديد من المراجع على شبكة الإنترنت باتت مهمّتي أسهل. أعدتُ مراجعة كل الأسماء الواردة للقرى والبلدات، وقارنت الأسماء التي خضعت للتهويد التي يذكرها المؤلف بالأسماء الحقيقية -قبل الاحتلال- للمناطق الفلسطينية، وراجعتُ صياغة الحقائق التاريخية في روايتها الأصلية -لا رواية المحتل- لكني لم أتدخل في الشطب أو التعديل، إنما في إبداء الملاحظات للقارئ العربي حسبما دعت الحاجة.

ما التفتُ إليه في ترجمتي هو إضافة اللغة العامية إلى سرد النسوة لقصصهن. فقد كانت ترجمتي الأولى عربية صِرفة، لكنني الآن -وبالعودة إلى فردوس المصادر المتاحة على الشبكة- صار بإمكاني إضفاء تلك اللمسة التي تعطي سرد النسوة -خاصة الأمهات منهنّ- واقعية وجاذبية، مع المحافظة على الاستطراد وتكرار بعض العبارات كما وردت دون اختصارها، وهو أمرٌ اهتم المؤلفان بالمحافظة عليه أيضًا. طالعتُ كثيرًا من مقاطع الفيديو لشيوخٍ وشبابٍ من مختلف المناطق الفلسطينية المذكورة في الكتاب لأتأكد من اللهجة المستخدمة، بل وأنفقت وقتًا في سماع أهازيج وأغانٍ شعبية فلسطينية لأتأكد من ورود مفردةٍ بعينها قبل ردّها إلى أصلها في الترجمة، وتواصلتُ مع أصدقاء من الداخل الفلسطيني لأتأكد من تباين استخدام مفردات مثل (هيك - هيكا - هيكد) لدى قريةٍ دون أخرى، وغيرها كثير. فأنا وإن كنتُ فلسطينية فقد ولدتُ وعشتُ طوال عمري لاجئة في دولة عربية، ولم تطأ قدمي -حتى يومنا هذا- أرض فلسطين، وأحمل لهجةً تعدّ خليطًا من

مكتبة ياسمين

كل دولةٍ مرّ عليها والدي ووالدتي، ولا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن أعدّ لهجتي مرجعًا أثناء الكتابة، وإن تشابهت بعض المفردات بين عموم الفلسطينيين وكانت مألوفة لمن يسمعهم.

هكذا إذن خرجت الترجمة في صورتها النهائية للكتاب، هذه الترجمة التي أضعها بين أيديكم، آملةً أن تجدوا فيها مادة غنيّةً توثّق المراحل التي مرّت فيها المرأة الفلسطينية في ثلاث مناطق مختلفة من فلسطين بالتزامن، حيث نلاحظ تشابهها وتشابكها معنا -نحن اللاجئين الفلسطينيين في شتى بقاع العالم، وكل امرأة في مجتمعنا الشرقيّ عمومًا- ونقف لنقرأ ملامح التغيير الحاصل بعد مضيّ حوالي ثلاثين عامًا من إجراء هذه المقابلات على أرض الواقع. ولو سألني أحدٌ عمّا أتمناه لأجبته برغبتي في لقاء ماريان وسميرة وليلى الآن، ولقاء بناتهنّ وحفيداتهنّ، واستكمال هذه الدراسة لأجيالٍ وأجيال.

أرجو من القارئ العربي أن يتمعن في الروايات الواردة على لسان الأمهات والبنات، وأن يتأنى قبل الحُكم عليهنّ -سلبًا أو إيجابًا- وأن ينظر إلى الرواية من خارج الإطار حينًا، ومن داخله حينًا آخر. إنها رواياتٌ سُجّلت أقربها عام 1995، وها نحن على أعتاب عام 2024 والمشهد الفلسطيني لم يتحرك للأفضل -إنما للأسوأ- وكل أحلام النسوة بدولة فلسطينية مستقلة، وسلامٍ عادلٍ شاملٍ ما زالت معلقةً بحبال المستقبل. أما على الصعيد الاجتماعي، فإن محاولات مجتمعنا تتقدّم، ويمكننا لمس تغييرات كبيرة على صعيد تعليم النساء وحرية اختيار الزوج -التي تعدّ حقوقًا أصيلة في كل الأديان السماوية شوّهتها العادات والمصالح الذكورية البحتة- لكن بين حينٍ وآخر يتبادل الجنسان الاتهامات، وعبارةٌ مثل «ما راحت فلسطين غير من ظُلْمْ الوَلايا» ما زلتُ أسمعها شخصيًّا على لسان الجدّات والأمهات

t.me/yasmeenbook

القريبات والغريبات، ولكنني لا أتمنى أبدًا أن أكرّرها على لساني لأحفادي، ولا أسمعها من نساء جيلي. لذا، فالمستقبل مرهونٌ بنا، ونحن أهله.

إنني شاكرةٌ لكل من مدّ لي يد العون ليخرج هذا الكتابُ إلى النور أخيرًا في ترجمته العربية، ليعود إلى بيته الأول، بدءًا بأخي عصام، وأستاذي أ.د. طاهر بادنجكي الذي أشرف على الترجمة الأولى لطالبته الخريجة، ود. صلاح ميتو، ود. خلود المنصوري اللذين شاركاه عضوية لجنة تحكيم المشروع وقتها، وعميد كليتي الآداب والتربية أ. د. تركي بني خالد الذي لم يساوره شكٌّ يومًا في قدراتي الأدبية. وأتوجه بجزيل شكري إلى منشورات غاف ممثلةً في العزيزة عفراء البنا، وأميرة بو كدرة، وبدور البدور. وأشكر العزيزة كاملة محمد من فلسطين المحتلة على مساعدتها في مراجعة بعض المواد الواردة في الكتاب تحرّيًا للدقة. وأشكر صديقتي ورفيقة دربي عايدة محجوب لاطلاعها على مسودة الكتاب، وملاحظاتها القيّمة. وأقدم عظيم شكري وامتناني للفنان التشكيلي الفلسطيني سليمان منصور الذي وافق بترحاب على تقديم لوحته الملهمة غلافًا للكتاب.

وأخيرًا، أهدي هذه النسخة إلى أمٍّ وحفيداتها..

إلى أمي غالية عبد الرحمن، وإلى بناتي: جنى، نور، لين.

أمل إسماعيل

2023

شكر وتقدير

بادئ ذي بدء، نود أن نعرب عن عميق امتناننا للنسوة السّت اللاتي وافقن على إخبارنا قصصهنّ. رغم أننا لن نذكر أسماءهن علانيةً -حفاظًا على وعدٍ قطعناه لهن- إلّا أننا نأمل في كوننا بيّنا لهنّ شخصيًّا كم نقدّر شجاعتهن وصراحتهن. كما نتقدّم بالشكر لمفيدة عبد الرحمن وليلى عطشان، اللتان مدتا لنا يد العون أول الأمر للتواصل مع بعضٍ من أولئك النسوة السّت، وشجعتانا وقدمتا لنا اقتراحاتٍ عمليّةٍ أثناء عملنا مع تلكم النسوة.

ونشكر كذلك سفيان كمال ودافنا لادن غوركن، ونزهة عثمان، ورفيقة عثمان، وصليبا صرصر، وإفراهام ودانييلا سترن، وعامنون توليدانو؛ لملاحظاتهم القيّمة على مخطوط الكتاب أثناء مراحل مختلفة من العمل عليه. وكذلك نشكر العاملين في مطبعة جامعة كاليفورنيا - سوزان صامويل ونولا برجر وإديث جلادسون؛ لخبرتهم الاحترافية في تحويل المخطوط إلى كتاب. ونتوجه بشكرٍ خاصٍّ إلى ليني وايتي التي وقفت وراء هذا المشروع منذ بدايته لحين إتمامه.

وأخيرًا، نود التعبير ههنا عمّا أشير إليه في طيّات الكتاب؛ إنّ عملنا معًا على هذا المشروع ما كان ليتصوّره أحدٌ لولا دعم عائلتينا؛ فإيمانهما بقيمة تعاوننا كان خير سندٍ أثناء اشتغالنا عليه.

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

مقدّمة المحرّر

سمير ديّال

يقدم كتاب ثلاث أمهات وثلاث بنات، لمحةً عن الحياة الفلسطينية اليومية تحت الاحتلال «الإسرائيلي» كما يراها الفلسطينيون. إنه نتاجُ تعاونٍ بين امرأةٍ مسلمة -رفيقة عثمان- تعيشُ في قريةٍ عربية، وطبيبٍ نفسيّ ممارس يهودي - مايكل غوركن. إن هذا التعاون متعدد التخصصات في حد ذاته يصب اهتمامه في مجال علم الإنسان الثقافي، لكن له مزيّة إنسانية. إن صداقةً تنعقد بين رجلٍ يهودي وامرأة عربية لأمرٌ غير غير مألوفٍ بما يكفي لأن يثيره المؤلفان نفسيهما، لكن عملهما معًا كفريقٍ يستعرضُ هذه الصداقة في هذا الكتاب يجسد الأمل في مستقبلٍ مشتركٍ «للإسرائيليين» والفلسطينيين. أملًا في أن تجد المجموعتان الثقافيتان سبلًا للعمل والعيش معًا.

هذا الأمل الذي يتبدّى في كلّ صفحةٍ من صفحات الكتاب كان كافيًا بالتأكيد لضمان إعادة نشر الكتاب في سلسلة الدراسات الثقافية الجديدة (نشرت مطبعة جامعة كاليفورنيا الكتاب أساسًا عام 1996). إنما بالإمكان تقديم أسبابٍ أخرى. فبوجود تشريعات المسلمين التقليديّة التي تحكم مشاركة المرأة في الحياة العامة على ما هي عليه، نادرًا ما نجد رواياتٍ «من الداخل» عن حياة النساء اليومية. ومع هذا فالكتاب لا يثير فضول المستشرقين أو الفضول الذي دفع العديد من الغربيين منذ عصر التنوير.

t.me/yasmeenbook

إنّما الروايات الشخصية للنساء السّت اللاتي شكّلن جوهر الكتاب هي التي تحظى بجاذبية عالمية. فقد أظهرن بأسلوبهن البسيط والمتواضع مقدار مشاركة العائلات «الإسرائيلية» والفلسطينية على أرض الواقع، مما يعيد بوضوح إنشاء شبكة الأحداث الصغيرة، والصّلات الأسرية الحميّمة التي تشكّل حياة هؤلاء الفلسطينيين، إنما بتصويرهم أيضًا بإحساس -متزامنٍ- بالأهمية التاريخية والميّزة الانتقاليّة للواقع الفلسطينيّ اليوميّ.

مكتبة ياسمين

سياسةُ كلّ يوم

كثيرًا ما يتناهى إلى سمعنا في الدراسات الثقافية مصطلح «الحياة اليومية». إلا أن التجربة اليومية للناس العاديين هي التي تختنق غالبًا تحت وطأة الفكرة النّظرية أو الجدل المطروح بإسهاب حول «معنى» اليوميّ. نسمع على سبيل المثال عن «مقاومة» المؤسسات أو السلطة في الفعل اليوميّ لسلوك متمردين عنها. نسمع عن عملية المفاوضات المؤثرة بين «الإسرائيليين» والفلسطينيين. نسمع عن مشكلة ذوبان الهوية الفلسطينية. إن المحاولة الجارية في معظم الدراسات التي تتناول قضايا الحياة والسياسة الفلسطينية اليوم (باستثناء إدوارد سعيد وعددٍ قليل من الكتاب الآخرين على غراره) غالبًا ما تنحو لتقديم إطارٍ نظريّ وتوضيحه عن طريق عددٍ قليلٍ من الأمثلة العرقية أو الثقافية. هذا حسنٌ في المجمل ومحمود. لكن قلّةً من الروايات تنجح في المزاوجة بين الخطاب النظري أو الأكاديمي وشهادة الحياة الشخصية الأكثر جموحًا وفوضى في كثيرٍ من الأحيان، جنبًا إلى جنب مع إحباطاتها وحتى عدم أهميتها.

إلّا أننا في هذا الكتاب نتعلم شيئًا عن الأمور العادية المهمة التي تعطي التجربة ماديّتها وآنيّتها: الملبس، والطعام، والعمل المهني والمنزلي الذي تمارسه النساء الصغيرات وكبيرات السن. إنّنا لا نقدم تعابير جاهزة أو كليشيهات (سبق أن قُدّمَت في دوائر الدراسات الثقافية باعتبارها مبدأ

t.me/yasmeenbook

أولًا في التفاهم الثقافي المتبادل لسياسات النوع الاجتماعي) عن الفصل بين الجنسين في المجتمعات المسلمة، إنما منظورًا حميميًّا ومعيشيًّا عن النطاق الفعلي للتفاعلات الاجتماعية بين الفتيات والنساء على النقيض من الحواجز التي تحول دون التفاعل الاجتماعي بين الجنسين. نتعرف على هذا الفصل الجنسيّ المسموح به من منظور الفتيات والنساء أنفسهن، من منظور المتحدثة نفسها. نرى أفراحهنّ من الداخل في خضم حياتهنّ المنزلية، بل ونصاحبهنّ في أحلك الأوقات، ونتلمّس مشقة تهجيرهنّ عن منازلهنّ قبل أن تدمّر أو تستولي عليها قوات الاحتلال.

تمنحنا النساء اللاتي قوبلن نافذةً على العديد من الأحداث التي شكّلت عتباتٍ في حياتهن: تعليمهن (حين حصلن على تعليمٍ رسميّ)، والأحداث الرئيسة في طفولتهن، ودخولهن عالم الكبار بالزواج، والأمومة، وأحيانًا حتى استشهادهن، والتقاليد والعقائد المرتبطة بهذه الأحداث. يشير الانتباه إلى تفاصيل الحياة اليومية لتقدير المؤلّفَين إلى أن السياسة الثقافية تبدأ من المستوى المحلي وقد تنتهي عند المستوى المحلي، عوضًا عن الإشارة إليها على الصعيد العالمي.

لكن هذا لا يعني أن النساء اللاتي قوبلن لم يوضعن في سياقٍ أوسع. ففي كلّ صفحة تقريبًا، تدرك النسوة اللاتي تمت مقابلتهن كل الإدراك كيف أن الجمود المستعصي في مفاوضات السلام بين «الإسرائيليين» والفلسطينيين يحوّل الواقع الدنيوي للأفراد والعائلات. ففي عائلتَي أم عبدالله وأم خالد مثلًا، يتجلّى تأثير الاحتلال القاسي فعلًا. ولا بد لهاتين المرأتين تحمل ضياع ما هو عزيز عليهما: البيت، والأولاد، ونمط الحياة. ومع ذلك فإن تسييسهما لا يجري التعبير عنه بلغةٍ عقدية جاهزة، إنما ينبثقُ من مكابدات الحياة اليومية. لأن الانخراط السياسي هنا يعدُّ مسألةً ضرورية، مسألة تمثيلٍ وتاريخ.

مكتبة ياسمين

الإسلام والحداثة الغربية

يدرك المؤلفان أنه في خضم النضال من أجل الاستقلال السياسي تنشأُ العديد من النزاعات بين قيم المسلمين التقليدية والمقتضيات الديموقراطية «الحديثة»، كالصراح بين احترام الإسلام لجميع أشكال الحياة والنشاط المسلح. فهم دومًا في حالة تأهّبٍ لمواجهة توتّرات محتملةٍ على صعيد العائلات بين ما يسمى بالقيم «الغربية» أو «الحديثة» مقابل القيم «التقليدية» في المقتضيات الشخصية والعامة. فعلى سبيل المثال كانا مدركَين للتناقض الذي تعانيه الشابات اللاتي قابلوهن فيما يتعلق بالعثور على شريك الحياة وبدء حياةٍ مستقلةٍ عن الوالدين. في الواقع، إن ما أضفى حدّةً على زيادة مشاركة النساء الفلسطينيات في النضال السياسي العلماني هو غالبًا ذلك التناقض الضمنيّ أو المعلن مع أهمية الدين والتقاليد في حياتهن.

فلدينا قصة سميرة -على سبيل المثال- التي ضبطها مدرّس الدين وهي تقرأ الأدب الماركسيّ. وهناك قصة أم خالد التي ما تزال تؤمن أشد الإيمان بقوة المعالجين الروحانيين التقليديين، بينما تعبّر في الوقت نفسه عن معارضتها للانتفاضة وتفضيلها الكبير لطريق سلميّ للمصالحة بين «الإسرائيليين» والعرب. بعبارةٍ أخرى، إن دراما ظهور المرأة في المجال العام يتصاعد بالتعقيدات الناشئة عن هذه الروايات الشخصية.

لا يُظهر كلٌّ من غوركن وعثمان أيّ فرضٍ لأي قيود مفاهيمية على

t.me/yasmeenbook

النساء اللاتي قابلوهن، وإن كان لدى غوركن -لكونه يهوديًّا- أيّ تحيّز أو حسّ دفاعيّ عن «إسرائيل»، فسيصعب على القارئ إيجاد أي دليل على ذلك في طيّات الكتاب. يتمتّع كلا المؤلفين بفضيلة السماح للنساء موضوع الكتاب بالتحدث عن أنفسهن بأصواتهن، مع احترامٍ للأسلوب العاميّ لكل واحدة على حدة، وإبراز التعبيرات العربية مما يُضفي إثارةً على الترجمة.

إن نغمة المؤلّفَين الهادئة في السرد، وتعليقاتهما التحريرية لهي تتمة للصبغة الآنية والعاطفية في كثير من الأحيان للروايات النسوة الست. وعندما يستعرضان وجهتي نظرهما فإن صراحتهما الشخصية تتطابق مع آراء النسوة في الدراسة. يتضح ذلك من ملاحظات غوركين التمهيدية -على سبيل المثال- حيث يدرك الطبيعة غير التقليدية لتعاونٍ بين رجلٍ يهودي «غربي، وامرأة عربية غير متزوجة تُجري بحثًا في علم الأجناس البشرية على نساء فلسطينيات. كما أن عثمان واعيةٌ هي الأخرى بذلك فتذكر في خاتمة الكتاب كيف أن دورها حُفّ بالمخاطر؛ حيث تجد نفسها تتصرف أحيانًا كراوٍ من أهل البلد، وفي أوقاتٍ أخرى كـ«صديقة» للنسوة موضع الدراسة. معترفةً بالوضع المهني والشخصي الصعب الذي تورطت فيه. فتعترف بأنها معرضة لحمل وصمة «عيب» وتعلم تمام العلم أن الدعم الذي تتلقاه من عائلتها المتفهمة ليس أمرًا يُعوّل عليه رغم ذلك. لكن كلا المؤلفَين يدركان أيضًا أحد مفاتن هذا الكتاب، ألا وهو الوعي الذاتي على وجه التحديد. إذ يعلمان أن أحد أسباب جذب هذا الكتاب لطالب الدراسات الثقافية المعاصرة هو التّطور العرقي الذاتي المرجعي، حيث يسمحون لأنفسهم بأن يصبحوا هم أيضًا مواضيع عرقيّة بطريقةٍ غير مباشرة.

مكتبة ياسمين

سياق الدراسات الثقافية

يهتم غوركن بإدراج الكتاب في سياق الدراسات الثقافية. وقد نقول إن قيمة الكتاب للدراسات الثقافية ترجع في المقام الأول إلى الوصول الذي يوفره «العمل الميداني» للمؤلفين إلى المجال الخاص للغاية للأسرة المسلمة، والأهم من ذلك الوصول إلى حياة ونفسية محددة لنساء مسلمات. إذ من المهم احترام هذه الخصوصية، فقبل كل شيء تختلف هؤلاء النسوة الست اختلافًا كبيرًا، ولا يمكن بسطُ تعميماتٍ سهلة عن مواقف أو نظرة «المرأة المسلمة» -كما لو كان شيءٌ كهذا موجودًا في الأساس. أصبح من بداهة حقائق الدراسات الثقافية عدم تقديم صورة نمطية «للمسلم» كما هو الحال مع رفض تقديمها في تصور «الشرقيّ» أو «الرجل الأسود» باعتبارها كياناتٍ متماثلة.

عمومًا، إحدى الاهتمامات الرئيسة للدراسات الثقافية هي بناء الذاتية في سياق تاريخي. بدا غوركن وعثمان حسّاسَين لهذا الأمر. إذ قالا إنهما لم يصبا اهتمامهما فحسب «للتركيز على الاختلافات بين تجربة جيلين»، إنما «التقاط لمحةٍ من الطبيعة الذاتية والموضوعية للرواية بحد ذاتها». مضيا للاعتراف كذلك بتأثيرهما الحتمي لدورهما تحريرًا وفلترةً: «حقيقة أننا -نحن المؤلّفَين- اخترنا تقديم بعض هذه الاختلافات من منظورٍ معيّنٍ لا من سواه، بما يعدّ بُعدًا ذاتيًّا آخر لا يمكن إغفاله».

t.me/yasmeenbook

يتصدّى غوركن صراحةً للتحدي السافر الموجه ضد العرقيات التقليدية الظاهر في النظريات الحديثة للدراسات الثقافية. متحدثًا -مثلًا- عن قضايا تحري الدقة والحقيقة في تمثيل حياة «الرواة»، وهي قضايا تناولتها ما أطلق عليه «مدرسة ما بعد الحداثة لوصف الأجناس البشرية». وفقًا لما بعد الحداثة في وصف الأجناس البشرية، يساهم كلٌّ من الراوي والمحقق في بناء النص ومعناه. إذ يجب أن يصبح هذا الإنتاج الحواريّ لحياة الراوي -وفقًا لهذه المدرسة الفكرية الجديدة- جزءًا من القصة، أو يجب إظهار الرواية المكتوبة نفسها على الأقل باعتبارها وعيًا ذاتيًّا بطبيعة الحوار و«جزئياته». يقول غوركن إنه يتفق وعثمان من حيث المبدأ «كلًّا من الراوي والمحقق يساهمان في إنتاج النص»، ويدركان أن خلفيتيهما باعتباره رجلًا أبيض (يهوديًّا) غريبًا وهي أنثى (مسلمة) لعبت بالتأكيد دورًا في كيفية ظهور روايات النساء السّت. كان من الممكن للمقابلات التي تستند إليها الروايات السردية أن تصبح مستحيلة أو مختلفةً جذريًّا لو أنهما حاولا إجراء المقابلات بمفردهما. لو حاول غوركن إجراء مقابلةٍ مع النسوة بنفسه -على سبيل المثال- فمن المؤكد أنهن لن يكُنّ على القدر نفسه من الجاذبية كما بَدَون فيما يتعلق بالأمور الحميمة - تلك المتعلقة بالحياة الجنسية للنساء وعواطفهن.

لكن غوركن وعثمان ليسا ما بعد حداثيين؛ فوضعا نصب عينهما اعتباراتٍ معينة على الرّاويات، مقرّين أو مقلّلين بوَعيٍ من أيّ شكٍّ حول صحة أو قيمة الحقيقة للتاريخ الشّفهي المعروض في هذه الصفحات. كان للنسوة اليد الطولى والصلاحية المطلقة على رواية قصص حياتهن. وقد حاول غوركن وعثمان قمع أي تحريرٍ واعٍ أو تشويهٍ للتاريخ الأصلي، وسعيا بقدر الإمكان للمحافظة على موضوعية السجلات الوثائقية للتجربة

مكتبة ياسمين

الأصلية وغير الوسيطة. على أي حال، على القارئ أن يفهم أن كل البطاقات معروضة على الطاولة، وأن الكتاب ليس غافلًا بسذاجة عن القضايا الحديثة في الدراسات الثقافية في الوقت نفسه. لذا نأمل ألا يوجّه الكتاب للقراء الأكاديمين فحسب، إنما للقراء المهتمين عمومًا بالتفاهم بين الثقافات.

المراجع

- Freire, Paolo, (1970). The Pedagogy of the Oppressed. Trans. M.B. Ramos. New York: Seabury.
- Haddad, Yvonne Yazbeck, and Esposito, John L., eds. (1998). Islam, Gender, and Social Change. New York: Oxford University Press.
- Hatem, Mervat. (1998). Secularist and Islamist discourses on modernity in Egypt and the evolution of the postcolonial nation-state. In Islam, Gender, and Social Change, ed. Y. Haddad and J. Esposito, pp. 85-99.

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

تمهيد

بقلم مايكل غوركن

التقيتُ رفيقة عثمان في ربيع عام 1989م - بعد شروعي في الدراسة الميدانية لكتابي عن عائلة فلسطينية «أيام العسل، أيام البصل» (1991) بفترةٍ وجيزة. إذ رحل معلّم اللغة العربية الذي تولى إعطائي دروسًا خاصّة، فاقترح عليّ صديقٌ مشتركٌ رفيقة، التي كانت في ذلك الوقت -وما زالت- معلّمةَ تربيةٍ خاصّة، لا معلّمة لغة. اقترح صديقنا رفيقة باعتبارها قادرةً على تعليمي التحدّث باللغة العربية بما يؤدي الغرض - بالإضافة إلى اعتبارها إحدى المقيمات في قريةٍ عربيةٍ داخل «إسرائيل»، مما يعني قدرتها على مساعدتي في فهم بعض ما أمر به في ميدان العمل. اتّضح أن صديقنا كان محقًّا تمامًا فيما يتعلّق بالنقطة الأخيرة، أما بالنسبة لمسألة إتقاني العربيّة، فقد جانبه الصواب، إذ ما زلتُ ورفيقةَ نتساءل متندّرين عمّا إذا كان تواضعُ حصيلتي اللغوية راجعًا إلى المعلمة أم التلميذ.

على أيّة حال، كانت تلك بداية صداقةٍ غير مألوفة، تمخّض عنها هذا الكتاب. أقول «غير مألوفة» لأن أيّ مُطّلعٍ على الأوضاع في «إسرائيل»/ فلسطين يدركُ تمام الإدراك أن الصداقة بين اليهود والعرب ما زالت تعدّ «غريبةً» إلى حدٍّ ما، فكيف إن صارت بين رجلٍ وامرأة. إن قدرتي أنا ورفيقة على مواصلة صداقتنا وعملنا معًا راجعٌ -أولًا- إلى تفتّح أذهان عائلتينا -

t.me/yasmeenbook

اللتين ندين لهما بعظيم الامتنان. ولعلّها أيضًا إشارةٌ مبشّرةٌ ألّا نواجه عقباتٍ أثناء دراستنا الميدانية بين الفلسطينيين رغم أمارات العجب المرتسمة على الوجوه، حيث أميل للاعتقاد أن جزءًا نجاحنا في تجنب هذه المشكلة عائدٌ لصدمة كوننا أوّل ثنائيٍّ من نوعه يظهر في هذه القرية أو تلك.

اتُّخِذَ القرار الفعليّ بالعمل على الدراسةِ معًا على مهل؛ إذ اقتصر تواصلنا لمدة سنةٍ ونصف السنة على دروس اللغة العربية. تجيء رفيقة طواعيةً إلى شقّة عائلتي في القدس مرّتين في الأسبوع حيث نتحدّث -أو نحاول التحدّث- بالعربية. في الغالب كنّا نتحول للحديث بالعبرية -التي يتقنها كلانا بطلاقة- وذلك لمناقشة ما أمرّ به من تجارب مع العائلة الفلسطينية بتفصيل. وأثبتت هذه المناقشات أهميتها في فهمي للعائلة. علاوةً على ذلك، بدا واضحًا مع مرور الوقت أنّي وجدت في رفيقة -بمحض الصدفة- ترجمانًا نافذ البصيرة لمجتمعها. كما حظيتُ بصديقة. أمّا بالنسبة لرفيقة -وذلك ما شعرتُ حياله بغموضٍ حينها- فكانت تجربةُ تحليل الثقافة الفلسطينية برمّتها مع شخصٍ غريبٍ تجربةً جديدةً عليها ومدهشةً. لقد أصابها «هَوس» علم الأعراق البشرية- إن جاز لي تسميته بذلك -وأصبحت مشتاقةً لخوض غمار التجربة.

أما بالنسبة لي؛ فقد أصبتُ بهذا «الهوس» منذ زمنٍ بعيد، ونتيجةً لذلك لم يعد عملي طبيبًا نفسيًّا ممارسًا مُستقرًّا كما كان؛ إذ قلّصتُ جذريًّا عدد الساعات السريرية التي أشتغلها لأجد نفسي منجذبًا إلى الأدب المتعلق بعلم الإنسان -تحديدًا دراسات وصف الأعراق البشرية لسكّان منطقة الشرق الأوسط- وهي جولةٌ لا آسَفُ على خوضها. أفضّل التفكير في أنها -بل إنني واثقٌ- أضافت إلى فهمي الطبّي -إن لم يكن لحجم ممارستي الطبيّة. آملُ كذلك أن خلفيتي الطبيّة قد ساهمت في عملي المتعلق بالأعراق البشرية- إذ رغم قراءتي حتى اللحظة عددًا كافيًا من الدراسات التي أجراها علماء أكفاء

مكتبة ياسمين

في مجال وصف الأعراق البشرية إلا أني أدرك ما يحيط بهم من شكوكٍ تجاه من يتجاسر على دخول عرينهم، مثلهم مثل زملائي علماء التحليل النفسي الذين يرتابون فيمن يتجاسر على التحليل النفسي دون خوض تدريبٍ فيه. أيًّا يكن، فمن الصعب بالنسبة لي أن أتخيل التّخلي عن أيٍّ من النشاطَين في هذه المرحلة.

أعتقدُ أن مَزج علم النفس السريريّ بعلم الأعراق البشرية جزءٌ لا يتجزّا من جهودي، ورغبةً أيضًا في مواصلة العمل مع رفيقة، وهو ما تمخّض عنه مشروعنا التالي: دراسة حول المعالجين النفسيين التقليديين في المجتمع الفلسطيني. أثار اهتمامي هذا المجال بينما كنتُ أجري دراستي الميدانية عن العائلة الفلسطينية. فلدى تلك العائلة إيمانٌ عميقٌ بقدرات الشيوخ[1] الشفائية، ورفيقة نفسها كانت ممارسةً مبتدئةً لهذه الفنون الغامضة. ما استطعتُ مطلقًا مناقشتها مطوّلًا في أيٍّ من ذلك بسبب زوجها -مُخبري الرئيس- الذي احتقر هذا «الهُراء» -كما سمّاه- علانيةً، ولم يبد أن الأمر يستحق تعريض علاقتي معه للخطر بخوضي في تفاصيل هذا الموضوع مع زوجته. لكنني ناقشت الأمر مع رفيقة. وحدَث أن جدّتها لأبيها تؤمن هي الأخرى بالشيوخ، وقد ترعرت وهي تسمع عن خطر عين الحسود، والسحر الأسود، وعلاجاته السحرية المعمولة بوساطة معالجين أيضًا. رغم عدم إيمانها بذلك إلا أن رفيقة شعرت بالفضول ذاته الذي ساورني، لذا قررنا محاولة البدء في مشروع عملنا الأول معًا بعد فترةٍ من تبادل القصص والأفكار وقراءة الأدب المتعلق به. بدا عملنا الميداني في المجتمع الفلسطيني معًا -ورؤيتنا معًا- خطوة قد تضع رفيقة تحت وطأة انتقادٍ شديد، لكنها

---

1. مصطلح الشيخ (ومؤنثه الشيخة): يُطلق على المُعالج التقليديّ. كما أن المصطلح دينيٌّ أيضًا يُطلَق على الفقيه أو العالم المسلم.

t.me/yasmeenbook

عقدت العزم على تقبّله. وكابنةٍ تحترمُ أهلها شعرت بأنها ملزمةٌ بإبلاغ والديها. علاوةً على ذلك، فرفيقة على معرفة عائلتي قبل أن أُقابِلها، أمّا والداها -اللذين تعيشُ معهما- لا يعلمان بأمرنا شيئًا.

بمرور الوقت رُتّبَ لقاءٌ -حفل غداء في منزل رفيقة- حضره كل أفراد عائلتها لمقابلة عائلتي. تلا الغداء زيارةٌ إلى أهالي القرى ثم تجولنا في قريتها (ما زالت مَشاهِد ابنتي وهي تمرحُ في غابة اللوز بصحبة ابنة أخت رفيقة تتراءى لي، محاولةً التّواصل معها بطريقةٍ ما في غياب لغةٍ مُشترَكة). لم يعلّق أحدٌ في ذلك اليوم على مسألة عملي ورفيقة معًا، فاستنتجَتْ رفيقة إذ ذاك أن مشروعها نال مباركة والدَيها.

طوال عامٍ تقريبًا جُبنا «إسرائيل» والضفّة الغربية كلّما سنحت لنا الفرصة جامعين بياناتٍ من المعالجين ذكورًا وإناثًا. وربما لم يفاجئنا عددُ أولئك الشيوخ الذين افترضوا أننا زوجان باحثان عن علاجٍ، بل إنهم شرعوا فورًا بعرض قراءة الطالع لنا. لكن عندما أبلغناهم بصدقٍ -إن لم يكن بنبرةٍ جادّةٍ- بنوايانا الحقيقية، تعاونوا معنا، والفضل كل الفضل في ذلك يعود كليًّا إلى رفيقة. فرغم أنها لم تحاول قطّ إجراء دراسةٍ ميدانيّةٍ وحدها، إلّا أن لها أسلوبًا طبيعيًّا وفوريًّا للفوز بالثقة («إنني أعلم دومًا إن كان في استطاعي الثقة بشخصٍ ما من وميض عينيه، هذا ما قالته شيخةٌ متحاشية عينيّ ناظرةً مباشرةً إلى رفيقة، مُردفةً: وهذا الوميض في عينيك يبدو مُستحبًّا!») كانت المعلومات التي جمعناها أثناء إجرائنا هذه المقابلات أكثر بكثيرٍ مما نحن في حاجةٍ إليه لإجراء بحثٍ تخصّصي. في لحظةٍ ما، فكّرنا في تأليف كتابٍ عن إحدى النساء المعالجات -تلك الشيخة- لكن قرارنا استقرّ على جعلها دراسة تخصّصية، اتضّح لاحقًا أنها أول ورقةٍ بحثيّةٍ تُنشر في «إسرائيل» كتبها رجلٌ يهوديّ وامرأة عربية، تحت عنوان (المعالجون والمعالجات النفسانيون

مكتبة ياسمين

التقليديّون في المجتمع الفلسطيني - مجلة «إسرائيل» للطب النفسي 31 [1994]: 221 - 31)

بحلول هذا الوقت شكّلنا أنا ورفيقة فريقًا معًا، وعزمنا على مشروعٍ أكبر. في الحقيقة عثرنا على ذلك المشروع الكبير بينما كنّا منخرطين في مشروعنا عن المعالِجين: كتابٌ عن النساء الفلسطينيّات. كان لكلّ منّا سببهُ الذي يدفعه لتناول هذا الموضوع. بالنسبة لي يرجعُ ذلك إلى الكتاب الأول عن العائلة الفلسطينية، والإحباطات التي خضتها -باعتباري رجلًا- محاولًا مقابلة نساء تلك العائلة. أدركُ أنني لم أصور حياة النساء بإنصاف (وقد ذكرتُ هذه المشكلة في غلاف الكتاب الخلفي لطبعة 1993). أدركتُ أيضًا أن السبيل الوحيد الذي أملكه للكتابة عن النساء هو العمل مع أنثى باعتبارها مؤلّفةً مُشاركة. وفي رفيقة وجدتُ شريكتي المؤلّفة. أمّا من جانب رفيقة، فرغبتها في الكتابة عن النساء الفلسطينيّات ذاتُ نزعةٍ شخصيّة مفهومة. ولسوف تتحدّثُ عن ذلك في خاتمة الكتاب؛ إذ تشعرُ بأن قصتها وقصص عديدٍ من النساء الفلسطينيات الأخريات لم تُروَ روايةً وافية. وهذا الكتاب -كما شعرَت- يمثّل طريقةً لحكاية بعضٍ من هذه القصص.

وهكذا شرعنا في البحث عن بعض النساء الفلسطينيّات -أمهاتٍ وبناتٍ- اللاتي سيخبرننا قصصهن... كنت أفضّل إنهاء المقدّمة بهذه الجملة، أو عباراتٍ لبقةٍ أخرى، لكنّي بصراحةٍ إن فعلتُ ذلك فقد يُسقطُ هذا تطوّرًا مهمًا -رغم أنه محبطٌ- احتلّ موقعه أثناء عملنا على هذا الكتاب. وباستعادةِ تلك الأحداثِ، فقد كان ينبغي توقّعها، لكن المفاجأة ألجمتني عندما وقعت. سيجمعُ القارئ -كما أتصوّر- أن صداقتي ورفيقة كانت مثاليةً بلا خلافات حتى شروعنا في هذا الكتاب. لقد غيّر الكتاب ذلك. فما أسرع ما اتّقدت نار خلافنا الأول بمجرد أن بدأنا تخطيطنا. دار خلافنا حول: ممّن سيتكوّن الثنائيّ

t.me/yasmeenbook

الذي سنختاره -الأم والابنة- من بين الذين أصبحنا نعرفهم بينما كنّا نكتبُ حول المعالجين. شعرتُ أنّهن مواضيع ممتازة للكتاب الحاليّ، بينما شعرت رفيقة بالعكس؛ فعائلاتهنّ كانت جلّابةً للمشكلات، ولذلك اعتُبرن غير ملائمات. كانت عنيدة -سمةٌ لم ألحظها فيها قبلًا- وبكثيرٍ من التردّد سايرتها.

سرعان ما تبع ذلك خلافات أخرى بشأن بعض القضايا الجوهرية التي سيتناولها الكتاب. فعلى سبيل المثال؛ أردتُ تعقّب الموضوعات الجنسية أكثر مما أرادت رفيقة؛ فهي -باعتبارها ابنة البلد- شعرت أن التعمق في هذه المسائل يعدّ تعدّيًا على خصوصية النساء وكرامتهن. وأنا -الغريبُ- اعتقدتُ أن هذه المادة أساسية جدًّا لأي كتابٍ يتناول النساء. برزت بضع خلافاتٍ مهمّة أيضًا. إلّا أن أكثر خلافاتنا جديّةً لم يتناول من أو ماذا سيتضمّن الكتاب؟ إنما أمرٌ آخر -يبدو في ظاهره عرضيًّا- ألا وهو السرعة التي يمكننا فيها إنجاز المقابلة. باختصار، أردت إجراء المقابلات بسرعة، بينما أرادت رفيقة إجراءها على مهل. تطلّب عثورنا على مواضيع مناسبة عدّة أشهر، وبمجرد عثورنا عليها أردت التأكد من حصولنا على المادة المطلوبة -خاصّة عندما بدا أن إحدى النساء فقدت الاهتمام بالتحدّث إلينا. رفيقة -التي كانت لديها التزامات تخصّصية أخرى تشغلها على كل حال- اقترحت التريّث بعض الشيء ومتابعة إجراء المقابلات على مهل كما سبق وفعلنا مع الشيوخ. تصاعدت وتيرة الخلاف -الذي بدا كامنًا في بدايته - ليتحوّل إلى شجارٍ عارم. عند هذا الحد تدخلت زوجتي -وهي عالمةٌ نفسيّةٌ أيضًا- لتخبرني (برأيٍ نسائيٍّ خالص) أنني أخسرُ مقدرتي على تقدير الأمور، واقترحت عليّ البحث عمّا جعلني أسهمُ من طرفي في نشوب هذا الشجار.

ففعلتُ، واتّضح لي -أو باتَ أكثر وضوحًا- فلأقل.. إنني حاولتُ فرض آرائي على رفيقة دون استعدادٍ للتفاهم. فعلتُ ذلك -عليّ الاعتراف

مكتبة ياسمين

لأنّ جانبًا عميقًا منّي أحسّ بأنه امتيازٌ أستحقّه -لأنني أكبر، وأكثر خبرة، و.. أجل.. لأنني رجلٌ غربيٌّ. تجلّى لي أن هذه القضايا لم تطفُ على السطح بيننا من قبل لأن رفيقة لعبت دورًا ثانويًّا -بل وإيجابيًّا- دون تذمّرٍ إلى أن شرعنا في هذا الكتاب. فالآن، بشخصيّتها المنخرطة كليًّا في هذا المشروع سعَت لتأكيد مركزها. في واقع الأمر، بات واضحًا في خضمّ ما واجهناه في طريقنا كيف أننا خضنا بشكلٍ مؤلمٍ صراعًا يضربُ كبد الحقيقة في قصص النسوة الواردة في هذا الكتاب. بقدر ما بدا كلّ ذلك مثيرًا للاهتمام لي، إلّا أنه شكّل كذلك لحظةً من الحقيقة المخزية. للحظةٍ اعتبرتُ أن التخلّص من المشروع عين العقل، لكن -ظاهريًّا- لم أسلك ذاك المسلك، محاولًا عوضًا عن ذلك العمل حلّ تلك المشكلات قدر استطاعي مع رفيقة أثناء إنجاز الكتاب.

إنني مرتاحٌ لأن صداقتنا نجت من هذه الخبرة خارجةً بأقل العيوب التي أمكن معالجتها. وربما ساهمت حتميّة الأزمة في صدور الكتاب نفسه. وقد أعادت إليّ بالتأكيد بعض النضالات التي تناقشها موضوعاتنا المطروحة في هذا الكتاب، كما لم يستطع غيرها فعله. على أيّ حال، فبمزيدٍ من التفاهم، وضميرٍ أنقى نوعًا ما، أشعرُ أن بإمكاني القول الآن:

وهكذا شرعنا في البحث عن بعض النساء الفلسطينيّات -أمهاتٍ وبناتٍ- اللاتي سيخبرننا قصصهن...

مايكل غوركن

أكتوبر 1995

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

المقدمة

حصلت النساء الفلسطينيات مؤخّرًا على شيءٍ من الاهتمام، هنّ المغيبات تغييبًا شبه كاملٍ عن رصيد تاريخ الشرق الأوسط، وحتى التاريخ النسائي المروي[1] عمومًا. فمنذ اندلاع الانتفاضة -الانتفاضة التي اندلعت في الضفة الغربية وقطاع غزة عام 1987م -تولّد اهتمام جديد حول هوية هؤلاء النسوة: النسوة اللواتي نزحن عن الوطن والبيت -كنظيراتهن الجزائريات قبل قرابة ثلاثة عقود- وذكل لمواجهة جيش الاحتلال. لقد حاول عددٌ من التقارير الصحفية والدوريات -بالإضافة إلى بعض الكتب- توثيق قصص هؤلاء النسوة اللاتي تركن بصماتهن على سير الأحداث في سياسة الشرق الأوسط.

ومع ذلك، لم تُصوّر أصوات النساء الأصيلة والمتنوعة تصويرًا كافيًا في هذه الأدبيات المتنامية. في الواقع، بدت لنا مفارقةٌ غريبة؛ إذ بُذلت جهودٌ حثيثة لوضع هؤلاء النسوة على الخارطة الاجتماعية والسياسية، بينما فقدت البِنية الشخصيّة لحياتهن الفردية أوجها. باختصار؛ مُنحت المرأة الفلسطينية حقّ التعبير، لكن المرأة الفلسطينية باعتبارها فردًا ما زالت -في الأغلب-

---

1. أكدت روز ماري صايغ على إهمالهن هذا في التمهيد الذي كتبته على ورقة عريب النجار، صورة المرأة الفلسطينية (سولت لايك سيتي: مطبعة جامعة يوتا، 1992)

t.me/yasmeenbook

مهمّشةً وقد تجلّى ذلك في أفضل سرد حديث عن المرأة الفلسطينيّة[1].

من هذا المنطلق، بحثنا عن سبيلٍ يمكننا من خلاله نقل أصواتٍ شخصيّة للنساء الفلسطينيات بوضوحٍ أكبر. فكما يوحي عنوان الكتاب، اقتصر تركيزنا على ستّ نساء - ثلاث أمهات وثلاث بنات. وقد حاولنا عن طريق السرد التاريخي الشفوي تسليط الضوء على التجارب الشخصية المهمة والمختلفة لهؤلاء النسوة. بالإضافة إلى التغييرات الاجتماعية الشاسعة التي طالت حياة المرأة الفلسطينية في النصف الماضي من هذا القرن، وارتباطها بذكرياتها ونتائجها على كلٍّ من الأمهات والبنات. ومن الجليّ أن لا امرأة من بين النسوة الستّ -ولا حتى ضعف هذا الرقم مرّةً أو مرتين- يمكنهنّ تصوير سلسلة كاملة من تجارب النساء الفلسطينيات. إلا أننا نأمل بتركيزنا على بعضهن أن نصف شيئًا من الواقع الغنيّ للكثيرات.

❧

لكي نتتبّع الروايات الشخصية للنسوة الواردة في هذا الكتاب، فمن المفيد استحضار بعض الحقائق التاريخية -خاصة التاريخ الحديث- لـ«إسرائيل» وفلسطين. هذه الأحداث التي صممها الرجال برمّتها، وألقت بظلالها على حياة المرأة بشكلٍ كبير. ونتيجةً للك فإن التاريخ المحكيّ للنسوة الواردات في الكتاب يشيرُ إلى بعض الثورات والحروب التي حلّت على المنطقة. نفترضُ أن العديد من القراء على دراية بهذا التاريخ -طالع الوصف الموجز الذي أعدّه مايكل غوركن لهذه الأحداث في مجلّدٍ آخر أو

---

1. من وجهة نظرنا، فإن أفضل من روى عنهن هما صورة المرأة الفلسطينية للنجار، والأرض قبل العرض لكيتي وارنوك (نيويورك: مطبعة النشرة الشهرية: 1990). كلا الكتابين قيّم في توثيق دور النساء الاجتماعي والسياسي.

مكتبة ياسمين

طالع ملخص كيتي وارنوك كبديلٍ له بعنوان الأرض قبل العَرض[1]، حيث اقتصرنا ما أوردناه هنا على الأحداث الرئيسة (انظر مسرد الأحداث التاريخية الوارد في نهاية الكتاب). كما بدا ضروريًّا إضافة ملاحظاتٍ توضيحيّة لبعض قصص النسوة الشخصية أيضًا.

بالإضافة إلى الفهم العام للتاريخ، من المفيد قراءة هذا التاريخ المحكيّ بدرجةٍ من الوعي لبعض التغييرات الشاسعة التي حدثت في هذا القرن على صعيد الحياة الاجتماعية للمرأة الفلسطينية -التغييرات التي سببت هياجًا كبيرًا في المجتمع الفلسطيني. نُشير هنا إلى التغييرات الحادثة على صعيد التعليم، وأدوار المرأة الاجتماعية والسياسية. وبقدر ما تبدو هذه المادة المقدمة فقيرة بالتفاصيل إلا أننا نرسم بشكلٍ عامٍ بعضًا من هذه النقلاتِ النوعية، بالإضافة إلى تقييمنا لمعناها وأهميتها.

ربما كان أبرز مقياسٍ للتغيير في حياة النساء هو الزيادة المهولة في المستوى التعليمي على مدار النصف الماضي من القرن. فقبل عام 1948 كانت الأغلبية العظمى من النساء الفلسطينيات أميّات، بينما تحصلُ معظم الفتيات الفلسطينيات اليوم على قدرٍ من التعليم، وأغلبهن يدرسن سبع سنواتٍ أو أكثر[2]. إن الاتجاه نحو زيادة التعليم شمل الرجال الفلسطينيين

---

1. مايكل غوركن، أيام العسل وأيام البصل (1991: أعيدت طباعته، بيركلي، مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1993)، 12-8: وارنوك، الأرض قبل العرض، 18-1.

2. في عامي 1944 - 45 كانت هناك مدارس ابتدائية للبنات في 46 قرية فلسطينية من أصل حوالي 800 في البلدات والمدن، بينما كانت هناك مدارس أكثر للبنات حيث تعيش النسبة الأقل من السكان. (صايغ، «النساء الفلسطينيات»، 15). في عام 1992، تلقّت 37 في المائة الإناث في غزة ممن أعمارهن خمسة عشر أو أكبر، سبع سنواتٍ من التعليم أو أكثر، ونسبة 50 في المائة في الجديدة والسامرة (في الضفة الغربية) (دائرة الإحصاء المركزية، الملخص الإحصائي «لإسرائيل» 45 | 1994|، 830 - 31). في «إسرائيل»، للعام الأكاديمي 1992 - 93، فإن نسبة 71 في المائة من الفتيات التي تتراوح أعمارهن بين أربعة عشر وسبعة عشر تلقين التعليم المدرسي. (المرجع نفسه، 650).

t.me/yasmeenbook

صحيحٌ كذلك، ولكن القفزة الدراميّة الأكبر حصلت عند النساء. بالإضافة إلى ذلك، فقد حدثت نقلةٌ ثوريّةٌ عميقة فيما يخصّ تعليم المرأة؛ فقد كانت الرؤية المهيمنة قبل عام 1948 هي أن تعليم الفتيات -بما في ذلك التعليم الابتدائي- غير مرغوبٍ فيه، أما الرؤية السائدة اليوم -حتى في معظم القرى الأكثر تقليدية في «إسرائيل والأراضي المحتلة- فهي رؤية تفضّل التعليمين الابتدائي والثانوي كليهما. وهناك جدلٌ أوسعٌ -خاصّة في المناطق المحافظة- يطال فائدة التعليم الجامعي للمرأة. تشكّل النسوة في «إسرائيل» حتى الآن ٪41 تقريبًا من الملتحقات بالجامعة العربية[1]، ٪35 منهنّ من الضفة الغربية وقطاع غزة[2].

وراء هذه الإحصائيات بالطبع تستترُ الحياة الفردية للنساء اللواتي نجحن أو فشلن في تحقيق تطلّعاتهن التعليمية، حيث تقدّم الأمهات الثلاث وبناتهن أمثلةً واضحةً حول الدور الذي يلعبه التعليم في العائلات الثلاث. إن جميع الأمهات في دراستنا هذه أميّات -اثنتان منهم لم تذهبا قطّ إلى المدرسة، وإحداهن التحقت بالصف الأول فحسب. وفي مقارنةٍ صارخةٍ فإن ابنتين التحقا بالجامعة، وأتمّت الثالثة دراستها حتى الصف التاسع. وفي بعض الحالات دعم الآباء تعليم بناتهم وفي بعضها الآخر عارضوه. لكن في الأغلب شجّعت الأمهات غير المتعلماتِ بناتهنّ للإقدام على ما عجزن عنه، مما أدى -أحيانًا- إلى توسيع الهوّة بينهن.

الأمر الآخر الذي طاله تغيير رئيسٌ في المواقف وردود الفعل كان اختيار الزوج. لقد قطعت المرأة الفلسطينية اليوم شوطًا عظيمًا في امتلاك حق

---

1. وفقًا لبيانات الحضور الجامعي للعام الأكاديمي 93-1992 (دائرة الإحصاء المركزية، ملحق للنشرة الشهرية 4 [1995]: 71).

2. الملخص الإحصائي، 31-830.

مكتبة ياسمين

اختيار زوجها بما لا يقارن مع ما كان عليه الحال قبل أربعين أو خمسين عامًا مضى. ففي عصر الأمهات كان الزوج يُختار على الدوام تقريبًا بموجب رغبة الوالدين -خاصّة الأب. أما الآن، فللبنات الحرية في رفض اختيار الوالدين -خاصّة الجامعيات منهن- ويمتلكن الحرية غالبًا في اختيار أزواجهن، بما يتماشى مع موافقة الوالدين. رغم ذلك يتطلب اختيار الشريك وجود حريّة أكبر للتواصل فيما بين الشباب والفتيات، وهنا يكمن لبّ القضية؛ فالمجتمع الفلسطيني -من القرية إلى المدينة- ما زال إلى اليوم محافظًا بشكلٍ كبيرٍ على كل ما يعتبر من وجهة نظره «مُغازلة». فبينما وصل الشباب والشابات الفلسطينيون إلى درجةٍ أكبر من التواصل سواء في الجامعات أو العمل مقارنة بما كان عليه الحال قبل خمسين سنة، إلا أنهم لم يحصلوا بعد على الإمكانات السهلة للصداقة أو الجنس التي تشكّل المغازلة في المجتمع الغربي. في قصص النسوة في هذا الكتاب سنلاحظ تغييرات مستفيضة حدثت في هذا الجانب خلال النصف الأخير من القرن، بالإضافة إلى استمرار القوى المحافظة. كما سنرى كيف أن كل امرأةٍ تكيّفت مع ضغوط عائلتها -بطرقٍ شتّى- في محاولةٍ لممارسة مساحة أكبر من الحرية التي شكّلت -في بعض الأحيان- خطرًا كبيرًا عليها.

أما الأمر الثالث من التغييرات التي طالت البِنية التقليدية للمجتمع الفلسطيني فتعلّقت بارتفاع معدل توظيف المرأة في القطاع العام. فالمجتمع يتوقّع من المرأة عادةً أن تتولى تربية الأبناء والعمل في المنزل أو في حقول العائلة -لا العمل خارج نطاق العائلة. وقد حدثت نقلةٌ نوعيّةٌ في السنوات الخمسين الماضية في هذا المجال -خصوصًا في المدن والبلدات- وفي معظم القرى أيضًا. لا شك في أن رعاية الأطفال والأعمال المنزلية ما تزال تعتبر مسؤولية المرأة على نطاقٍ واسع، إلا أن العقود الأخيرة شهدت ازدياد

t.me/yasmeenbook

أعداد النسوة العاملات في وظائف خارج المنزل ليشكّلن قوّةً عاملةً في مجال الصناعة والحداثة التي أدّت لنقلةٍ في الاقتصاد الزراعي التقليدي الفلسطيني في العقود الأخيرة وما تلاها[1].

فاليوم تعمل النساء الفلسطينيات من جميع المستويات خارج البيت -معظمهنّ في وظائف لا مهاريّة- لكن أخرياتٍ يعملن في مواقع تتطلّب مهارةً عاليةً جدًّا. يتجلّى هذا الاتجاه في العينة الصغيرة من النساء اللواتي وردنَ في هذا الكتاب. فالأمهاتُ الثلاث -اللواتي ارتبطن بالأنماط التقليدية، وافتقرن إلى التعليم- بقين جميعًا في البيت ولم يخضن مجال العمل إطلاقًا -واثنتان من البنات تعملان خارج البيت، إحداهما معلّمة والأخرى أخصائيّة اجتماعية، والثالثة تعمل جليسة أطفالٍ بالأجرة في بيتها. تمكّنت المرأتان الجامعيّتان من خوض غمار العمل العام وسط معارضةٍ خجولةٍ -وعمومًا بتشجيعٍ من رجال عائلتها في الواقع- وهو ما يعدّ تحولًا في المواقف يستحيلُ تخيّله قبل خمسين عامًا تقريبًا.

إنهنّ لا يشكّلن أفرادًا في القوة العاملة أو طالبات في الكليات والجامعات فحسب، فالمرأة الفلسطينية اقتحمت القطاع العام. فالدور الذي يلعبنه في السياسة آخذٌ في الازدياد، خصوصًا في الضفة الغربية وقطاع غزة، فالاحتلال «الإسرائيلي» جاثمٌ فيها منذ سنة 1967، وهو ما عدّل الأنماط التقليدية وحدا بالعديد من النساء من كل طبقات المجتمع إلى المقاومة السياسية. ففي هذه المناطق نمت شبكةٌ من المنظمات النسائية التي تضم

---

1. ساهمت المصادرة الواسعة للأراضي الفلسطينية التي نفذتها «إسرائيل» إلى حدٍّ كبير في تفكك الاقتصاد الزراعي التقليدي. وحتى من دون هذه المصادرات، فالقوى العاملة من المجتمع الفلسطيني قبل عام 48 كانت ستؤدي على الأرجح -ربما بوتيرة أبطأ- إلى تآكل الاقتصاد الزراعي البديل وإلى مزيد من التصنيع. يتناول هنري روزنفليد هذه النقطة في «التغيير، معيقات التغيير، التناقضات في عائلة القرية العربية». عالم أنثروبولجي أمريكي. 70 (1968): 52-732.

مكتبة ياسمين

تحت جناحها عدّة آلاف من العضوات -بقواعد دعمٍ في جميع المدن ومعظم القرى والمخيمات- ذات تأثيرٍ آخذٍ في التصاعد في الحياة العامة الفلسطينية. هذه المنظمات ذات جدول أعمالٍ وطنيٍّ بالدرجة الأولى، وتشكّل المسائل المتعلّقة بالمساواة بين الجنسين مع ذلك حصّةً من برامج كلٍّ منها[1]. وقد نمت المنظمات النسائيّة الفلسطينية أيضًا في «إسرائيل» -وذلك ضمن حدود ما قبل عام 1967. وللأخيرة هيكلٌ تنظيميٌّ منفصلٌ عن تلك الموجودة في المناطق المحتلّة، حيث تتبوأ الأهداف النسويّة الطّليعة.

إن وجه الاختلاف بين النسوة في دراستنا يكمن في وجهات نظرهن تجاه المشاركة السياسية. فكونهنّ يعشن في مناطق مختلفة، وعلى اعتبار أن عائلاتهنّ تحمّلت أو مرّت بتجارب مختلفة، فميولهنّ السياسية مختلفةٌ تمام الاختلاف. فإحدى الأمهات وابنتها كان لهما باعٌ عظيمٌ في الكفاح الوطنيّ الفلسطيني؛ فقد دفعتا وعائلتيهما ثمنًا باهظًا جرّاء هذه المشاركة. أما الثّنائي الثاني فقد كانتا ضد المشاركة السياسية ورفضتا التدخل في الأحداث الدائرة من حولهما. أما الثنائي الثالث -وهما أقل عرضةً للثورات السياسية في السنوات الأخيرة (لأنهما تعيشان ضمن حدود ما قبل 1967 في «إسرائيل») وليستا متورّطتين سياسيًّا أيضًا. إلّا أن اللافت للنظر هو إجماعُ النسوة السّت في هذه الدراسة على حق المرأة في المشاركة السياسية -بغضّ النظر عن درجة مشاركتهن شخصيًّا في السياسة- وهو ما يكشف النقلة الكبيرة التي حدثت في المجتمع الفلسطيني بالـمُجمَل.

بحدوث كل تلك التغييرات في الحياة الاجتماعية والشخصية للمرأة، فإن الأسئلة المحورية الآن تركّز على المستقبل. أهي مسألة وقتٍ لا أكثر

---

1. في الورقة البحثية للصايغ بعنوان «النساء الفلسطينيات: حالة من الإهمال»، تقدّمُ إحصاء واضحًا لتاريخ المنظمات النسائية الفلسطينية من ناحية اندماجها المتردد في فلسطين في عشرينيات القرن الماضي مقارنة بموقعها الحالي الأكثر تأثيرًا.

t.me/yasmeenbook

لتطبيق النموذج الغربي الكامل؟ أو هل سيطبّقُ نموذجٌ شرقيٌّ أكثر أصالة؟ إن إحدى الحركات التي تسعى إلى تقديم -إن لم يكن فرض- إجابتها على هذه الأسئلة في «إسرائيل» والأراضي المحتلّة هي المنظمات الإسلامية، حيث نمت في العقود الماضية نموًّا هائلًا، خاصةً إذا أخذنا في الحسبان المتعاطفين معها، لا أعضاءها المؤسسين فحسب. رغم ذلك فما تزال الأقليّة القاطنة في «إسرائيل» من السكان الفلسطينيين، وهم يمثّلون نسبةً كبيرةً من السّكان (إن لم تكن أغلبية) في الضفة الغربية وقطاع غزة. يدّعي مقترحوا هذه الحركة الأصولية أنهم ليسوا ضد حقوق المرأة، بل على العكس؛ فهم يدعمون حقوق المرأة في التعليم والعمل والمشاركة الاجتماعية، إنّما ضمن حدود صارمة تتعلّق بالتفاعل الاجتماعي بين الجنسين. على أية حال، فإن الدعم المتنامي للمنظمات الإسلامية شكّل للعديد -ممن يذمونها -ردّ فعلٍ ضد المكاسب الشخصية والاجتماعية التي حصدتها المرأة. بل أكثر من ذلك؛ فهم يشعرون بأن معاداة النسويّة ستكون أشدّ ضراوةً فيما إذا وقعت الدولة الفلسطينيّة تحت سيطرة المنظمات الإسلامية.

تباينت آراء النسوة في دراستنا حول الحركة الإسلامية؛ فكلُّ امرأة من بينهن تعدّ نفسها «مسلمة». أدّت كل الأمهات الثلاث فريضة الحج. لكن آراءهن بشأن قيمة الحركات الإسلامية ومعانيها تراوحت بين الدعم المطلق والمعارضة التامّة. فاثنتان من النسوة -أمٌ وابنتها- شعرتا بأنهما سترتاحان بالعيش تحت جناح دولةٍ إسلامية. بينما ادّعت إحدى النسوة بأنها سترحلُ إذا ما ظهرت مثل هذه الدولة إلى الوجود. فما الذي تمثّله وجهات النظر تلك؟ لا يمكننا الجزم يقينًا، إنّما على الأقل هناك جدلٌ قائمٌ حول إحياء الإسلام في المنطقة تناولته آراء النسوة السّت في هذا الكتاب.

مكتبة ياسمين

في هذه المرحلة، نود الانتقال لمسألة كيفية اختيارنا للأمهات الثلاث وبناتهن في هذا الكتاب، وكيف جمعنا تاريخهن المحكيّ كذلك. كنا على وجه العموم واعين بأن كل الطوائف العربية -أو المرتبطة بالعرب ممن يعيشون في «إسرائيل» وفلسطين- على سبيل المثال: الدروز والمسيحيين -لن يلائموا دراسةً مُركّزةً مثل هذه. لذلك تركّز اختيارنا فقط على الفلسطينيين العرب المسلمين الذين لا ينتمون لأيٍّ من هذه الطوائف الأصغر[1]. لكننا بحثنا ضمن نطاق عينتنا عن التنوع في الخلفية التعليمية والتجربة العملية والموقع الجغرافي.

في النهاية وقع اختيارنا على ثلاثة ثنائيات نسائية، يعيش كلٌّ ثنائيّ منها على بعد عشرين كيلو مترًا عن الآخر، ولكنّهن أيضًا -بسبب رصيد الشرق الأوسط الغنيّ من المعاناة -يمتلكن تجارب مختلفة اختلافًا كبيرًا. إحدى الثنائيات تعيش في الضفة الغربية في مخيم للاجئين على أطراف بيت لحم، وهما من إحدى القرى التي احتلها «الإسرائيليون» في حرب 1948. والثنائيّ الثاني تعيشان في أحد أحياء القدس الشرقية، التي ضمتها «إسرائيل» إليها بعد فترةٍ وجيزةٍ من حرب عام 1967. بينما يعيش الثنائي الثالث في أبو غوش، وهي قريةٌ عربيّةٌ تبعد اثني عشر كيلو مترًا غرب القدس، وتعدّ جزءًا من «إسرائيل» منذ قيام الدولة اليهوديّة.

إن الاختيار الفعليّ لكلّ ثنائيٍّ مكوّنٍ من أمٍّ وابنةٍ جاء -إلى حدٍّ ما- عرَضيًّا؛ وذلك لأن عددًا من الأمهات وبناتهن اللائي بدَينَ ملائماتٍ

---

1. المجتمع العربي المسيحي في «إسرائيل» (بما في ذلك القدس الشرقية) يشكل حوالي 15 في المائة من مجموع المجتمع العربي، والدروز يشكلون 9 بالمائة (تقديرات السكان لعام 1993 المذكورة في الملخص الإحصائي «لإسرائيل» [1994]، 43). في الضفة الغربية، وغزة أيضًا، فالمجتمع المسيحي يشكل نسبة أقل من السكان العرب الفلسطينيين، وتكاد جماعة الدروز ألا تكون موجودة أصلًا.

t.me/yasmeenbook

للدراسة لم يرغبن في المشاركة فيها، وبصراحةٍ لأنّ رجال عائلاتهن لم يسمحوا لهن بذلك. فما زال هناك شعورٌ واسع الانتشار بين الرجال الفلسطينيين أن المشاركة في ذلك غير لائق -إن لم يكن عيبًا- حيث «تفضح» نساء العائلة أنفسهن. ولا شكّ في كون أحد مؤلّفي العمل رجلًا يهوديًّا قد صعّد حساسية وشكوك الـمُشاركات المحتملات والرجال في عائلاتهن. ونتيجةً لذلك، ضاعفنا مدّة البحث عدّة شهور لكي نجد متحدّثاتٍ مناسبات، إلى أن وجدنا نفسينا فجأةً -بدا لنا ذلك أشبه بضربة حظ- مع ثنائيين هما: أم محمود وماريان من القدس الشرقية، وأم عبدالله وسميرة من مخيم عايدة للاجئين[1]. في كلّ حالةٍ من الحالتين كان أحدنا على معرفةٍ سطحيّةٍ بالابنة، وعن طريق صديقٍ مُشتَرَكٍ سهّل لنا إجراء الاتصالات المبدئية وافقت البنتان أولًا ثم أمّاهما على المشاركة. أما بالنسبة للثنائي الثالث -أم خالد وليلى من قرية أبو غوش- فقد كانت رفيقة عثمان تعيش في تلك القرية أيضًا وعلى معرفةٍ بهما، ولهذا فقد تكفّلت بإجراء المقابلات بنفسها[2].

كان أسلوبانا في جمع التاريخ المحكيّ للثنائيات الثلاثة واحدًا؛ إذ نسجّل اللقاءات على أشرطة تسجيل ما عدا زياراتنا الاجتماعية العَرَضيّة لهنّ. وقد تمت اللقاءات كلها باللغة العربية؛ ليصير في مقدور كل امرأةٍ التعبير عمّا يجيش في صدرها بحريّةٍ قدر الإمكان. قابلنا الأمهات والبنات كلٌّ على حِدة، وذلك على فترات، ومع ذلك فإن إحداهن قد تظهر أثناء مقابلة الأخرى، وعادةً ما تكون الأم هي من يحضر مقابلة الابنة. وعندما حدث

---

1. غيرنا أسماء جميع النسوة المذكورات في الدراسة حمايةً لخصوصيتهن ولعائلاتهن.

2. تأثر هذا القرار أولًا لأن أم خالد أرملة، وبعض أولادها -المسؤولين عنها -قد يعارضون مشاركتها في الدراسة إن لفت انتباههم حقيقة مفادها أن رجلًا غريبًا يزورها بانتظام في بيتها. كما اتضح لاحقًا، فإن أم خالد نفسها عارضت زيارات مايكل غوركن، رغم أنها كانت عالمةً بدوره في الكتاب.

مكتبة ياسمين

مثل ذلك سجلنا الحوار -وقد ضمّنا واحدًا منها نصًّا في الكتاب. دامت جلسات العمل -بالمعدّل- قرابة ساعةٍ ونصف، وأجرينا ما بين ستّ إلى ثماني جلسات مع كل امرأة. امتدت مدّة تسجيل الجلسات مع أم محمود وماريان من إبريل سنة 1994م إلى يناير سنة 1995م، ومع أم عبدالله وسميرة من مايو 1994ن إلى مارس 1995م، ومع أم خالد وليلى من ديسمبر 1994م إلى مايو 1995م.

§

رغم أن لعملية جمع التاريخ الشفهي مصاعبها الخاصة، إلا أن أكثرها صعوبةً يتجلى في ذلك الشك الذي يحمله كل ناقلٍ لهذه الأحداث، حيث يسائل نفسه -أو نفسها: باختصار؛ إلى أي مدى قدّمتُ بدقّةٍ ما سمعته هناك؟ أيمكن أن تُروى القصة التي سمعتها هناك روايةً تعكسُ حياة ساردها بدقّة؟

أثارت هذه الأسئلة مؤخرًا مدرسةٌ جديدةٌ تدعى مدرسة ما بعد الحداثة لوصف الأجناس البشرية. بدهيّة تفكير أولئك المنتمين لهذه المدرسة ترى أن كلًّا من السارد ومحقّق الرواية يساهمان في خلق النص؛ أي أن على التقرير الوصفي للأجناس البشرية أن يعكس هذا الحوار أو السياق، وأن التقرير النهائي سيعطي قارئهُ إحساسًا بالنقص. كما يبيّن ستيفن تيلر: «إن مدرسة ما بعد الحداثة لوصف الأجناس البشرية مُجزّأة، إذ لا يمكن أن تكون غير ذلك؛ فميدان الحياة بحدّ ذاته مُجزّأ»[1].

---

1. للاطلاع على عرضٍ ممتازٍ لوجهة النظر هذه، انظر جايمس كليفورد وجورج إي. ماركوس، مقال، « ثقافة الكتابة - شعرية وسياسة الإثنوغرافيا» (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1986)، والورقة البحثية لستيفن تايلور، «إثنوغرافيا ما بعد الحداثة: من توثيق الغامض إلى غموض التوثيق»، 40-122: نقتبس من الصفحة 131. كتطوّرٍ موازٍ في التحليل النفسي، يقر العديد من المحللين الآن -إن لم يكن معظمهم -أن خطاب التحليل النفسي هو نتاج مساهمات المريض والمحلل، و«النقل» و«النقل المضاد».

t.me/yasmeenbook

نتّفق جوهريًّا مع الفكرة القائلة بأن كلًّا من السارد ومحقّق الرواية يساهمان في خلق النص. لا شك في ذلك على الإطلاق، فعلى سبيل المثال؛ إن الخلفيتين الثقافيّتين المختلفتين لمؤلّفَي الكتاب -رجلٌ «غريبٌ» وامرأةٌ «بنت البلد»- قدّمت نصًّا مختلفًا ما كان لينتجُ لو أجرى كلّ واحدٍ منهما تحقيقاته على حدة. ولذكرِ مثالٍ صغير لكنه ذو مغزى معيّن سأقول: كان إجراء تحقيقٍ عن الموضوع الجنسي -كما أشير سابقًا- مسألة نزاعٍ بيننا. فقد كانت التسوية التي توصلنا إليها هي أن نبحث عن معلوماتٍ تدور حول هذه المسألة، وذلك عن طريق مناقشة الذكريات الواقعية المحرجة فعلًا مثل ليلة الزفاف -وعلى سبيل المثال كانت رفيقة عثمان هي المخوّلة فقط بالمشاركة في مناقشةٍ كهذه. ولو كتب أحدنا هذا الكتاب وحده فما استطاع إنجاز مادةٍ من هذا النوع. بل علاوةً على ذلك فيما يخص هذا المثال، فأي مادةٍ ذات طبيعة جنسية ما كانت لترد جملةً وتفصيلًا إن كان هذا الكتاب موجّهًا للجمهور العربي. إن حقيقة تجهيزنا هذا الكتاب للجمهور الغربي أثّرت على خياراتنا في تضمين هذه المادة في النص النهائيّ سَلَفًا.

يبدو ما سلف ذكره داعمًا لمزاعم مدرسة ما بعد الحداثة في وصف الأجناس البشرية، التي ترى أن نِتاج التحقيق -النصّ المكتوب- ما هو إلا خلقٌ فريدٌ من نوعه يلعبُ فيه السارد ومحقّق الرواية والجمهور المرجوّ دوره، لكن وجه الاختلاف يكمن في حجم الدور المناطق بكلٍّ واحدٍ على حِدَة. نفترض بأن النص النهائي الذي بين أيديكم يعدّ نِتاجًا لما روته الشخصيات عن نفسها أكثر مما أضفناه -نحن محقّقَي الرواية- من خلال أسئلتنا وما حاولنا سبر أغواره بالإنابة عن جمهورنا المأمول، فإننا نرجو ونتوقّع أن التاريخ المحكيّ يعدّ حقيقةً واقعة الحدوث، لا الحقيقة بعينها، ويمثّلها نفسها. من المستبعد جدًّا أن تعكس كل الملاحظات التي أبدتها الراوياتُ

مكتبة ياسمين

أفكارهنّ ومشاعرهن الحقيقيّة؛ فبعض النسوة الستّ كنّ أكثر ميلًا للحديث بصراحةٍ تفوق الأخريات، وجميعهن ميّالات للحديث بصراحةٍ أكبر في بعض المواضيع مقارنة بمواضيع أخرى. إجمالًا، نعتقد أننا اخترنا راوياتٍ منفتحاتٍ نسبيًّا للحديث عن أنفسهن وحياتهن. في حقيقة الأمر فإن رغبتهن الشديدة في التحدّث معنا (دون مكافأة على جهودهنّ) تفرضُ صدق هذه الرغبة تقريبًا.

رغم ذلك فإننا لم نختر اتّباع توصيات مدرسة ما بعد الحداثة في وصف الأجناس البشريّة بشكلٍ رئيس خلال عرضنا لهذه القصص المختلفة. واكتشفنا أن هذه المدرسة غير مفضّلة للقراء مقارنة بالتاريخ الشفهي الأصيل، وعلى الرغم من محاولاتهم إظهار طبيعة التجربة الميدانية والجهد التعاوني بواقعيّة أكبر، إلا أن هذه الروايات ما تزال في رأينا تعكس ما خلف مرآة اللقاء الفعلي. لذلك فضّلنا سرد قصص النسوة بأسلوبٍ حواريٍّ أساسًا، نطعّمه أحيانًا ببعضٍ من أسئلتنا أو -في أغلب الأحيان- نشير إليها أثناء الحوار إذا طُرحت. وقدّمنا أثناء حوارنا مع إحدى الأمهات وابنتها مقتطفاتٍ عديدة من حوارٍ ثنائيٍّ أو ثلاثيٍّ تمّ بين الأم والابنة والمؤلِّفَين.

نرجو بنشرنا قصص الأمهات والبنات جنبًا إلى جنبٍ ألّا نشيرَ فحسب إلى التغييرات التي طرأت على تجارب الأجيال المتعاقبة، وإنما -بالأهمية ذاتها- الوقوفَ على شيءٍ من الطبيعة المميزة والشخصية للراوية نفسها، وكيف تميلُ كلٌّ منهن للتركيز على حدثٍ أو تجربةٍ ما بطريقتها. ولتأكيد حقيقة أننا -نحن المؤلّفَين- اخترنا تقديم بعض هذه الاختلافات من منظورٍ معيّنٍ لا من سواه، بما يعدّ بُعدًا ذاتيًّا آخر لا يمكن إغفاله.

لقد بذلنا ما في وسعنا لإبراز أسلوب كل امرأة -وصوتها الخاص- في التعبير عن نفسها أثناء الترجمة، مما أدى أحيانًا إلى أسلوبٍ نحويّ مشتّتٍ أو

t.me/yasmeenbook

مكرّر، لكننا حافظنا قدر استطاعتنا على أسلوبٍ مقروء. سيلاحظ القارئ اختلاف أسلوب سرد القصص، خاصةً بين الأمّين غير المتعلّمتين وابنتيهما الجامعيّتين؛ فالأخيرتان نشأتا في عصر التلفاز حيث توافرت لهما الكتب، مما جعل لهما أسلوبًا روائيًّا عصريًّا، إذ تتدفّق ذكرياتهما وانعكاس أفكارهما بأسلوبٍ منطقيٍّ أغنى. بينما نشأت أمّاهما على النقيض -لا كتب ولا أجهزة تلفزة- في عصرٍ شكّل الأسلوب السّردي فيه تسليةً رئيسة، فنجد ذكرياتهما وأفكارهما أكثر تشتّتًا، متحررةً من ارتباطها بشخصيتها أحيانًا. لكن، بغض النظر عن الأسلوب الشخصي في رواية القصص، أحسسنا أن كلّ امرأةٍ شعرت بأن لديها قصّةً لترويها.

ولهذا، دعونا الآن ننتقل إلى قصص هذه النسوة السّت: أم محمود وماريان من القدس الشرقية، وأم عبدالله وسميرة من مخيم عايدة للاجئين، وأم خالد وليلى من أبو غوش. ستّة أصواتٍ لنساء فلسطينيات. ستة أصواتٍ تحدّثت لنا ولكم، وربّما في طيات صفحات هذا الكتاب تحدّثت إلى بعضها بعضًا.

مكتبة ياسمين

أم محمود وماريان
(القدس الشرقية)

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

أم محمود

أم محمود (عديلة) امرأةٌ قصيرة ممتلئة الرّدفين، تبلغ اثنين وسبعين عامًا، تبدو -وهي كذلك فعلًا- الأمّ المالكة زمام السيطرة على عائلتها الكبيرة. فهي أمٌّ لثلاثة عشر ولدًا وبنتا جميعهم من البالغين (تتراوح أعمارهم ما بين السابعة والعشرين والسادسة والخمسين) وهي جدّةٌ لسبعةٍ وثلاثين حفيدًا، حيث تقضي معظم وقتها هذه الأيام في الصالون أو والمطبخ أو شرفة منزلها المبني من الحجر المكوّن من ثلاث غرف نوم، حيث تحبّ استقبال من يتردد عليها من زوار من حين لآخر. زوجها -البالغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا- موظّفٌ متقاعد. عادةً ما يتجول حول الفناء هنا أو هناك، يُعنى بأشجار الفواكه والخُضر، والحديقة المعشبة وأقفاص الأرانب، أو يتولى بعض أعمال الصيانة المنزلية.

عاشت أم محمود وأبو محمود -المتزوجين منذ ثمانية وخمسين عامًا- أربعًا وخمسين سنة في بيتهما الواقع على منحدر تلٍّ في القدس الشرقية، حيث ترعرع كل أبنائهم في أحضانه. يطلّ من شرفة منزلهما منظرٌ فائق الجمال للمدينة القديمة المسوّرة، وقبّة الصخرة المذهّبة، محاطةً بتلال القدس الجنوبية المؤدية إلى بيت لحم. أمّا المنظر الذي يطل خلف بيتها مباشرةً فتراه أم محمود أقلّ جاذبيّة؛ إذ يطلّ على مستوطنةٍ يهوديّة أنشِئت حديثًا.

من بين جميع أبنائها وبناتها البالغين، فإن ماريان هي ابنتها الوحيدة

t.me/yasmeenbook

غير المتزوجة التي تقطن في بيت العائلة. يسكن ابنها مع أسرته في شقّةٍ في الدور السفليّ من البيت، وعلى بعد عشرين مترًا يقع منزل ابنتها الأخرى وأسرتها. ويعيش ثلاثة من أبنائها الآخرين مع أسرهم شرقيّ القدس، بينما هاجر سبعةٌ من أبنائها مع أسرهم (أربعة إلى الولايات المتحدة، واثنان إلى الكويت، وواحد إلى الأردن).

بدأنا في إجراء مقابلاتنا مع أم محمود في إبريل سنة 1994م، بعد أن قابلنا ماريان بفترةٍ وجيزة. شجّعت ماريان أمّها على مشاركتها هذه الدراسة. ولدعم ابنتها أولًا وأخيرًا بدا أنها وافقت على التجربة. باعتبارها امرأةً تقليديةً وبسيطة، لم تكن أم محمود معتادةً على التحدث عن نفسها للغرباء. ورغم أنها ماهرةٌ إلى حدّ ما في معالجة حدثٍ أو مغامرةٍ بطريقة مسرحيّةٍ شبه استطرادية لامرأةٍ من جيلها، إلا أنها ظلّت طوال لقاءاتنا الستّة متردّدة.

تمت كل اللقاءات التي أجريت مع أم محمود في شرفة منزلهم المريحة، حيث جلست على الأريكة المخملية الحمراء، والمسجل مستندٌ خلف مصحفين على طاولة القهوة الخشبية. قابلناها بعيدًا عن مسامع أبو محمود الذي لم يعترض على مشاركة زوجته وابنته بأيّ حال من الأحوال. يطلّ أحيانًا بين الفينة والأخرى أحد الأحفاد بدافع الفضول. وفي نهاية الجلسات تدخل ماريان بالقهوة وبعض الطعام. ذات مرّة أجرت رفيقة المقابلة وحدها، فكانت تلك هي المناسبة التي استعادت فيها أم محمود تفاصيل زفافها.

وُلدَت أم محمود عام 1921، حين وطئت أقدام الانتداب البريطاني أرض فلسطين، وقضت طفولتها ومرحلة بلوغها المبكرة في فترةٍ مضطربةٍ من التاريخ الفلسطيني. وباعتبارها شخصًا قليل الاهتمام بالسياسة، فإن القدر الأعظم من ذكرياتها وانطباعاتها متعلّقةٌ بحياتها الخاصة وعائلتها. غير أن حياتها -باعتبارها فلسطينيةً تعيشُ في القدس- تأثّرت تأثّرًا حتميًّا بأمواجِ السياسة التي اجتاحت

مكتبة ياسمين

المنطقة. فيما يلي إذن، بعضٌ من ذكرياتها عن تلك الفترة.

سأحكي من البداية. حكوا لي إن عائلتنا -حمولة أبي- عاشت في هذه المنطقة من سبعة أجيال. ينحدر أهلنا من قريةٍ قرب يافا على الساحل. كانوا ثلاثة أشقاء، ولسببٍ ما سلك كل واحدٍ منهم طريقة. واحد راح مصر، وثاني لسوريا، وثالث إجا للقدس الشرقية، وإحنا من فرعه. والله أعلم.

كانت عائلة أبي كغيرها من العائلات الأخرى تقريبًا -فلّاحين- عندهم أرض تبعد كام كيلو مترا عن مكاننا. من وعيت على الدنيا وفهمت اللي فهمته لقيت أبوي شرطي، بفرجيك صورته (نادت أم محمود على ماريان في الغرفة الأخرى، حيث جاءت بألبوم صور قديم بالأبيض والأسود لرجل شابٍّ بشوارب في زيّ الشرطة البريطانية، واقفًا إلى جوار امرأةٍ شابّة قاعدةٍ، وفتاةٍ صغيرة، تلبسان كلتاهما ثيابًا بيضاء طويلة). هذا هو زي «الصّواري» الأنيق (شرطة الخيّالة) اللي بيلبسه وهو راكب حصانه. عمل مع البريطانيين إلى أن خرجوا من فلسطين. شوفي أمي! سِتّ جميلة، الصّحيح! وشوفوا الثوب اللي أنا لابساه، رجع الموديل من جديد هالأيام. جميل، مش هيك؟ والأحذية، ممتازة كمان، والدي -رحمة الله عليه- تعوّد يجيب الإسكافي لبيتنا يشتغل لنا الأحذية. آه! والله كانت أيام طيّبة، أحسن من هالأيام، أحسن بكثير. [بعد بضع دقائق تغادر ماريان الغرفة وتدخل برفقة حفيدة في التاسعة من عمرها -نبيلة- فتجلسان على الأريكة إلى جانب أم محمود مستمعتَين إلى ذكرياتها].

أبي ما اشتغل في الأرض. استأجرنا عمّال، وعملت أمي كمان -خاصة في موسم الحصيد. كنا نزرع الحنطة والذرة والشعير والكرسانه (بقول تشبه الحمص) لإطعام البهائم. ما ربينا خرفان ولا ماعز، زرعنا الحبوب بس.

t.me/yasmeenbook

عملت أمّي بجد. غالب يومها تقضيه في الحقول تعمل وتحمل الأحمال الثقيلة على رأسها. تساعد في توزيع المحصول على كل أخ من أخوة أبي. لكل أخ منهم أرضه اللي بيظل فيها محصوله، ونحن مثلهم. ما عندي علم غير هذا؛ فأنا نفسي ما اشتغلت في الأرض. شو صار لأرضنا؟ اتقسّمت في الميراث بين أبناء الأخوة، ثم اتقسّمت مرة ثانية بين ولادهم. قسّموها كلها الآن، لا.. ما عندي حصّة من الأرض، ما ورثت ولا شبر منها.

في عائلتنا نحن كنّا خمسة أولاد وخمس بنات. بقي منّا سبعة على قيد الحياة. عشنا هناك، البيت أبو باب أزرق. [أشارت أم محمود إلى بيت يبعد حوالي مائتي مترٍ بعيدًا] يعيش فيه الآن اثنان من أخوتي وأسرتيهما. مكان واسع ومريح، أنا نشأت هناك. كنتُ المولود البكر، الابنة الأولى. إذا كنتِ البكرية مثلي، فالواجب تديري بالك على أخوانك من بعدك، وتساعدي أمك. لما تكون في الحقول أراقب أنا الصغار في البيت، وأعتني بأمور التنظيف والغسيل، إلا الطبيخ؛ فضّلت أمي تمسك أمور الطبخ وحدها. ما تعلمت الطبخ إطلاقًا لحد ما تزوجت ورحت لبيت حماتي، لكني بحب ترتيب البيت والأعمال المنزلية. كل شي كان عال بالنسبة لي إلا مسألة واحدة؛ تمنيت الذهاب للمدرسة.

كان في مدارس للبنات في هديك الأيام.. آه، نعم. مدرسة مليحة اسمها المدرسة الإسلامية موجودة جمب المسجد الأقصى، تدرّس للصف التاسع. وما زالت المدرسة نفسها موجودة ليومنا. بعض بنات الجيران راحن عليها لما كنت طفلة. بشوفهن رايحات شايلات شنط المدرسة. كنت أحسدهن جدًّا، وتمنّيت أروح أنا الأخرى. رحتُ لأمي وقلت لها في أحد الأيام: «احكِ لأبوي يسمحلي أروح للمدرسة. البنات بروحن للمدرسة». فأجابتني: «طيّب، أسأله إذا رجع للبيت من الشغل اليوم». لما رجع أبوي خبّرته أمي، لكنه ردّ فورًا: «لا، مش حتروح! شو حاجتها للمدرسة؟ المدرسة ما بتفيد إلا

مكتبة ياسمين

بتنشيف راسها». أبي الله يرحمه كان راجل متعلّم، بيعرف يفكّ الخط ويكتب بالعربية والإنجليزية كذلك. لكنه رفض أتعلم. بدّو ياني أهابه، وأفهم إنه الأقوى. كانت أمي سِت بسيطة يحترمها أبي، لكنها ما قدرت تضغط عليه بعدما رفض. قالت لي: «خلاص! قال أبوك مفيش مدرسة، فإذن.. مفيش مدرسة». لاحقًا -سبحان الله- ضغطت أمي عليه لإرسال أخواتي للمدرسة، وذهبن فعلًا. أما أنا، فبقيت بلا دراسة. أبنائي الآن متعلمين، أولاد وبنات. في طفولتهم كانوا يجيبولي واجباتهم المدرسية ويقولوا لي: افتحي الكتاب، وشوفي إذا كنت حفظتها صح، فاضطر أحكي لهم إني ما بعرف أقرأ. زوجي مثلي، حَجيّنا ابن فلّاح، قضى صباه مع والده في زراعة الحمص والعدس. بالعافية راح المدرسة. يفكّ الخطّ، أحسن منّي أنا، لكن أفتح جريدة وأقرأ؟ لا.. لا.. أقرأ القرآن؟ لا أقدر، ولا هو يقدر. [تتكئ نبيلة على جدتها وتقاطعها قائلة: «يا ستّي أنا بعلمك، اللغة العربية سهلة، غير الإنجليزية»]. الله يرضى عليك يا حبيبتي، فات أوان التعلم. أولادي حاولوا تعليمي لما راحوا للمدرسة. لكن فات الأوان، لما تكوني بنت فهذاك أوان التعليم. أبوي -الله يرحمه- ما راد لي أتعلم، وهذا اللّي صار.

لذا بينما كانت صديقاتي في المدرسة بقيت أنا في البيت. كان هناك بنات مثلي لزِمن البيت وانشغلن بالأعمال الرّتيبة. كان من مهماتي إحضار الماء، وكنت أروح مع صديقاتي لبئر فوق التلة. نحمل الجرار على رؤوسنا ونروح مرّة أو مرتين أو ثلاث مرات في اليوم حسب الحاجة. أحيانًا إذا شَح المطر يجفّ البير. فنروح على طول الطريق لسلوان [تبعد كيلومترين إلى جنوب المدينة القديمة المسوّرة] لأن الماء متوفر هناك دائمًا. أحيانًا يتدفق السّيل بسرعة وبصير الوضع خطير؛ ممكن تنزلق وتغرق بسهولة فيه. كنت أهبط لهناك مع صديقاتي، متل جارتي رفيقة الطريق التي ماتت هيك -الله يرحمها- كانت تيجي على بغلة نركب عليها سوا. أمي كانت تعارض ركوبي هذا البغل، شو؟ أمشي جنب

t.me/yasmeenbook

البغل ولا أركب عليه؟ ركبته طبعًا. بعدها وفي يوم من الأيام كنت أركب البغل وطِحت عن ظهره على كتفي. كتمت الأمر عن أمي، وما نمت ليلتي من الوجع. في الصباح سألتني أمي: «مالك؟» جاوبتها: «وقعت يمّه وذراعي وكتفي توجعني». كتمت خبر البغل، وهي ما سألتني أبدًا. صنعت لي أمي خلطة لاصقة للظَّهر، ما كان في حاجة للدكتور لشغلة متل هيك. المادة عبارة عن مزيج من زيت الزيتون والبيض النيء، دهنتها على كتفي ومشى الحال. رغم هذا ما زال كتفي بيخونني أحيانا حتى يومنا هذا.

بالإضافة لسقوطي عن البغل، صارت لي حادثة ثانية لمّا كنت بنت، لسّه بتذكرها متل ما تكون حصلت قدّام عيني على التلفزيون. كان عمري حينها ثلاثة عشرة سنة، وأمي خارج البيت في الحصيد. نظفت البيت وعملت فيها فالحه. كان عندنا أثاث مرتّب فخم، منها صندوق قديم منحوت عليه جِمالٌ صغيرة، ومرآة قديمة رائعة. قطع أثاث من الطراز العتيق. أظن إنها كانت من جْهاز عرس أمي. طيب، وأنا أنظف أنزلت المرآة وانزلقت من بين يدي وتهشمت على الأرضية. طار عقلي، ورحت أركض تا وصلت الحقول وأنا أصيح بأعلى صوتي: يمّه.. يمّه.. فردّت عليّ: مالك يا بنت؟ ويش صار؟ أخوكِ طاح في البير؟ فأجبت: لا.. لا.. المرآة طاحت وانكسرت. فقالت: «يا الله! الله لا يردّها، انكسر الشر. ارجعي للبيت وديري بالك على أخوك». فقلت: «لكن أبوي راجع البيت قريب، وراح يضربني». هدأتني أمي، ثم أرسلتني للبيت. بعدما عاد أبي للبيت سأل: من كسر المرآة؟ فأجابت أمي -التي كانت قد عادت من الحقول حينها: هدّي بالك، لا تحكي إشي. كنت راح أموتُ من الخوف، لكن أبوي ما نطق بكلمة. بعدها مباشرة مرضت مرض غريب. أصابتني الحمّى وثقل رأسي. يكلمني الناس فأعجز عن إجابتهم. مرّة زارنا شخص في المسا فحييته بصباح الخير! صرتُ نصف مجنونة. وهيك إجا أبوي بالدكتور اللي فحصني وقال لهم إني لقطت عدوى.

مكتبة ياسمين

وشرح لأبوي شو آكل وشو ما آكل. ما نفع ولا شي منّه وظلّيت مريضة. ثم حكت أمي لجارتنا عن حالي فأكدت لها إن اللي بحتاجه هو الأعشاب. كان في حينا امرأة عجوز متخصصة في العلاج العشبي. جهّزت هذا الخليط العشبي و«بيض السّبَته». هذا كان اسم البيض المحفوظ في السّبَته. لا تسأليني ليش «بيض السّبَته»، بعرفش. على كل حال، جابوا لي هذا الخليط، وفاجؤوني به. إجوا لي في يوم من الأيام فجأة وقالوا لي: اشربيه كله ما تخلّي منّه لحدا. وسمعت كلامهم. بتعرفي؟ تحسّنت مباشرةً بعدها ورجعت متل ما كنت.

ما بعرف إن كنتِ بتآمني بهذه الأمور، لكني بآمن فيها. ما بآمن بقارئي البخت؛ فهذا حرام. اللي بيتظاهروا بمعرفة الماضي والمستقبل نصّابين. الله وحده عالم بالمكتوب. لكن المعالجين التقليديين اللي بيستعملوا الأعشاب مختلفين عنهم. جرّبت الخليط الذي شرّبوه لي على غيري. مثل ابني توفيق بعدما توفى عمه أحمد. كان قريب جدًّا منّه وتعرض لصدمة. ظل عامين يتردد على هذا الدكتور وذاك. ما كنت بعرف إنه بيدور بين الدكاترة حتى حكى لي في يوم، فقلت له: «توفيق، بدّي أجرب العلاج الذي أعطوه لي عليك». أخذت نفس الأعشاب -من غير البيضة- وغليتها في الماء، وأعطيتها له ليشربها على ثلاثة أيام. أحلف لك إنه شُفي. فعلًا، متل ما شفيت من قبل لمّا انْطَرَبْت وعجز الدكاتره عن مساعدتي.

هذا الحال في أيامنا. أتذكرها كأنها البارحة، ذكريات مثلها ما بتغيب عن البال. المليح والعاطل، يوم عسل ويوم بصل، أتذكّر.. أتذكّر. شو كمان؟ اللعب؟ أكيد لعبنا في هديك الأيام. لا، ما كنّا نلعب مع الأولاد. يستحيل يوافق والديّ على لعب البنات والأولاد مع بعضهم؛ حرام! وأنا ما اعترضت، وأحكيلك الصحيح، ما ندمت. تعوّدت اللعب مع بنات الجيرة من الأعمام. كنا نلعب بيت بيوت. نأخذ الخرق القديمة ونعمل منها

t.me/yasmeenbook

عرايس، والحجار بنعمل منها البيوت، والأثاث من علب السردين القديمة، وبعدين نؤلف قصّة. هيك كنا نلعب. أكيد حبيتها. ما كان عندنا وقت كثير للعب. في البيت في شغل كتير. وكمان كنت بلغت مع الوقت أربعة عشر سنة، وكنت فعليًّا فارقت بيت أمي. تزوجت وأنا بنت أربعة عشر. مين كان عنده وقت ليلعب؟

٨

اختار أبي لي زوجًا. إيش؟ البنت تختار عريسها؟ رتّب أبي الموضوع بعدما تكلمت أمي معه، وحكوا لي أني سأتزوج هذا الرجل. ما كنت أعرفه إطلاقًا حينها. لكنه كان يعرفني. فهو من جيراننا وحكى لي إن عينه كانت عليّ. نحنا أولاد عم، مش أبناء عم لَزَم لكننا من نفس العشيرة. كان في حوالي العشرين من عمره، وأراد والداه تزويجه من غيري لكنه رفض. قال لوالديه إنه بدّو ياني أنا فوافقوا. زاروا أمي وأبي، فطلب أبوي منهم الانتظار حتى يبلغهم بالجواب. متل ما إنتي شايفه، أبوي بيحترم عائلتهم وهمّا عارفين. زوّج أبوي أخته لأخ زوجي الأكبر. لكن قبلما يوافق على زواجي من زوجي هذا وجب عليه التأكد إن ما في حدا من ولاد أخوته أو أبناء عمومتنا اللّزم بيعارض الزواج. فلابن العم الأقرب الحق في الزواج من بنت العائلة. على كل حال، هذا الحال في أيامنا. ما عارض حدا، لهيك وافق أبوي.

بعدها أرسل والدا العريس شيخًا من حيّنا. رجل محترم من رجال الحي ليرتب موضوع المهر [صداق العروس]. كان مهري كبيرًا -المقدّم أربعون جنيهًا فلسطينيًا، والمؤخّر عشرون جنيهًا فلسطينيًّا- وهو مهر يشتري لك الكثير، لكن أنا لم أشترِ أيّ شيء. أقصد، أمي هي التي جهزتني. خرجت أمي واشترت لي ذهبًا بحوالي عشرين جنيهًا. سواران ذهبيان وسلسلة

مكتبة ياسمين

ذهبية وأقراط ذهبية وأربعة خواتم. وصار عندي دولاب، جميل وغالٍ، يا ليته عندي ليومنا هذا. أيضًا صار عندي سجادة، وشراشف، وست وسائد كبيرة واثنتان صغيرتان، ولحافًا خاطه لنا يهودي كان يسمّي نفسه «أبو موسى». وخاطت لي أمي -رحمة الله عليها- بعض الأثواب وغيرها. لو إني غمضّت عيني لرأيت كل تلك الأشياء الجميلة أمامي. يا حسرة لأنها ما عادت عندي. هذا حال الدنيا، ما كان الواحد ليفكر فيها حينها، نستدرك متأخرين بعد فوات الأوان كيف ضيعناها من إيدينا.

على كل حال، هكذا صرفت الأربعين جنيه اللي قبضتها بعد كتب الكتاب. رغم إن كتب الكتاب ما كان راح يتمّ. عرفت هذا الموضوع فيما بعد. فالشيخ سأل أبوي عن عمري، فقال الحَق «أربعة عشر». فرفض الشيخ كتب الكتاب لأنني دون السن القانونية[1]. فهرع رجال عائلة أبي سريعًا لتدارك الموقف نافين: لا، لا، أبوها غلطان، البنت عمرها تسعة عشر! وعلى هيك وافق الشيخ، ووقع أبوي والعريس على وثيقة الزواج. وهيك تمّ الأمر. انكتب نصيبي. بعدها بثلاثة أشهر تم الزفاف.

في هديك الأيام، كان العرس يستمر ليومين. الليلة الأولى هي ليلة الحناء، والليلة الثانية هي ليلة العرس. بالنسبة لي، تمت ليلة الحناء بالطريقة التقليدية. أقيمت في بيت أهلي حفلة ضمت نساء كلتا العائلتين. تجلب نسوة عائلة العريس مسحوق الحناء، وتحضّره امرأة خبيرة - دفعوا لها لتحضر. تخلط الحناء بعطور معينة وتخلطها لتحضّر منها عجينة، ثم تزيّن يدي بأشكال مختلفة من الزخارف. إيديّا بس، مش وجهي. وطول ما هي تنقش إيدي

---

1. وفقًا لقانون الانتداب البريطاني في ذلك الوقت، كان على الفتاة أن تبلغ من العمر ستة عشر عاما لتتزوج. وفي أيامنا هذه -كما في عام 1948م، يوقّع العريس وممثل العروس -والدها في العادة- على عقد القران بحضور المأذون الشرعي.

t.me/yasmeenbook

النسوان واقفات يغنّن: «مدّي إيدك حنّيها يا عروس.. مدّي إيدك حنّيها يا لالا.. يا محلا الحنّه...» إشي متل هيك. ما بعرف أغنيها منيح. بعد وضع الحناء لفّوا يديّ بالقماش. نمت رافعة يديّ الملفوفتين هكذا. وفي صباح اليوم التالي لمّا أزالوا آثار الحناء ظهرت نقوش بديعة لونها بنّي محمرّ. في الليلة التالية -ليلة العرس -كلما رقصت بانت نقوش يدي الجميلة. عِلمك، هذه الأيام ما بعملوا هيك نواحينا أو في البلدات. بس أهل القرى احتفظوا بليلة الحناء. هي عادة حلوه بحبّها.

كان الحفل الكبير في الليلة التالية، ليلة العرس. عزموا عليها كل الجيرة. مئاتٌ من الناس. عِلمك الحفلة بتنعمل في بيت العريس، بيحضر الضيوف والمعازيم للعشا. جرت العادة أن تذبح عائلة العريس خروفًا في الليلة التي تسبق العرس -والنساء تحتفل بليلة الحناء- بل عشرة خراف، أو إثنى عشر خروفًا، ما يكفي لإطعام الجميع وليبقى منه كذلك. طبخوا اللحم بالصلصة في قدور نحاسية ضخمة وقدموها مع الأرز. كانت هناك أطباق أخرى من الطعام: البامية بالطماطم، ومحشي الكوسا والباذنجان، والسَّلطات. ومن العادة إرسال بعض الطعام لبيت أهل العروس، فيأكلوه مع أصدقائهم المقربين. قد يكون الطعام الذي يرسلونه مطبوخًا أو بمكوناته الأصلية؛ كأكياس الرزّ وقطع اللحم.

فضّلت أمي أن تطبخ بنفسها، هذه طريقتها. أرادت أن تعدّ وجبة طعام خاصة. شوت الخروف في الفرن مع البطاطا. بيشهّي بجدّ. كانت وجبة طعام أشهى من التي تطبخها حماتي في بيتها. طبعًا أكلتها، ليش لأ؟ أكلت مع ضيوفنا بالطبع. بعدها لبست ملابسي بمساعدة إحداهن. امرأة يُقال لها الماشطة. امرأة كبيرة في السن خبيرة في تزيين العرائس وتجهيزهن. كما جرت العادة، اختارت أمي القماش وجارتنا -خياطة خبيرة- هي التي فصّلت

مكتبة ياسمين

الثياب. لأمي ذوق رائع، أحبّت أجود القِطَع. ذوقها رفيع.. رفيع. خاطت ثيابًا جميلة من الحرير الذي اشترته من قريتنا وآخر مجلوب من الهند. بتفكّري العرايس بتلبس مثل هالثياب اليوم؟ لا.. أبدًا. كانن لابسات ملابس بيضا من كذا قطعة ورائعة. وأنا لازم ألبس ثوب أبيض لما يأخذونني من بيت أمي، غير ثياب ثانية ببدّلها في الحفلة. كان لي ثوب أزرق بنصف كمّ مزيّن بمشدّ. وواحد أخضر مخطّط عليه وردٌ مطبوع. وثوب أحمر كمان. إيه! يا ليتني محتفظة فيهن! تخلصت منها لـمّا صغرت عليّ. كانت جنابي نحيفه، مو متل هلأ! يا خسارة! ليتني خليتهنّ!

وهكذا ساعدتني الماشطة على لبس ثوبي الأبيض. كان رقيقًا ومكشوفًا من أعلاه. لكن لا يهم؛ لأني متغطية، فالعادة إنّي أتغطى بعباءة [عباءة رجالية] عشان ما حدا يشوف الجزء العلوي من جسمي أو وجهي. هيك كنتُ لما رجال العائلة إجو ياخدوني. هو ما إجا طبعًا. إجا أبوه وأخوته وأعمامه فقط وسلّمني أبوي إلهم. كيف حسّيت؟ طيب.. أحكي لك الصّحيح، ما فهمت كل الحاصل وقتها. مش من السهل على البنت تترك بيت أهلها. لكني ما أدركت المعنى الكامل حينها. كان بيت زوجي ببعد يا دوب كام بيت عن بيتنا، وفكّرت وقتها إنّي مش رايحه لبعيد. إلا إني لما شفت الدموع في عيون أبوي وأمي بكيت أنا كمان. لكني كنت جاهلة، ما فهمت الحاصل وقتها فعلًا.

مشينا لبيت زوجي، عادةً بتكون فيه زفّة لكن لأننا ساكنين قريب من بيتهم فما كان في داعي إلها. ولا خيول كمان. ما بتركب العروس عندنا على الخيل، بتمشي على رجليها. إلا إذا تزوجت العروس حدا من قرية سلوان، أو من لفته. وقتها بتركب على الحصان لبُعد المسافة كام كيلو متر. بالنسبة لي مشيت. لما وصلت كان الضيوف خلصوا الأكل. الرجال قاعدين على حُصُر القش، كل واحد متكي على المساند في الساحة بيتكلموا وبيدخنوا. مريت

t.me/yasmeenbook

بينهم لوصلت للبيت اللي فيه النسوان. في الباحة الخارجية، كان واحد من أهل زوجي بيجمع الهدايا. المال ما بينعطى في مغلفات مغلقة مثل هالأيام بالسّر عشان ما يعرف حدا مين اللي نقّطَه. في زماننا كانوا بينقّطوا في العَلن، ومع كل نقوط بيعلنوا: أبو فلان نقّط جنيهين، أو جنيه، أيًّا كان. بارك الله فيك يا أبو فلان. ويوثّق ذلك أيضًا. مش عيب تعطي أقلّ، كلّ واحد يعطي قدر استطاعته. تستخدم عائلة العريس هالفلوس لتغطية نفقات الطعام، وفرقة الغناء، والمهر. هيك عاداتنا. أي والله أيام زمان كانت أحلى.. أحلى بكثير.

وهيك على كل حال دخلت البيت مع النسوان. زوجي هو الرجل الوحيد المسموح له بالدخول. ظلّت الماشطة معي طوال الوقت، ما كنتُ أعرف كيف أرقص، فترشدني وتحرّك لي إيديّ. حطّت لي أضواء على أظافري، وكمان على جسمي. أضواء تبرق، لها بطاريات. كلما رقصت وحركت إيدي المنقوشتين بالحنا أظافري بتضوّي. حطّت على رأسي كمان تاج من الزهور مصنوع من الياسمين، وكل ما تحركت انتشر عطرها في الغرفة. رقصنا وغنينا لساعات، وكل ساعة تقريبًا أغير ثوبي. جابت الماشطة معها كام وحده من العجايز الخبيرات بالأغاني. بيعرفن كل أهازيج الأعراس. يغنين فتردد معهن الضيفات الأغنيات. وهيك للآخر، وبين ما كنت أرقص شوي شوي -مع الماشطة التي بتدلّني- إجا زوجي إلي. كنت أرقص بعيون مغمضة، وأنا برقص إجا زوجي ورفع الطّرحة اللي كنت لابساها وفتحت عيني وشفته. لو غمّيت عيوني هلأ، بقدر أشوف كل شي. هو في حدا بيقدر ينساه؟ بتذكر كلّ شي كإنه بيصير هلّأ.

وهذا ما كان. خلص العرس وصرت متزوجة. عروس في الرابعة عشرة. أكيد كنت صغيرة في السن. أظن البنت لازم توصل العشرين من عمرها عشان تتزوج. هاي مش سن متأخرة على الزواج؛ عندها وقت حتى

مكتبة ياسمين

تخلّف. ساعتها البنت بتعرف أكثر لمّا تكون في العشرين. شو كنتُ أعرف أنا؟ كنت جاهلة، بلا أدنى فكرة عن اللي بيستنّاني. هل حكوا لي أي شيء؟ ما قالوا لي. لا أصدقاء، ولا حدا. الكلام عن ليلة الدخلة ما كان مألوف. من المحرج جدًّا الكلام عنها. كنت جاهلة. اعتقدت إن اللي حصل مع غيري -شو ما كان- راح يحصل إلي كمان، بس.

شو حصل صبيحة اليوم التالي؟ المعتاد. هذا كل شيء. شو هو المعتاد؟ طيّب، جرت العادة أن تأتي أسرة العروس وتغسّلها. غالبا تغسلها الأم. لكن أمي ما غسلتني، فغسّلتني عمتي اللي كانت أصلًا عايشه معنا. واغتسل زوجي بنفسه. كانت الفكرة الشائعة عند الناس إن الزوجين اللي ما بيغتسلوا ما بيجيبوا أولاد أبدًا. بيقولوا إن الشيطان بيفصل بينهما، لهالسبب غسلتني عمتي، هيك، خلاص.

الشّرشف؟ بدّك تعرفي عنّه كمان؟ شو ممكن أحكيلك؟ جرت العادة إن أسرة العروس تاخد الشرشف الملطخ بالدم وتعرضه على الناس. بالنسبة لفتاة سمعتها عاطلة -بقصد بتدور حواليها الشائعات- ممكن ياخذ أبوها الشرشف للقهوة ليثبت إنها تمام. بالنسبة لي، أخذت أمي الشرشف وغسلته. اعتاد الناس القول إن اللي بيغسل الشرشف بتكون طبخته شهية. ما بعرف سبب قولهم هذا. عمومًا هيك بيحكوا. أنا ما عملت هيك مع بناتي. لا حضرت في الصباحية ولا غسيل ولا شراشف.. ولا شي. ما بنعمل هيك هالأيام، ولا في حيّنا.

في هذه الأيام بيعرف الشباب كل شي. عندهم التلفزيون والكتب. بيقرؤوا عن هذه الأمور وبيعرفوا القصة. بيقضوا شهر العسل مع بعض وكفى. على أيامنا ما كان فيه شهر عسل. تتزوجي وتقضي يومين مع زوجك لحالكم في بيت حماتك -بيسيبوكم على راحتكم دون تدخل- وخلاص.

t.me/yasmeenbook

بيرجع زوجك بعدها لشغله، وإنتي تبدئي شغلك في بيت حماتك. لا.. لا يا شابّه، ما كان في شهر عسل هذيك الأيام، لا.. نهائي.

بعد انقضاء اليومين بدأت عملي الرّتيب في بيت حماتي. صرت جزء من عائلتهم هلّأ. كانت حماتي سِت عفيّة، قويّة متل الرجال. لكنها سِت صالحة -الله يرحمها- علمتني الطّبخ والخَبز. فأخبز لبيتها، ولنا. الله يخلف على هذيك الأيام. حلوة، حلوة مثل العسل. كنا ثلاثة أزواج في البيت. الأخ الأكبر لزوجي وزوجته ووالديه معهما. أحيانًا ناكل سوا، وأحيانًا بشكل منفصل. حماتي -الله يرحمها- كانت بدها لكل عائلة منّا تكون مستقلة. قالت لي: «زوجك قوي، راح يكدّ مشانكم». الصحيح، كان يكسب اللي يعيّشنا. عمل حجّار في المقبرة اليهودية فوق جبل الزيتون. عمل هناك ست سنوات. حبُّه رئيسه في العمل لأنه كان مجتهد وبيعمل بجدّ. لكني كنت برغب فعلًا نكون عيله وحدة كبيرة نتقاسم كل شي مع بعض. توالفت مع سلفتي، ليش لأ؟ أصرّت حماتي إن كل واحدة منّا تدبر أمورها وتتحمل مسؤوليتها لحالها. هذا كان أسلوبها. علمتني أمي الطاعة، ولهيك مشيت على هواها. أكيد طِعتها.

خلّفت ابني الأول بعد سنة من زواجي. لـمّا حَملت ما فهمت الحاصل. ما كان عندي أيّ فكرة. ولا أيّ فكرة عن الولادة. عمتي كانت حامل هي الأخرى في نفس الوقت، لذا اعتقدت إني راح أراقبها وأعمل شو ما بتعمل. في وقتنا كانت بعض النساء تلد في المستشفى وغيرهن في البيت. أبوي وأمي كانوا بدهم ياني ألد في المستشفى مش في البيت. لهيك رحت لمستشفى جمب سجن المسكوبية، ولدت ابني هناك. لكنه انولد ميت وما عرفت السبب. التفت الدكتور لأبوي وقال له: «كيف زوّجتها في هالسن الصغيرة؟ هل كان مهم بالنسبة إلك تشوفها في ثوب العرس؟» بكى أبوي. لام نفسه على موت

مكتبة ياسمين

الطفل. حماتي شافت الطفل، قالت لي بعدين إنه كان كبير وجميل جدًّا ولا يمكن تنساه. الله يحفظنا، نحن خلقه ما أضعفنا. دفنوا الطفل متل ما بيدفنوا البالغين. غسّلوه وكفّنوه وبعدها صلّوا عليه ودفنوه. هذا اللي صار. طفلي الأول مات. قالت لي حماتي بعدها: «بس، ما في روحه على المستشفى مرّة ثانية. أمك هي اللي كان بدها تلدي في المستشفى. من اليوم ورايح حتولدي في البيت، خلاص!» بعدها بسنتين، ولدت محمد في البيت. ساعدتني حماتي مع الدّاية. فضّلت الولادة في البيت، مُريحة أكثر. وبعدها ولدت توفيق وعادل وماجد وماريان في المستشفى. لكني بفضّل البيت مع الدّاية. كانت في منطقتنا داية منيحه، عجوز. بلا أي كتاب يعلمها، لكنها تعرف شغلها. تحضر مع عدّتها وتساعدني على الولادة. بعدها تزورني كل يوم لمدّة أسبوع، وتظل تزورني في الشهر الأول بعد الولادة، حسب الظروف. هي اللي علمتني كيف أغسل الرضيع، وكيف أدلكه في الليل بزيت الزيتون -التدليك لجعل بدنه أقوى- وتحطّ الكحل على جفنيه عشان تحافظ على صحتهم، وترش البودرة تحت باطه، وتفتّش الصّغير من رأسه لرجليه حتى تتأكد إنه سليم وبخير. لا رشح، لا عدوى، ولا غيره. كانت معدّلة. أدفع إلها نصف جنيه عن كل يوم تزورني فيه، وفوقها أعطيها كل أسبوع هدية عبارة عن صندوق سعوط وشاشيّة وصابون، ويمكن أعطاها زوجي فلوس كمان، ما بعرف.

هكذا أنجبت أولادي حتى آخر أربعة منهم. طرحت بعد محمد، لكن بعده مرّت الأمور على خير، ولدوا أحيانًا على روس بعض. الحمد لله، كبر أولادي بسرعة أصحاء بفضل الرضاعة الطبيعية. ما استخدمت أي مواد صناعية أو حليب بقر. إذا بكى واحد من الرضّع كانت حماتي تعطيه مهدّئ تحضّره بنفسها. تجهّزه بإحضار خرقة من القماش تضع فيها القليل من العنب، أو خليط من اللوز المطحون والدّبس. نستعمل هذا المهدئ للرضيع في شهره الثالث أو الرابع، بيناموا ساعتين بسبب مفعوله.

t.me/yasmeenbook

ما يساعدني زوجي في العناية بالأطفال إلا لمّا ولد التوأمان. كان سعيد فيهم، وما استطعت أدبر حالي من دونه. الحمد لله على رزقه الواسع. سبع بنات وستة أولاد. يا ربّي لك الشكر. هل أفضّل الأولاد على البنات؟ لا، مستحيل أقولها. أنا وأبو محمود بنحب البنات مثل الأولاد. ما بنفضّل حدا على حدا. ربّك بيعطي، وواجب علينا نحبّ عطيّة الله كيفما إجت. عند كل ولادة كنا نوزع الشوكولاته والحلويات، عملنا هيك للأولاد والبنات على السواء. لكن اللي تجاهلناه كان العقيقة، لا الأولاد ولا البنات. حسب ديننا، على علمِك، يفترض نذبح خروفًا ونطبخه ونعزم الجيران والعيلة. في كل مرة أهملنا هذا، ما بعرف كيف. أقول لك الصحيح، أخاف يحاسبنا الله لأننا ما عقّينا عنهم. ليتنا عقّينا عنهم، لكننا ما عملناها، وهذا اللي أنا نادمة عليه.

اشتعلت الحرب بعد فترة قصيرة من ولادة التوأمين. كان هذا عام 1948، معنا ستة أطفال، ونعيش في هذا البيت. ما كان كبير الحجم متل هلّأ. عمّرناه بالتدريج. شهدت البلد اضطرابات كثير وقتها. في دير ياسين[1] قتل اليهود الناس ودمّروا منازلهم. خاف الناس جدًّا، ارتعبوا، ما عرفنا كيف نتصرّف. أنا ما كان عندي أدنى فكرة عن الحاصل. لا عندنا تلفزيون، ولا أفكّ الخط، وزوجي بالعافية.. إيش كنت أعرف؟ كنت مشغولة بالخِلفة طول الوقت. مكنّاش نعرف إشي.

وقتها كان زوجي بيشتغل في وظيفتين. طبّاخ في مدارس الحكومة البريطانية وبيّاع للحليب كمان. كان في يهودي -سالم- متعوّد يمرّ من هنا بدراجته ليشتري الحليب من زوجي، وبعدها يودّيه للجهة الغربية من المدينة

1. دير ياسين: قرية عربية تقع على المشارف الغربية للقدس، حيث ذبحت عصابات اليهود حوالي 250 قرويًّا فلسطينيًّا في 9 إبريل 1948م.

مكتبة ياسمين

وين ما بيعيش معظم اليهود. أكيد كنا نتواصل مع اليهود. أتسوّق الأحذية من متاجر يهودية. بتذكر إني اشتريت حذاء حلو جدًّا من متجر يهودي قريب من بوابة دمشق. رخيص جدًّا وجميل، عليه نقوش رائعة. إذا غمّضت عيني بقدر أشوفه قدّامي.

ما بعرف أحكيلك ليش بدت الحرب. أنا مش أحسن حدا يجاوبك. كل ما أعرفه أن البريطانيين في المدرسة جاؤوا في يوم من الأيام لزوجي وقالوا له: «راحلين، بعد أسبوع الأمور راح تصير عال العال». أعطوه شوية فلوس كآخر دفعة، وهذا اللي صار. ما بعرف ليش رحلوا. سلّموا البلاد ورحلوا. هل راح يخبّروا الناس البسطا متلنا عن نيّتهم؟ لا.. بيخبروا الشخصيات المهمة. ما بعرف ليش تركوا. هذا حال الدنيا. في حياة وفي موت. هيّا هيك.

ما نشبت الحرب كلها مرّة وحدة وانطفت مرّة وحدة. كانت تبدأ ثم تتوقّف. بعد دير ياسين وحوادث مشابهة لها قررت أخزّن المونة لنا. أرز وطحين وسميد ومعكرونة وعدس وحمص وسكر. اشتريت مواد من هذه النوعية. حضّرت للأسوأ. صار الناس يهربون من بيوتهم من كل أنحاء المدينة. العرب اللي ساكنين في القدس الغربية هربوا من عين كارم، وطالبيّة والبقاع بعدما زاد القتل. هرب الناس هنا أيضًا من الناحية الشرقية من المدينة. لكن بعكس من هم في الجزء الغربي، الناس هنا رجعوا لبيوتهم لأن اليهود فشلوا في احتلال هذا الجزء من المدينة.

نحن بقينا. لكن الهجمات كانت تشتعل وتخمد. في مرّة من المرات أثناء إحدى الهجمات اللي كان فيها تفجيرات كثيرة جمبنا، رحلتُ ومعي كل أولادي. أمسكت بالتوأمين أولا -كانوا الأصغر- وتبعني بقية الأطفال. ما وقفت عن الركض حتى وصلت إلى لبعض الجنود العرب. داروا بالهم علينا، الحمد لله. اللي كان محظوظ عاش، واللي كتب الله عليه الموت مات.

t.me/yasmeenbook

كتار انقتلوا في هالحرب. زوج أختي قتل وثلاثة أو أربعة غيرهم من جيراننا. ما كانوا من مقاتلي الجيش، إنما علقوا بين تبادل لإطلاق النار بين اليهود والعرب. كدتُ أقتل ثلاث مرات أنا الأخرى. بتذكّر إني كنت أغسل الغسيل تحت شجرة التين، وجمبي كلب. وفجأة خطفَت رصاصة جمبي وصابت الكلب. كنت محظوظة لأنها ما صابتني. المرة الثانية، كنت في زيارة لأختي -زوجها انقتل من فترةٍ قريبة -وعلى فرض إن جنود الأمم المتحدة بيحرسوا الأجواء وإنها آمنة للخروج. مشيت في طريقي لأختي لمّا -أحلف لك- مرّت طلقة جمبي، ووحدة ثانية من أمامي، وقتها صاح حدا: «هيه يا بنت، اطلعي من هالشارع». فطلعت منه. لو كتب عليّ الموت في هذاك اليوم لمتّ. المرة الثالثة كدت أموت فعلًا هنا بالضّبط وأنا بخبز الخبز خارج الدار في الطّابون [فرن طينيّ]. عادةً في الحرب كنتُ أخبز داخل البيت على فرن الصفيح، حتى ما اضطر أطلع والأوضاع خطرة. في ذاك اليوم ظننت أن الوضع آمن. دوبني عجنت العجين ومِلت للأمام أنزله في الطابون وانطلقت رصاصة قريب منّي. سمعتها تستقر في جذع شجرة. ومتل ما توقّعت لقيتها مستقرّة فيها. حالفني الحظّ مرة ثانية.

كل عائلتنا كانت محظوظة. لم يحصل لنا أو لبيتنا أي شيء. لا هربنا ولا رجعنا، إنما بقينا. أبو محمود كان أكبر من إنو يصير جندي، بالإضافة إلى إنه ما اهتمّ بالسياسة، ولا عمره. بقي معي طول فترة الحرب، عمل من حين لآخر في أعمال البناء هنا أو هناك. عمل في البناء وقت قصير في المدينة القديمة، في كنيسة. لقي له صديق هذا العمل. يا دوب يعيّشنا، لكن دبّرنا حالنا لأننا أجرّنا الطابق العلوي من البيت، اللي بنعيش فيه حاليًّا. هذا مكّننا من العيش، وكذلك الأغراض التي خزّنتها. دبّرنا حالنا. من فضل الله علينا، دبّرنا حالنا.

مكتبة ياسمين

بعد الحرب عادت الحياة إلى مجاريها. أكملنا تأجير الطابق العلوي من البيت فترة، ولقي أبو محمود شغل في بعض أعمال البناء. مرّينا بأيام صعبة وأيام طيبة. بإمكاني تدبر عيشتنا إذا جاب أبو محمود عشرة دنانير أردنية. وإذا جاب مائة دينار كمان. بندبّرها. أنا سِت من أهل زمان. امرأة من زماني تعرف كيف توفّر القِرْش، وكيف تستعمل الأشياء؛ كيف تستفيد من الثياب القديمة، وتطبخ على نار الحطب. نعرف كيف ننظف الثياب من غير صابون، بالرماد. هذا الصحيح. بتحطّي الرماد في قطعة قماش وبعدين بتحطّيها جوّا الـمَي المغلي مع الثياب الوسخة. بتطلع الثياب نظيفة تبرق برق. بنات اليوم عندهن غسالات ومنظفات وغسالات صحون واسفنج وممسحة لهاي وممسحة لهاي، ومع هذا دايما تعبانات. شوفي، كنّتي حكت لي اليوم إنها حمت واحد بس من أولادها الاثنين لأنها حسّت بالتعب. في زماني تعوّدت أحمم عشرة من أولادي الواحد ورا الثاني. تخيلي؟ بنتي الصغرى ماريان نفسها هي الأخرى تساير الحياة العصرية. راح تتعب هي الثانية. عندهن ولدين وثلاثة وبيتعبن. بالعافية ممشيات حالهن.

على كل حال، بعد الحرب كنت ما زلت مع أطفالي الستة. ثم رزقت بواحد، واثنين، وسبعة غيرهم. ثلاثة عشر. مع ذلك أعترف أن ولدًا واحدًا أو اثنين كثير. كنت كبرت على الخِلفة والخَلَف. مع ماجدة -ابنتي الثانية عشرة- حاولت القفز فوق وتحت، وركضت لأعلى وأسفل الدرج، وما تركت شغل بالبيت إلّا واشتغلته. ما ساعدني هذا كله. شربت كل أنواع السوائل، واقترحت عليّ بعض النسوان ماء البصل -الماء الذي يُغلى فيه البصل- وغيرهن اقترحن عليّ أحطّ قنينة مَي سخنة على بطني. في الأخير، رحتُ للداية اللي حاولت مساعدتي بتدليك بطني بزيت الزيتون. لكنه ما نفع. ما نفع أيّ شيء. واستمر الحمل طبيعيًّا، وولدت ماجدة.

t.me/yasmeenbook

طيّب، هذا اللي صار. حسبتها وقلت بكفي. ثم بعدها بست سنوات -كم كان عمري، أربع وأربعين سنة؟ صرت حامل مرّة ثانية. رحت لأبو محمود وخبّرته إني ما بدّي هالحمل. سمعت عن دكتور بتروح له النسوان للتخلص من الحمل غير المرغوب فيه. بياخذ عشر دنانير مقابل العملية - مبلغ كبير بالنسبة لنا. أعطاني أبو محمود المصاري، وما راح معي؛ كان عنده شغل في هذاك اليوم. كنت حامل في شهري الثاني يمكن، أو أكثر. يوم ماطر من أيام الشتاء. لما وصلت للدكتور حكالي إنه ما بيعمل العملية دون موافقة صريحة من زوجي. إمّا أن يوقّع زوجي أو ابني الأكبر على التصريح أو لا عملية. وبسبب الأمطار الغزيرة تعطّل التلفون. قالت لي النسوان في العيادة: «ليش بتشركي ابنك في هذا الذنب؟» رجعت للبيت أخوض في طرقات تجري فيها سيول الطين. مشوار طويل. قال لي ابني الذي كان في البيت: «إيش؟ عشر دنانير عشان تطرحي؟ ما تعمليها. خلينا نوخد الفلوس ونرتب حفلة بدالها». زوج أختي كان موجودًا وقتها وقال نفس قوله: «خلّونا نحتفل. هاتي العشر دنانير».

وهذا اللي صار. أخذوا الفلوس، واشتروا فيها خروف، وجهّزوا وليمة. أصرّ القدر على ولادة طفل آخر حتى رغم رفضي. وهكذا جاء المولود الثالث عشر، طفلة. اخترت لها اسم ماريان. أنا اللّي سميتها.

مكتبة ياسمين

ماريان

ماريان هي صغرى أبناء أم محمود الثلاثة عشر، والوحيدة التي ما زالت تعيش في البيت الذي ترعرعت فيه. رغم أنها تبلغ السابعة والعشرين من عمرها إلا أنها تبدو أصغر من ذلك بحس الفكاهة الذي تملكه. بعكس أمها التي تلبس الثوب الفلاحي للنساء التقليديات (ثوب طويل وشاشيّة بيضاء) تفضّل ماريان الملابس الغربية (الجينز، والتنانير، والثياب الحريرية، والقمصان) التي تبرز قوامها النحيل.

قابلنا ماريان في إبريل من عام 1994م. رفيقة كانت تعرفها معرفة سطحية. رتّب لنا صديقٌ مشترك الزيارة الأولى. وافقت ماريان على المشاركة -بدا ذلك لنا كخدمةٍ تؤدّيها لصديقنا المشترك- لكن بمجرد أن أخذت اللقاءات مجراها، صارت تولي اهتمامًا أكبر باللقاءات وفضولًا تجاه المشروع نفسه. بالنسبة لماريان -أكثر من أي امرأة من النساء الأخريات في البحث- فالمقابلات تعدّ متنفّسًا لها، حيث يسمح لها بالتنفيس عن مشاعرها المتضاربة حول حياتها، وخصوصًا حول أمّها. معظم لقاءاتنا مع ماريان -كالتي مع أم محمود- أجريت في شرفة منزلهم. ماريان مضيافة دومًا، حيث تعدّ لنا وجبة خفيفة أو حتى وليمة كاملة لنا، وفي أغلب الأحيان أجرينا مقابلتنا معها بينما نأكل. نغمة صوتها تمثيليّة وتميل للشتائم. وكلماتها تسبقها لكن بأسلوب أقلّ تنميقًا من والدتها. ورغم أنها تتحدث العربية فقط بطلاقة إلا أنها كانت

t.me/yasmeenbook

تغذّي حديثها من حين لآخر بعبارة إنجليزية أو عبرية، خاصة إذا ما ناقشنا بعض المواضيع المستفزة بينما أمها تجلس على مقربةٍ منّا.

استمرت لقاءاتنا مع ماريان لتسعة أشهر، حتى يناير 1995م. معظم ما هو مكتوب ههنا جُمع على مدار الشهرين أو الأشهر الثلاثة الأولى، حيث طلبنا منها أثناء الجلسات استعادة ذكرياتها الأولى، وسنوات دراستها.

ما كان من المفترض أبدًا أن أولد. حكت لكم أمّي عن ذلك، مش هيك؟ حاولت إجهاضي، لكن كما يقول المثل «عُمر الشّقي بَقي». عرفت هذا الموضوع من شقيقَيّ. لا بد أني كنت أبلغ الثالثة من عمري عندما ضايقاني بقولهما: «ماما كانت بدها ترميكِ، ما كانت بدها ياك!». لم أفهم ما عناه كلاهما، ولم أرد إخبار أمي. وفي أحد الأيام بينما هي تحضنني وتقبّلني أجشهت بالبكاء وقلت لها: «أمي، كيف فكّرت ترميني بعيد؟ كيف؟» نظرت إليّ مصدومةً بينما كنت جالسة في حضنها، وقالت: «أوه لا، لا، لا. ما قصدت أبدًا أرميك بهذا الشكل. قبل ولادتك، بقصد، مش بعدها». لم أفهم ما عنتهُ أمي فعلًا، لكني فهمت فيما بعد. لكن على الأقل، شعرت بتحسّنٍ أنها لا تريد التخلص منّي الآن على الأقل.

شايفه، أنا وأمي -لا أحكي عن وقتنا الحاضر- لكن، أيام زمان، ما كنت أحس إنها أمي. أقصد، أناديها «أمي»، أعرف من تكون، بالطبع. لكن أختي الكبرى -نزهة- هي التي كنت أناديها «ماما». هي التي أشعر بأنها الأقرب لي، التي تعتني بي. نسيت ترتيب نزهة بيننا، الثانية أعتقد، لا، الثالثة. أن تكون في آخر طفلٍ في كدسٍ من ثلاثة عشر طفلا سيجعلك تنسى أحيانًا. نزهة هي التي اعتدت الذهاب إليها حينما أحزن، أو إذا أردتُ شيئًا.

مكتبة ياسمين

أحبتها أكثر من أخواتي الأخريات. بعدها وفي أحد الأيام علمتُ أن نزهة «ستتزوج». لم يشرح لي أحد أي شيء. كل ما عرفته هو أن نزهة ستتزوج وأننا سنذهب لحضور عرسها في الكويت أيّا كانت. لم تكن نزهة وحدها التي ستتزوج، فأخت ثانية ستتزوج في نفس الوقت. ما حدث هو أن نزهة وفاطمة ستتزوجان رجلين يعملان في الكويت، رجلان فلسطينيات -ليسا شقيقين إنما تربطهما صلة قرابة. فهمت هذا كله لاحقًا. كل ما عرفته إذن، كم كنت أبلغ حينها.. الخامسة أو السادسة أو ربما السابعة؟ كل ما قالوه لي حينها هو أننا سنغادر للكويت. أنا ونزهة وفاطمة وأمي. لم يذهب أحد آخر.

لا تسعفني ذاكرتي بالكثير عن ما مضى، لقطات منه فحسب. قضينا هناك فترة، شهرين فقط. أعرف الآن. أتذكر البيت الكبير الذي أقمنا فيه معا لفترة مع أختيّ وزوجيهما، وأذكر ذهابنا لتناول السمك في مطاعم تقع على طول البحر حيث عشنا. والرمال، الرمال، الرمال، الرمال في كل مكان. أتذكر أيضا... لحظة، أطفئي جهاز التسجيل وسأخبرك، طيب، طيب.. سأذكر هذا على الشريط. أذكر أني أردت الذهاب لغرفة نوم نزهة، وفي كل ليلة من تلك الليالي أطرق باب غرفتهما. أردت النوم مع نزهة مثلما كنت أفعل في بيتنا دائمًا. كانت تجهزني للنوم كل ليلة، وتقرأ لي قصة، ثم تظل معي وتنام في نفس السرير. وهكذا، ظللت أنادي عليها من خلال الباب: «ليش ما بتفتحوا لي؟ شو بتعملوا؟» فتجيء أختي الأخرى وزوجها، أو أي شخصٍ آخر لإبعادي، وقد نخرج للتمشية أو للزيارة، حتى لو كان الوقت ليلًا. في الكويت -لأن طقسها حار- فإنك تنجزين العديد من الأمور ليلًا. على كل حال، استمر الوضع هكذا لشهرين. بعدها عدتُ وأمي إلى القدس، وبقيت نزهة وفاطمة هناك. لم أرهما كثيرًا على مر السنوات. كلتاهما في الأردن مع أسرتيهما الآن؛ فقد غادروا الكويت قبل قيام حرب الخليج، ولا يستطيعون العودة الآن.

t.me/yasmeenbook

ذهبت للأردن لزيارتها. ما زالت نزهة أختي المفضلة وأنا قريبة من أبنائها. لديها أربعة أولاد وبنتين. لا أعاملهم كعمّة، فأنا لا أخلق المسافات بيننا. إنني مثل صديقتهم، وما زلت ونزهة مقرّبتين من بعضنا جدًّا.

لكن، بالعودة لتلك الأيام، عندما عدنا من الكويت أتذكرها بوضوح أكبر. اكتشفت لاحقًا من أمي أنها وأبي كانا قلقين عليّ جدًّا: كيف سأتدبر أموري من غير نزهة؟ ما فعلته -أذكر هذا جيّدًا- هو أني اعتدت أن آخذ معي كل يوم إلى المدرسة صورة لنزهة، لم أرِها لأحد، احتفظت بها في حقيبتي المدرسية. استمر هذا لفترة طويلة من الزمن. شوي شوي تبهدلت الصورة. كتبت على ظهرها خرابيش مثل الواجبات المدرسية، أو أحيانًا مجرد خربشات. في الأخير، بطّلت آخذها معي. رجعت إلى أمي الحقيقية، وبدأت هي في الاهتمام بي أكثر فأكثر. أصبحت هي من تجهزني للنوم كل ليلة. لم تقرأ لي القصص؛ فهي أميّة. لكنها كانت تنام معي عوضًا عن نزهة. مِشي الحال بلا مشاكل.

وفي المدرسة مشت الأمور كمان، بلا مشاكل. كانت المعلمات يحببنني. كنت فتاة جميلة جدًّا وأتأنّق للمدرسة. فبعض من أخواتي الأكبر مني سنًّا يجدن الخياطة لحياكة مطرزات جميلة. خطن لي مرّة ثوبًا فلاحيًّا عليه تطريز تقليدي، أحبّته المعلمات جدًّا. لم تكن كل المعلمات لطيفات. كن يصفعن الأطفال الذين لا ينتبهون إليهن. هيك كانت الأمور وقتها، حتى بالصف الأول والثاني. وما زالت هيك لأيامنا أحيانًا. أنا انضربت مرّة أو مرتين، لكن في الأغلب كنت بنت عاقلة.. أقصد مؤدبة في المدرسة. في البيت كنت مختلفة نوعًا ما، شقيّة شوي.

كان عندي «قَريب» اسمه محسن. في الواقع كان أحد أبناء أخواتي. وقتها كانوا يسكنون في الشقة الواقعة في الطابق التحتاني من البيت. بيني

مكتبة ياسمين

وبين محسن علاقة من الحب والكره. كنا في نفس ا لمدرسة في المرحلتين الأولى والثانية، لأنها مدرسة للأولاد والبنات. يكبرني بسبعة شهور، لكنهم سجلونا بنفس الصف لنكون معًا. كنّا مقربين جدًّا، نلعب طوال الوقت مع بعض. أحيانا كنا نلبس ملابس متشابهة -بإمكانك القول- أن أمه هي التي تخيطها لنا. أو إذا أقامت ابتسام حفل يوم ميلاد لمحسن فإنها تقيم حفلا لي في الوقت نفسه. لكننا كنا نتعارك كذلك طوال الوقت. مجرد ما ينزلنا باص المدرسة على الشارع نرمي شنط المدرسة ونتخانق. نتصايح ونلطش بعض كفوف ونضرب بعض. وغالبًا أفوز أنا. أحيانا يمر واحد كبير ويوقفنا. وفي الغالب كانت أمه توقفني عن ضربه. أمي أنا لم تتدخل أبدًا. أذكر سؤالي لها: «أمي، ليش بعمرك ما جيتي وتدخلتي، بينما ابتسام دايما بتيجي تحامي عن محسن؟» فتردّ: «اللي بدّو يلعب مع البس بدّو يتحمّل خراميشه». سألت أيضًا ابتسام مرّة: «اشمعنى دايما بحامي لمحسن؟» فهي كانت أختي قبل أن تكون أمّه. أتعرفين بم أجابتني؟ قالت: «ماريان، من يوم ما انولدت وإنتي زي الضبعة معه. حتى لما كنتِ بترضعي ما كان حليب أمك، كنت تيجي لصدري وأنا برضع محسن تبعديه!» لهذا شعرت أن من واجبها حمايته مني. أنا ومحسن، أخوة في الرضاعة.

أمي -متل ما إنتي شايفه- لم تحب أبدًا لعبي مع الصبيان، حتى أولاد عمي. في زمانها ما لعبت معهم، وكانت ضده. تقول لي دائمًا: «ألعابهم دفشة ومش إلك». وإذا دخلت في هذا المزاج كانت تجبرني على البقاء في البيت، متل كإني في السجن، وهيك ما أقدر ألعب مع الأولاد. ولما يصفو مزاجها تسمح لي بالخروج. أبي ما كان يحكي أبدًا، كان برّه هاي المواضيع. ما كان رجل عربي تقليدي -زي ما إنتِ عارفه؛ متسلّط وقاسي. كان متساهلًا معي ولطيفًا دائمًا. لم يضربني أبدًا. يمكن صفعة خفيفة في مرّة من المرات. وإذا عملها بسرعه بييجي للصّلحة. يحضر لي أكياس الحلوى ويطلب مني أن أخبئها في خزانتي

t.me/yasmeenbook

لآكلها على مهل. فرجاني وين بيخبي الفلوس في دُرجه وحكالي آخذ منها إذا بحتاج فكّه من غير ما أسأله. فعلاً، ما منعني عن أي شيء.

وهكذا، اعتدت اللعب مع الأولاد. الحقيقة، إما اللعب معاهم أو ألعب لحالي. ما كان في بنات من مثل سنّي في البيوت حوالينا وقتها. محسن، وأنا، وولد ثالث اعتدنا اللعب معًا كثيرًا. كنا نلعب عسكر وحرامية. أو نلعب بعربة تنطلق بكل قوة حيث ندفعها إلى أسفل الشارع الضيق، وفي بعض الأحيان كنتُ أتعرض لإصابة فعلًا. أو نصعد التل أحيانًا -كانت هنالك العديد من الحقول المفتوحة حينها- وهناك في الأعالي نقطف نبتة برية منظرها يشبه البصل، لكن إذا فركتِ منها على جلدك تصابين بحكّة سيئة. كنا نقطف بعضها ثم نستوقف بعض الكبار على الطريق ونسألهم عن الوقت. ومن الطبيعي أن يرفع الشخص رسغه لينظر لساعته، حينها وبسرعة نفرك تلك النبتة في رسغ الشخص ثم نهرب بعيدًا بأقصى سرعة. كم كان ذلك مسلّيًا، بحكيلك بجد، مسلٍّ جدًّا، رغم أنه يبدو غبيًّا الآن نوعًا ما.

بعد تلك المدرسة التي ذهبت إليها أنا ومحسن -المدرسة المختلطة- ذهبت لمدرسة للبنات فقط. كانت تبعد مسافة كيلومترين، في بيت حانون. ذهبت إليها من الصف الثالث حتى الثانوية العليا. فتياتها من عائلات الطبقتين المتوسطة والفقيرة. فعائلات الطبقة الراقية ترسل بناتها لمدارس أخرى. إيش أحكيلك كمان؟ كانت الحياة روتينية، كل شي عادي. كنت طالبة منيحة، لهيك المدرسة كانت عال. أديت كل المراحل بشكل ممتاز، بجد. ما بتفاخر. مع الوقت وصلت للمرحلة الثانوية، وكنت مشهورة باعتباري طالبة ذكية. لأني ممتازة في مواد مثل الرياضيات والفيزياء، وكذلك في الدين والأدب العربي واللغة. ما كنت شاطرة في الأحياء، لكن علاماتي

مكتبة ياسمين

في الامتحانات منيحة؛ لأني كنت أغش. كنت أقعد بجب وحده من البنات الذكيات، اللي ما بتمانع لعلمها إني شاطرة في المواد الثانية. أظن معلم الفصل كان يعرف الحاصل لكنه يتغاضى، يمكن لعلمه إني ذكية في المواد الثانية. ما كنت في حاجة للغش في اللغة العربية، لأني متفوقة فيها، والمعلمة كانت تحبني. حتى هذا اليوم إذا شفتها في الشارع توقفني وتقول: ما تغيرتِ أبدًا. أنت ذكية مثل ما إنت. معلم الدين أحبني هو أيضًا، كنت دائمًا ما أملك الشجاعة لأسأله -لا لأتعلم فقط عن طريق البصم- فيعطيني الفرصة لأسأل ما أشاء. كان رجلًا متديّنًا. هو واحد من الذين نفتهم «إسرائيل» إلى لبنان منذ بضع سنوات مضت. فقد تعرفت إليه عندما كنا نشاهد أولئك الرجال في لبنان.

أثناء تلك الفترة -فترة المراهقة- مُنع عليّ اللعب مع الأولاد، آه لا، حرام! بس البنات. كان عندي صديقات كثيرات. أذهب لبيوتهن بعد المدرسة. نجلس معًا، نغني، نأكل، نضحك، نتحدث عن هذه المعلمة أو تلك. لا أذكر الحديث عن الأولاد، ليس في تلك المرحلة، جاء هذا في وقت لاحق. بضع هؤلاء الفتيات ما زلن صديقاتي، رحنا معًا للجامعة، وما زلنا نرى بعضنا من حين لآخر. شو كمان؟ طيّب.. إذا ما زرت بيت واحدة من صديقاتي، أقعد في البيت وأحل واجباتي المنزلية، أو أساعد أمي في الطبخ. ما في شي مسلّي. أحيانًا أشاهد التلفزيون أكيد. أحببت مشاهدة تلك الأفلام الرومانسية. في الحقيقة ما زلت أحب مشاهدتها. أفلام مصرية أو أجنبية من أوروبا أو الهند مثلا. أحيانا تكون هناك مشاهد في الأفلام، طيّب، أمي تحضر وتقول: «هاي بلا ذوق، عيب! طفّي!» فأغير المحطة عادةً. أو أرد عليها أحيانًا: «استني، استني، رح يخلصوا كمان شوي!» الحقيقة ما زال في فيلم خاطري أشوفه ليومنا هذا، وبعرف إن فيه بعض المشاهد، بتعرفي، من اللي بلا طعمه على قولة أمي. لهيك بروح غرفتي، عندي تلفزيون صغير أسود

وأبيض. بترك التلفزيون الكبير الملون لأمي وأبوي، خليهم يتفرجوا على الأخبار لحد ما يدوخوا! وبتفرج على اللي بدي ياه على تلفزيوني الأبيض والأسود باستقباله التعبان، بكل الخطوط اللي فيه، والصورة اللي بتنطّ فوق وتحت، بس هيك بعمل. خليني أحكيلك، بحوّش شويّة مصاري لأشتري تلفزيون محترم لغرفتي!

أظنك صرتِ تعرفين أن أمي ليست من نوعية الأشخاص الذين يمكن أن تحكي معهم عن أمور معينة -أقصد الأمور الجنسية مثلًا- عيب.. عيب يا رفيقة! أتذكرين اليوم الذي سألتها فيه عن عرسها؟ آه! أجل سمعت معظمه على كل حال. التقطتُ طرف الحديث بينما كنت أتمشى ذهابًا وإيابًا من الشرفة وإليها. عندما رحلتِ قالت لي: «أسئلة رفيقة هذه بلا ذوق، بلا ذوق بالمرّة». لا تزعلي، هذه طبيعة حكيها، طريقة تفكيرها. لا تتضايقي. جاوبتك لأنك ضغطتِ عليها. لكنها ما كانت مرتاحة أكيد. أحيانًا عندما أسألها أسئلة عن أمور من هذا النوع تحكي أنّي شخص بلا ذوق، وما بستحي. هيك دائمًا. لما كنت صبية أدركتُ بدهِيًّا أن من الأفضل تجنب الكلام معها في هذه الأمور. ولذلك سكتّ. ما حكيت ولا شي أبدًا. أتذكر لما إجتني الدورة الشهرية لأول مرة. خبّيت الموضوع، ما حكيت ولا كلمة. خبيت الأدلة عنها، حرقت الفوط الصحية. وبينما الأمور ماشية على هذا الحال، زارتنا جارة من جاراتنا وكانت أم صديقتي، وسألت أمي: «إجت ماريان العادة الشهرية؟ إجت لبنتي وهي مرعوبة». أتعرفين ماذا أجابت أمي؟ قالت: آه.. إجتها من زمان. مرعوبة؟ لا، لا.. مش ماريان. ماريان ما بتخاف، ما اهتمّت، ولا حكت لي أساسًا». بهذه الطريقة اكتشفتُ أنها كانت تعرف.

هكذا تسير الأمور في عائلتنا على الدوام. لم أتحدث مع أختيّ مطلقًا عن الجنس وليلة الدخلة. لا سألتُ ولا حكَين لي. في مرة من المرات -هذه

مكتبة ياسمين

الأيام- تعمّدت استحضار موضوع مما تطلق عليه أمي «بلا ذوق»، أحيانًا أعملها مع أمي، كهذه المرّة. أخبرتها أن صديقةً من صديقاتي تزوجت. هذه الصديقة أكبر منّي بقليل، ربما في الثلاثينيات من عمرها. حكيت لها كيف أن والدها يريد أن يرى شرشف ليلة الدخلة ليتأكد أن ابنته عذراء. فسألَت أمي: «وعملها؟ بدّك أحكيلك الصحيح، أبو صاحبتك هذا مجنون!» هذا ما قالته. ثم حكت لي حكايةً عفا عليها الزمن، قبل سنة 1948، عن امرأة شابة اعتادت أن تأتي لمساعدة أمي في العناية بالصغار وشؤون البيت.

قالت أمي: «شغلَه بتحَزِّن، طيب الله ذكرها».

سألتها، متطلّعة للمزيد: «ماتت؟»

«قُتلَت. قتلوها، رجال عيلتها».

سألت: «ليش؟»

«الحاصل إنها تزوجت، وبعدها حملت على طول. بالطريقة اللي حسبوها، مستحيل يكون حملها من زوجها. ومعناته الجنين من واحد ثاني».

قلتُ: «بجد بتحكي؟» قالت: «في هديك الأيام ما كان حدا يروح للدكتور شو ما كان.» ثم أردفت: «وفوقها، ما كانت البنت شريفة».

أجبت: «يعني إذا ما طلعت بكر، لازم يذبحوها؟»

قالت أمي: «ها؟ مهو لأيامنا هذي الموضوع ماشي هيك، وللّا لأ؟»

خبّرتها: «إذن هذولا مجرمين، هذا رأيي».

وخلص الحكي. لكن قولي لي، أليسوا مجرمين؟ شوفي، لن تقتلي امرأة بسبب غلطة ارتكبتها، حتى لو كانت غلطة فادحة مثل تلك، مش هيك؟

t.me/yasmeenbook

على أي حال، فلننتقل لموضوع آخر. وين كنّا؟ المدرسة الثانوية. إذن أتممت المدرسة الثانوية ثم التحقت بالجامعة. لا، لم أكن الأولى. خلينا نشوف؛ من بين أخواتي ثلاث درسن للصف السادس، واحدة أتمت الثانوية، وثلاث التحقن بالجامعة. منيح جدًّا هالحكي، شو رأيك؟ نصفنا حصل على تعليم جامعي. مش عاطل هالحكي على اعتبار إن أبونا وأمنا فيما بينهم ما كملوا سنة وحده بالمدرسة. هذا حال الفلسطينيين اليوم، تعليم، تعليم. كل من استطاع الذهاب للجامعة ذهب. أولاد، وبنات كمان.

بالنسبة لي، لم يدر في بالي ولا أي سؤال عن الموضوع أصلًا، ما تخيّلت ولو دقيقة أني سأنهي دراستي الثانوية لأقعد في البيت. شو؟ أقعد هون أطبخ وأكنس طول اليوم وأصير خدّامة؟ لا، لا ما بناسبني. كنت أعرف أني ذاهبة، حتى لو ما كنت متأكدة مما سأدرسه. عمري وقتها يا دوب سبع عشرة سنة. في ذلك السن لا تعرفين كيف تتصرفين. اليوم، إذا اخترت، لرغبت أن أكون معلمة مثلما فعلت. أقصد، أحب شغلي، لكن قد أختار ربما شيئًا أكثر تحديًّا أستطيع فيه التعبير عن نفسي، وأجني مزيدًا من النقود. ربما القانون. لا أعرف، شغلة غير التدريس.

بالرجوع للفترة التي أنهيت فيها الثانوية، فكّرت في السفر للأردن للدراسة مثل ماجدة وخليل. نسبتي كانت 81٪ في التوجيهي. مش عاطلة، لكن مش كافيه لدخول الكليات الأردنية التي قدمّت لها. فكرت للحظة في كليّة في أوروبا أو أمريكا، لكن طردت الفكرة من رأسي سريعًا لأن تكاليفها عالية جدًّا، ولم أرغب في أن أشكّل عبئًا على إخوتي في أمريكا. وهذا تركني لخيار الدراسة في بعض الكليات أو الجامعات هنا. هذا كان قبل الانتفاضة بثلاث أو أربع سنوات. ما زالت هناك كثير من الاشتباكات التي تحصل في بعض جامعات الضفة الغربية، وقد تقفل الجامعات بسببها شهورًا حتى

مكتبة ياسمين

تنتهي. نصحني الناس بالتوجّه للجامعة في أبو ديس خارج القدس، تقع في مكان هادئ يمكنني من إنهاء دراستي في أربع سنوات دون أن تضيع عليّ أي سنة بسبب الإضرابات. اتضح لاحقًا أن هذا غير صحيح بالمرّة. بمجرد ما بدأت الانتفاضة أغلقت كل الأماكن. لكن حينها كانت النصيحة جيّدة. بالإضافة إلى أن كلية أبو ديس كانت متخصصة في العلوم، وبما إني بحب العلوم -الرياضيات والفيزياء- اكتشفت أنها المكان الأنسب لي.

وهكذا التحقت بأبو ديس. كان فيها سكن داخلي، لكني لم أحتَجهُ لأنها قريبة من بيتي. أذهب صباحًا وأعودُ ظهرًا. لا يمكنني القول إني استمتعت فيها؛ مثلما استمتعت لاحقًا بجامعة بيت لحم. كانت صغيرة، وهادئة وشديدة. لم أكوّن فيها أي صداقات جديدة. ودودة مع الجميع بالطبع، أتكلم مع الكلّ، لكن أخجل من التحدث مع الطلبة الآخرين فعليًّا. إنني من نوعية الأشخاص الذين إذا تحدثوا فإنهم يتحدثون بصراحة وانفتاح. ولم أثق في تقبلّ الطلبة الآخرين لذلك. وكمان، لما كنت في أبو ديس كنت مجتهدة في دراستي، ما كان عندي وقت للصداقات. انحصرت معظم علاقاتي مع الطلبة الدارسين للفيزياء والرياضيات. مع الطلّاب أكثر من الطالبات. لقيت إني بميل إلهم أكتر. أقصد، ما كنت بدوّر على الحب أو أي شي متل هيك، هلّأ.. هاي قصّة تانية. الشباب كانوا زي أخواني. حبّيت هيك. شخصيًّا بفضّل الأصدقاء من الشباب لأن البنات بيغاروا من بعض. البنات ما بتساعد بعض بالواجبات أو بتجيبلك فنجان قهوة. الأولاد بلى. كانوا يتركوني أنسخ واجباتهم، البنات لا. معظم الشباب في أبو ديس كانوا متدينين وملتزمين، وكنت ودودة معهم، لكن أيًّا من هذه الصداقات لم تدم. إذا ما رأيت أيًّا منهم الآن في البلدة فإننا نومئ برؤوسنا أو نحيي بعض: مرحبا، ثم يمضي كل واحد منا في طريقه. مو أكتر من هيك هلّأ.

t.me/yasmeenbook

كان الطابع محافظًا في أبو ديس. هناك مسجدان، أحدهما للرجال وآخر للنساء. معظم الطلبة يصلّون، كما تعرفين، الصلوات الخمس. فكّرت أن السبب الذي يجعل العديد من الطلبة المحافظين يلتحقون بأبو ديس هو أنها كلية علوم. أيبدو هذا غريبًا؟ اعتقدت -كقاعدة- أن الذين يدرسون العلوم هم أشخاصٌ أكثر التزامًا، ربما يدفعهم العلم ليصبحوا كذلك. إنه يجعلك تكتشفين كم يحتاج العالم إلى النظام ليستمر، فتدركين أهميّة وجود الخالق. فالعديد من الطلبة يناقشون العلاقة بين العلم والدين. بالنسبة لي فالعلم والدين ليسا متضادّين، إذا ناقض العلم الدينَ فإن المشكلة تكمن في العلم. إن العلم تابعٌ للدين، فالعلم يبحث في الاحتمالات والدين في اليقينيّات. ليس هناك شيء مثل اليقين المطلق في العلم، فالعلم ينتج عن الإنسان والدين عن الله. أنا واثقة من ذلك.

إنني إنسانة مؤمنة بدين، متل ما إنت شايفه. لكني مش ملتزمة متل ما لازم أكون. حاولت أصلي الصلوات اليومية، وأصوم رمضان، ومتل أهلي، أتمنى أحج في يوم من الأيام. لكن، ماشي، أنا مش مسلمة ملتزمة في طريقة لبسي. ممكن يعرف الواحد الخطأ ومع ذلك يكمّل فيه. زي ما بحكوا: «الله يلعن النّفس الأمّارة بالسوء». أنا، ما بحب التياب الدينية الملتزمة اللي بتغطي الذراعين والرجلين، وغطا الرّاس. بحب ألبس التنانير والفساتين القصيرة. لا تفهميني غلط: بخلّي التنورة دايما تحت الركبة، وما لبست أبدًا البكيني. أصلا ما بعرف أسبح. لكن أكيد إذا رحت لأمريكا أو أوروبا فيمكن أرفع التنورة لفوق شوي -لهان- فوق الركبة بس. يمكن أعملها، أنا عارفه يمكن أعملها.

إنتي شايفه، في تناقضات كتير بشخصيتي. والواحد منا بيدوّر على الطريق الأسهل دايمًا. من طبيعة الإنسان أن ينقسم بين ما يريد وما يعرف أنه

مكتبة ياسمين

صحيح. القرآن حكى عن هذا، وفرويد تكلّم عنه أيضًا، الأنا العليا والهوية، هيك سمّاهم. شخصية الإنسان تتحدد بفوز أيّ قوة من القوى المتناقضة فيه. يمكن لما أصير أكبر بالعمر راح أتديّن وأحسّ بالسلام الداخلي. بعرف إذا صرت أم فراح أكون حذرة أكثر، ما بدي ولادي يطلعوا متلي.

عندي ابنة خالة -نبيلة- تعيش في شقة تحتنا ولكنها تصعد لتجالسنا دائمًا. إنها في التاسعة. سألتني لماذا أضع الماكياج عندما أخرج، ولماذا ألبس هذا النوع من الثياب. أخبرتني قائلة: «عمتي، لما أكبر ما بدي أكون متلك». فهي ترى أمها وبعض أخواتها يرتدين ثيابًا محتشمة. كمان، بعتقد الأطفال مؤمنين أكثر منّا. إنهم يمرون بمرحلة في طفولتهم يكونون فيها متديّنين جدًّا. أذكر أني لما كنت في عمر نبيلة كان لنا جيران يونانيون مسيحيون، واعتدت أن أحكي لابنهم: «إنتا بتصلّي لخشبَة!» وكنت وأصحابي نسحب الولد المسيحي من إيده ونحكيله: «تعال معنا، أسلِم!» كنا بنحكي جدّ. أطفال أعمارنا في التاسعة والعاشرة والحادية عشرة نأخذ الدين بجديّة. لقد كنتُ أكثر تديّنًا وأنا صغيرة مما أنا عليه الآن. ربما يرزح أطفال اليوم فعلًا تحت ضغط أشد ليصبحوا متديّنين. هناك بالغون كثر في مثل عمري متديّنون جدًّا ويربّون أبناءهم ليصبحوا مثلهم. يمكن هالشي منيح. بعتقد.

أعرف أن أمي -وأعتقد أبي كذلك- يشعران بأني لست متدينة كما ينبغي. لكن من وجهة نظري -حتى لو كانا على حق- فإني أفهم الدين أفضل منهما. من أين حصلت أمي على فهمها هذا للإسلام؟ من أفواه الآخرين؛ فهي أميّة. أنا قرأتُ النصوص، وفهمي أدقّ من فهمها. سأعطيك مثالًا بسيطًا. في يوم ما كنا نستمع إلى شيخ على قناة التلفزيون الأردني، وحين بدأ بتعظيم الملك حسين بالقول إنه من سلالة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم. على إيش كل هادا؟ مهو واحد من رجال الملك، مو أكتر. من متى

t.me/yasmeenbook

كان الملك حسين من ورثة الرسول؟ لما بدأت بالسخرية من الشيخ حاولت أمي إسكاتي قائلة من أكون أنا لأنتقد الشيخ؟ هو حاصل على الدكتوراة -رجل متعلم- رجل دين. هذه نظرتها وهذا إيمانها. شوفي، سأضرب لك مثالًا آخر. أحيانًا نسمع عرفات يتحدث بعبارات دينية، ويصدّق أبواي أنه متديّن لمجرد أنه يتفوّه بها. بعكسهما، لستُ مستعدة لتصديق أي شيء مما يقول. ربما يكون متديّنًا، أو لا. الكلمات الحلوة عن الدين اللي بتنقّط من شفايف البني آدم ما بتخليه متديّن. أنا بحسّ إني مؤمنة مع إني ما بحكي عبارات دينية طول الوقت. اعترفت بهذا لنبيلة، اعترفت بهذا لأمي. يمكن راح أتغيّر في يوم من الأيام، الله أعلم. وإذا ما تغيرت، بدعي الله يسامحني. الله رحيم، لذلك راح يرحمني.

استطردت في الكلام عن الدين، مش هيك؟ كنت أحكي لك عن كلية أبو ديس. ماشي، تخرّجت. احتجت سبع سنوات لأتخرج بسبب الانتفاضة، فبدل أن أنتهي منها سنة 1988 -كما توقّعتُ- تخرجت منها سنة 1991. ثلاث سنوات ضاعت على الفاضي! أقفلت أبو ديس لثلاث سنوات بسبب الانتفاضة. أثناء هذه الفترة أخذت بعض الدروس، كم درس بس. كنّا نلتقي في مكاتب أو بيوت أو صفوف هنا أو هناك. المعلم نفسه الذي يدرسنا في الجامعة يدرسنا هناك. أنهينا بعض المساقات بهذه الطريقة، لكن ليس كما لو كانت الجامعة مفتوحة. سافر بعض أصحابي للأردن، وأوروبا، لأي مكان ينهون فيه دراستهم. فكّرت أن أفعل مثلهم. إلا أن ترتيب ذلك ليس سهلا، كما أن إشاعات فتح الجامعة قريبًا هذا الأسبوع، والشهر القادم، وقريبًا.. ظلّت تتردد، ولهذا انتظرت.

أثناء انتظاري، اشتغلت في مكتب أخي محمود. في شغل السكرتاريا،

مكتبة ياسمين

شي متل هيك. كان محمود ودودًا معي، ويدفع لي مبلغًا جيّدًا من المال. عصبيٌّ نوعًا ما، لكنّه طيّب جدًّا. هو ابن أمي المفضّل والأكبر وكل شيء. محمود كان دومًا بمثابة الأب بالنسبة إلي. في الواقع، بالعودة لتلك الأيام، عندما كنت أفكر في نزهة كماما، كنت أشعر بأن محمود مثل أبي. اعتقدتُ أنه تزوّج أمي، وفي الوقت نفسه اعتقدت أن نزهة ماما. شويّة لخبطة، أعتقد. على كل حال، محمود اتّسم بالطيبة معي في تلك الفترة، لهذا كتمت شعوري طوال الوقت لنفسي: «ماريان، إنتِ بتضيعي حياتك هدر. شو اللي بتحقّقيه بهذا الشكل؟»

في النهاية، الحمد لله، حصلت على على البكالوريوس وبدأت سنة رائعة من حياتي. حصلت على منحة للدراسة في جامعة بيت لحم لآخذ مساقات تمكنني من الحصول على شهادة المعلمات. بيت لحم مكان ممتع. آه بلى، طبعًا، كان في انتفاضة، لكن ما عرقلتنا هديك السنة. جامعة بيت لحم ما كانت منخرطة كليًّا في الانتفاضة. موقعها على قمة التل، بعيدًا عن الناس، ما كان الجيش «الإسرائيلي» مهتمًّا بهذا المكان. كان بعض الطلبة يشعلون الإطارات وينتظرون الجيش ليمر. ينتظرون، وينتظرون، ولا يأتي «الإسرائيليون». فيصيحون ويلعنون لكي يسمعهم الجنود، فلا يأتون. فعلا، كان الوضع هيك.

وهكذا قضينا وقتًا هادئًا ومسليًا. المساقات لم تكن صعبة، وكوّنت صداقات أكثر من تلك التي في أبو ديس. الطلبة من حولي في بيت لحم يكبرونني سنًّا. صادقت مجموعة منهم، ستة شباب وأربع فتيات. بعضنا متزوج وبعضنا أعزب، بعضنا مسيحي وبعضنا مسلم. نجتمع في شلّة ونخرج، إلى الغابة، أو الحديقة، أو للشواء في الخارج، متل هيك. من وقت للتاني كنا نطلع في مجموعات أصغر، مش بنت وشاب، ولا بنتين وشابّين.

t.me/yasmeenbook

ما كان الخروج بهذا الشكل مريح. بتذكر مرّة جربنا نطلع رحلة متل هيك -اثنين اثنين -لكن ما ارتحنا كلنا. لهيك في الطريق وقفنا ولقينا صديقة لنا، ومع إنها ما كانت حابه تيجي معنا إلا إننا أجبرناها حتى نقطع أي إشاعات.

كانت أحلى أيام، من سنتين فاتوا. من بعدها افترقنا وما شفنا بعض كتير. وأنا، ماشي، وقتي صار أضيق هالأيام وأيضًا حريتي لمثل هذه الأمور. شغل، وبرجع للبيت، شغل، وبرجع للبيت. أمي تقلق عليّ إذا خرجت. تقول: «هالأيام عاطلة». «أشياء مش منيحه حصلت، وناس عاطلة بتدور بالشوارع». بدها ياني أكون بالدار قبل المسا. جد! من يومين، كنت في درس سواقة، لكن علقت في زحمة سير على طريق البيت وتأخرت نصف ساعة. لقيتها معصبة على الأخير، معصبة وغضبانة. شو أعمل؟ أنا أعيش في بيتها، ولازم أمشي على هواها. بتعرفي، واحدة من صاحباتي ماتت أمها من فترة بسيطة. زرتها وقدمت واجب العزاء، وعلى طول طريق الرجوع للبيت وأنا أفكر كيف هو موت الأم صعب. وصلت البيت لقيت أمي واقفة بتستناني. رحت لها فورا، رميت نفسي بين ذراعيها، وقلت لها: «ماما، بحبك!» حضنتني وقالت: «ماريان، إذا بتحبيني، اسمعي كلامي». كل اللي قدرت أحكيلها ياه كان: «أمي، ما بقدر، مش دايمًا، جدّ ما بقدر».

مكتبة ياسمين

أم محمود وماريان: حوار

اتخذنا قرارنا مسبقًا -فيما نحن نقابل النسوة في دراستنا- بالتحدّث مع كل أم، وابنة، على حِدة. تنبّهنا إلى أن قرارنا هذا قد يثير الفضول -وحتى الشّكوك- لدى إحداهن حول ما يمكن أن تقوله الأخرى عنها. لكن الفائدة كانت مضمونة؛ إذ ستشعر كلٌّ من الأم وابنتها بحريّة أكبر حين تتحدث عن نفسها -خاصة فيما يخص علاقة كل منهما بالأخرى. كان التوصّل إلى هذا الاتفاق سهلا مع النسوة الأربع الأخريات اللواتي أجرينا معهنّ المقابلات؛ فكلٌّ من الأم والابنة تعيش في منزلٍ مستقل. لكن الأمر كان مثيرًا للمشكلات بالنسبة لأم محمود وماريان -اللتان تعيشان معًا. حيث تجلس معنا إحداهما -في الغالب أم محمود- لبضع دقائق بينما نجري مقابلتنا مع ماريان. وأثناء اللقاء المدوّن أدناه جاءت أم محمود منذ بداية الحوار وبقيت معظم مدة اللقاء. وما كان لقاءً مع ماريان وحدها أصبح حوارًا بين ماريان وأم محمود، وأحيانًا حوارًا ثلاثيًّا -إذا شاركهما أحدنا.

ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن تختار أم محمود هذا اليوم بالتحديد لتتدخل في جلسة ماريان مطوّلًا؛ فقد أوضحت لنا ماريان في الجلسة السابقة أنها ستطلعنا على سرّ لكن شرط ألا يتنصّت عليها أحد. تبيّن أن لها صديقًا سريًّا -كانت واثقة- لا تعرف أمّها بشأنه. اقترحنا على ماريان أن نقابلها في المرة القادمة في مقهى في القدس الغربية، فأبدت موافقتها فورًا. للأسف،

t.me/yasmeenbook

دخلت أم محمود إلى الشرفة بينما نحن نعقد هذا الاتفاق، وأشارت فورًا إلى أن المقهى ليس مكانًا محترمًا في نظرها، ولهذا فبعد عدة أيام تلقينا اتصالًا من ماريان تعتذر فيه مقترحةً تغيير مكان لقائنا القادم، على أن نلتقي في مكاننا المعتاد -بيتها. لم يدهشنا ذلك -في ضوء ما حصل -فهذا الحوار الثنائي -أو الثلاثي -أخذ المنحى المفترض له. فيما يلي مقتطفاتٌ من هذه الجلسة.

مايكل غوركن: ماريان، أشرتِ في الجلسة السابقة إلى أنك كنت تعيشين في المنزل أثناء دراستك في الكلية، لا في السكن الجامعي. هل يمكن للفتيات أن يستأجرن شققًا ليعشن بمفردهن؟

ماريان: مش على حد علمي. ولا وحده من اللي بعرفهن عملتها. هالشي مش مقبول.

أم محمود: تروح لحالها، تترك بيت أهلها -ليش؟ شوفوا، إذا كان بيت أهلها بعيد عن الجامعة وأبوها بيعرف عيله محترمه معرفه منيحه، فممكن تعيش البنت معهم، هيك منيح. أنا أجّرت الطابق التحتاني أكتر من مره لطالبات من نابلس وغزة. درت بالي عليهن متل بناتي.

ماريان: مستحيل أروح أسكن لحالي، حتى لو حسيت برغبة إني أطلع أحيانًا، ما بعملها. الناس رح يشكّوا فيي إذا عملتها، راح تكون فوق راسي علامة استفهام كبيرة، والناس تسأل: «أبصر ليش أبوها وأمها بدهم يخلصوا منها؟» ما حعرف أتعامل مع هيك وضع.

أم محمود: ماريان بتحكي حكي مهزوز، أنا راح أحكي عنها! شوفوا، إذا كان للبنت بيت أهل، فمستحيل! لا يمكن يصير! مجتمعنا بيعرف الصّح من الغلط، ونحنا بنعرف الأصول. إذا بنتي مشت في طريق الغلط، فما راح

مكتبة ياسمين

أقبل. ديننا بيدلّنا، بيوجهّنا للطريق الصحيح.

ماريان: أم محمود[1] على حق، هي صح. حقيقي، مرّات بحسّ نفسي أهرب من هون. بحسّهم بيعصروا الحياة منّي عَصِر وبيخلوني بدّي أجنّ. بس ما بقدر أهرب، وفعلًا ما بدي. بحب وجود عيلتي حواليّ.

أم محمود: العيلة ما بعمرها حاولت تعصر الحياة عصر من أي واحد منكم. لا!

ماريان: لا، ما بعيش لحالي أبدًا. ما بعرف حدا عملها في الحقيقة.

رفيقة عثمان: سأغير الموضوع قليلًا، وسأسألكما سؤالًا آخر من النمط نفسه. أنا ومايك نتجوّل معًا هنا وهناك للعمل على هذا الكتاب، كما تريان، أوصله بسيارتي. ويعرف والداي وعائلتي والجميع بهذا. لكن بصراحة، كيف تريان ذلك، امرأة عزباء ورجل يخرجان ويقومان بهذا معًا؟

أم محمود: أنا بعرف إنك بالحقيقة بتشوفيه متل أخ، أو صديق، لكن يمكن الناس التانية ما بتعرف. يمكن حدا يفكّر: «ليش بتطلع تلفّ مع هالغريب، مع زلمه غريب؟»

رفيقة: دعيني أسألك إذن، إذا سمحت لي: هل ستسمحين لماريان بالعمل على هذا الكتاب بهذه الطريقة؟

أم محمود: إذا كنت لحالي، فماشي، لكن متل ما إنتي شايفه، السؤال هو شو راح يحكوا الناس؟

ماريان: أمي، احكي اللي بتفكّري فيه. بتسمحي أو لأ؟

---

1. تلك هي المرة الأولى التي في مقابلتنا التي أشارت فيها ماريان إلى أمها بهذا الأسلوب الذي ينمّ عن الاحترام (أو ربما يخلق شيئًا من التباعد).

t.me/yasmeenbook

أم محمود: أنا بهتمّ للي بيفكروا فيه الناس. اللي ما بهمه كلام الناس ما بكون منهم. والناس راح تحكي عليها من ورا ظهرها، ويطلعوا عليها سمعه عاطلة. اللي بمشي عِدِل ما حدا بيحكي عنه. إذا -لا سمح الله- مشت البنت غلط، فالناس راح تحكي عن أمها. «شو، كانت عميا، ما كانت تعرف باللي صاير؟» هيك راح يحكوا. لهيك...

ماريان: [مُقاطعةً] أمي، آه أو لأ؟

أم محمود: لأ.

رفيقة: لكن انظري، من المستحيل لماريان -التي ذهبت إلى كليتين -ألّا تكون قد جلست مع شاب وحدهما من قبل.

أم محمود: هذا مختلف. في إطار هون؛ الجامعة هي مكان يلتقي فيه الناس. وكمان في دكاترة بيراقبوا الطلاب.

ماريان: فِكرِك الدكاترة قاعدين يراقبوا كل الطلاب طول الوقت؟ يمكن بعضهم بيراقب الطلاب -بس مو بالضبط بالطريقة اللي متوقعتيها أو اللي بدّك ياها؟

أم محمود: أوو هوو! أوو هوو! طيّب، يمكن. ماشي، أنا بشوف التلفزيون، وبعرف اللي بيحصل ببعض الأماكن. لكن شوفي، حبيبتي، أنا أرسلتك للجامعة عشان تتعلمي عن الحياة، وتتعلمي كيف تفرّقي بين المليح والعاطل. في النهاية، الله راح يحاسبني إذا اخترت الطريق الصح. وفي النهاية، كلنا راح نموت وراح نتحاسب.

ماريان: بدي أرجع لسؤالك اللي سألتيه يا رفيقة. شو بفكّر عنكم إنتو الاثنين لما بتطلعوا تلفّوا مع بعض، جوابي هو: بالنسبة لي، ما في شي غلط فيه. لكن لازم تحطّي في اعتبارك إن الناس لسانها طويل. ممكن يحكوا أشياء

مكتبة ياسمين

فظيعة عنك، ويلعنوك. غيرهم، يمكن يدعموك. في بلدنا، رفيقة -أنا بحكي بصراحة- ما راح أعملها. سامعه شو أمي بتحكي. طالما أنا عايشة تحت هذا السّقف، لازم أمشي على هواهم.

رفيقة: وإذا تزوجتِ -فلنتكلم بصراحة أيضًا -ماذا إذا كان لزوجك نفس أفكار والديك؟

ماريان: أتمنى يكون متفتّح أكتر.

أم محمود: بتفكري هيك؟ هيك بتفكّري؟ يا بنيتي، قوانيننا حتكون أسهل مقارنة بقوانينه، راح تشوفي. يمكن اللي تتزوجيه ما يسمحلك حتى تطلعي لحالك على الدكّانه تحت الشارع.

ماريان: قصدك إني راح أنتقل من سجن لسجن تاني؟ [تضحك]

أم محمود: كمّلي، اضحكي. لكن راح تمشي على هواه، أكيد. هيك بتمشي الأمور. ما راح تردّي عليه زي ما بتردّي علينا.

ماريان: [لرفيقة] بحكيلك، إنتي شعّلتي حرب اليوم في البيت من هالأسئلة.

أم محمود: الله يحرسك يا صبيّه!

رفيقة: حسنًا، دعونا نخمد النار إذن، ولننتقل لموضوع آخر.

[انطلاقًا من هذا الحد، سألنا العديد من الأسئلة اللطيفة والمسالمة. غادرت أم محمود الشرفة لمدة خمس دقائق أو ما شابه متوجّهةً إلى المطبخ، وأثناء ذلك أمسكت ماريان بطرف الحوار]

t.me/yasmeenbook

ماريان: رفيقة، بدّي أحكي عن شغله عالقه في راسي. حكينا قبل شوي عن كيف إنك حرّة تطلعي مع مايك. اللي بدي أحكيه، كيف ممكن أحكيه؟ إن الفلسطينيين في القدس الشرقية أو المقاطعات الثانية مختلفين عن الناس اللي بيعيشوا بين اليهود. هذا اللي بفكّر فيه، واللي شفته.

رفيقة: من أي ناحية ترين هذا الاختلاف؟

ماريان: تفكيرك مختلف عن تفكيرنا. بقصد، العيش بين اليهود خلّاك تغيري نظرتك للأمور، ولتصرفاتك.

رفيقة: اضربي لي مثالًا؟

ماريان: ماشي، مثلًا؛ بفكّر في كمّن سِتّ عربية بعرفها من شمال «إسرائيل». متفتّحات أكثر. في مدرستي، كانت بعض المعلمات من شمال «إسرائيل»، من الجليل. هلّأ، إذا مديرة المدرسة انتقدت أي وحده منهن، فالمعلمة يمكن تدافع عن حالها، ويمكن تردّ عليها. أما المعلمات من القدس الشرقية فمستحيل يردّوا عليها، ولا يحكوا كلمة. السّتّات من الشمال ما بيخافوا.

رفيقة: أي مثال آخر؟

ماريان: آه، الشباب. بالنسبة إلنا، إذا البنت بدها تعرف شاب، عشان هيّ تبدأ معه، فما راح يكون عندها شجاعة تعملها. البنات العربيات اللي بعرفهن من «إسرائيل»، عادي عندهم. متل، لما بدأت أشتغل في المدرسة وكان في زميلة لي من شمال «إسرائيل». كانت بتدرس مساقات في نفس الوقت بالجامعة العبرية، وكان في شاب هناك حكالها إنّو بدّو يتعرف على بنت من القدس الشرقية. إجتني وقالت مباشرة: «ماريان، بدّك تقابلي هذا الشاب؟» كانت بدها تزبّطنا لبعض. ماشي، أنا ما بعرف حدا ممكن يعمل

مكتبة ياسمين

هيك في القدس الشرقية، خَبط لَزق. هون مشان تقابلي الموضوع مختلف، معقّد. لازم يحصل بالسّر، باللّف والدّوران. ما فيكي تقابلي شاب في مكان عام بالطريقة اللي بيعملوها السّتات العربيات في «إسرائيل».

رفيقة: الحال ليس هكذا تمامًا بالنسبة لنا.

ماريان: شوفي، أنا بعرف ستّ عربية في «إسرائيل» حكتلي إن هذا الشاب اللي بتطلع معاه قابلته في مكان عام. وبتعرفي شو؟ أهلها بيعرفوا عنه، بيعرفوا كيف قابلته، وما عندهم مانع. أهلي، هل ممكن يوافقوا على شي متل هيك؟

رفيقة: ما تصفينه ينطبق على العرب المسيحيين أكثر مما هو منطبق على العرب المسلمين، وينطبق أكثر على العرب المدنيّين من نظرائهم القرويين.

ماريان: يمكن. إنتي بتعرفي أكتر منّي. أنا بحكي عن اللي بعرفهم، شوي من أصحابي. اللي بعرفهم من شمال «إسرائيل» عرب مسيحيين، صحيح.

رفيقة: النساء العربيات اللواتي أعرفهن لسن متحررات كما تقولين، صدّقيني...

[رجعت أم محمود من المطبخ عند هذا النقطة، وتوقّف النقاش حين أعلنت أن الطعام الذي حضّرته سيكون جاهزًا بعد عشر دقائق أو ما شابه، وبعد أن جلست تابعنا.]

مايكل: ماريان، هل لك أن تتابعي بأسلوب أعمّ. بالنّظر إلى الثقافة الغربية عامّة - لا «إسرائيل» فحسب - ما التّأثير الذي رأيته على الفلسطينيين؟ وإذا ما كانوا قد تأثّروا، أهو تأثيرٌ إيجابيّ أم سلبيّ من وجهة نظرك؟

ماريان: أتكلّم بشكل عام، من وجهة نظري فللغرب محاسنه ومساوئه. مثلنا. الأنسب لنا إنّو ناخد المنيح من الغرب ونترك العاطل. مثلًا، في

t.me/yasmeenbook

الغرب، أنا بحكي عن أوروبا وأمريكا، هناك بيعرفوا كيف يشتغلوا، كيف يلتزموا بالوقت، كيف يصفّوا على الدور. أما نحنا فلأ. ومعظم هاي الدول الغربية، عندها معايير نظافة عامة عالية. شوارعهم، أحياؤهم، نظيفة جدًّا. هنا، كل واحد منّا مهتم ببيته وممتلكاته، وبس. وكمان، الناس في الغرب ما بتفاخروا بحالهم، إنما متواضعين. عنّا هالشّي نادر. إذا أخد واحد الدكتوراة أو صار غني، بيشوف حاله على الكل. ليش ما ناخد من الغرب شوي من هالأمور المنيحة اللي عندهم؟

أم محمود: والبنات اللي بالغرب، بناتنا لازم يصيروا متلهن؟ شوفي البنات «الإسرائيليات»، البنات اللي على التلفزيون. طريقة لبسهن، تصرفاتهن...

ماريان: [مُقاطعة] كنت لسّه بدي أحكي. بعض الشباب بيوخدوا الشّغلات العاطلة من الغرب قبل المنيحة. الغرب عنده حريّة بزيادة، حرية بلا حدود. النساء الغربيات تجاوزن الحدود بالأزياء، وتصرفاتهن خرجت عن السيطرة. بعض بناتنا، وشبابنا، بيقلدوهن. هالشّي، أنا ضدّه.

أم محمود: يمكن في بنات بتمشي كاشفات متل الغربيات، بس قليلات. شويّ. معظمهن بيعرفن كيف يحافظن على عاداتنا. هذا اللي بعمله، وما بحتاج أمشي على طريقة أي حدا تاني.

ماريان: أم محمود بدها كل حد يمشي على عاداتنا، وهذا مش صح كمان. إحنا كمان عنّا المنيح والعاطل.

أم محمود: متل شو؟ ما عنّا إشي عاطل.

ماريان: مليون شغله، متل اللي كنت بحكيها قبل شوي. شوفي، أمي، إنتي عارفة. معظم العائلات منعت بناتها عن الدراسة، والروحه للجامعة.

مكتبة ياسمين

أم محمود: شو، إحنا ما بنخلّي بناتنا تدرس؟

ماريان: بنخليهن. بس غيرنا لا.

أم محمود: خواتك درسِن. إنتي رحتِ الجامعة، جامعتين. بدّك تدرسي أكتر، ماشي. جيبي منحة وروحي أمريكا وهاتي شهادة الدكتوراة، روحي! وقلبي داعيلك، روحي!

ماريان: ما بعرف عن الدكتوراة. ممكن. لكن مش هذا قصدي...

مايكل: فلأسألك سؤالًا يا ماريان. من ترينها قدوةً للنساء الفلسطينيات؟ أهي من الغرب أم من هنا؟

ماريان: الاتنين، يمكن. ما فيني أحكي المرأة الأمريكية أو المرأة الفرنسية هي القدوة. أو حتى المرأة العربية. ما في حدا كامل. أنا بحاول أتعلم من الجميع.

رفيقة: ماذا عن حنان عشراوي؟[1] ما رأيك فيها؟

ماريان: قدوة وممثل منيح إلنا. متعلمة وماهرة. لما بتحكي مع الأمريكان، بتحكي بطريقة مناسبة، أحسن مليون مرة من عرفات. بتعطي انطباع منيح عنّا. أخوي في أمريكا حكالي إن عن صديق أمريكي حكاله: «إذا كان عندكم نساء فلسطينيات كتار متلها، فإنتوا في أحسن حال». بس أنا مو متلها، أبدًا مش بذكاءها.

رفيقة: ورأيك، يا أم محمود؟

أم محمود: منيحة. قدوة حسنة. ليش لأ؟

---

1. حنان عشراوي كانت المتحدث الرسمي للوفد الفلسطيني أثناء مباحثات السلام الفلسطينية -«الإسرائيلية» في العاصمة واشنطن، ومدريد. والفلسطينيون يقدّرونها ويحترمونها.

t.me/yasmeenbook

رفيقة: حسنًا، بصراحة، هل تمانعن في رؤيتها على التلفزيون تقبّل عرفات على خده؟ هل تقبلين لماريان أن تفعل مثلها؟

ماريان: أنا لن أقبل!

أم محمود: شفت ستّ من غزّة على التلفزيون ركضت على عرفات وحاولت تبوسه. مجنونة، هيك فكّرت. لما كنت في أمريكا في بيت ابني، زاره صاحبه الأمريكي. إجالي وكان بده يبوسني. هيك عاداتهم أعتقد. حكيتله: «نو، نو، خليك بعيد!» الناس التانيه شرحتله بعدين إن هاي مش طريقتنا.

ماريان: رفيقة، لما قلت إني أتخذ من حنان عشراوي قدوة حسنة، فما كان قصدي في كل شي! لكن شوفي، إذا هيّ بدها تبوس ياسر عرفات، فبكيفها. هي موافقة، زوجها موافق، زوجة عرفات موافقة، مين أنا لحتى أعارض؟ لأ؟

أم محمود: شوفوا، ما في حدا هون بدّه ياكل إشي؟ أنا متأكدة إن الأكل صار جاهز.

[ذهبت أم محمود وماريان إلى المطبخ لجلب بعض الكوسا المحشية والتبولة وسلطة برغل.]

ماريان: التّبولة، أنا عملتها. والكوسا المحشية عمايل أمي. طبّاخة حقيقية، أنا بالنسبة لها مجرد هاوية.

أم محمود: هاي مقبّلات. إن شاء الله بتيجوا مرّة تانية وبحضرلكم أكل مرتّب. متل المقلوبة، هاي أكلة حقيقية. مش زي الهوت دوغ أو الهامبرغر أو البيتزا. بيجي يوم وتجربوا مقلوبتي، إن شاء الله.

ماريان: طيّبه. أمي جدّ بتعرف كيف تحضّرها...

مكتبة ياسمين

أم محمود

كان للحوار الذي سجلناه بين أم محمود وماريان تأثيرٌ سلبيٌّ على أم محمود. في الحقيقة، بدا للحظةٍ أنها لن تستمرّ معنا باعتبارها جزءًا من دراستنا، دون حثّ ماريان لها، ساورنا اعتقادٌ أنها كادت تكفّ عن المشاركة. لكنها بعد شهرين وافقت على لقائنا مجدّدًا، وهكذا أجرينا لقاءين آخرين معها. من جهتنا حاولنا تجنّب المواضيع التي قد تضايقها -خاصّةً العلاقات بين الجنسين- وباستثناء بعض اللحظات القليلة العصيبة -عندما استفسرنا عن وجهات نظرها السياسيّة- فقد مرّت مقابلتانا لها بسلاسة.

فيما يلي إذن نستعرض آراء أم محمود عن حرب يونيو 1967، وآراءها في السياسة، والدين، ورحلتها إلى مكة وواشنطن، وفي ابنتها ماريان كذلك.

أنا اللي اخترت اسم بنتي الأخيرة. قبلها كانت حماتي تختار أسماء الصّغار. الله يرحمها. لما ولدت ماريان كانت حماتي مريضة، قبل وفاتها مباشرة. ولهذا اخترتُ أنا الاسم. لما خبّرتها بالاسم ظلّت تقول لي: «احكيلي مرّة ثانية، مو عارفه ألقُط الاسم.» جَد، ما بعرف شو اللي جاب اسم ماريان على لساني. لم أسمع عنه من قبل. الناس بتيجي تحكيلي «كيف اخترت اسم متل هيك؟ هذا اسم مسيحي.» زوجي ما حكى ولا شي. كل أسماء أولادنا الآخرين أسماء

t.me/yasmeenbook

عربية. ليش إجاني اسم ماريان، ما عندي فكرة. إجالي وخلص. حبّيته وقتها ولسّاتني بحبّه لليوم.

٨

بعد سنه من ميلاد ماريان -أظن- اشتعلت الحرب. ولدتها سنة 1966م، صح، والحرب بدأت سنة 1967. كانت حربًا قصيرة، دوب كمّن يوم. لكنها كانت حربًا عنيفةً جدًّا، وخطيرةً جدًّا. دار فيها قتال عنيف حوالينا.

بتذكّر منيح الحرب لـمّا قامت. بدأت بالضبط قبل الظهر. سمعنا صوت صفارة الإنذار في الراديو، وسألت: «شو بصير؟» فجاوبني حَدا: «في حرب، اليهود هجموا وجايين يهجموا علينا». لم أتوقّع حربًا. مش بهذاك الوقت، ومش فجأة. الوضع ما كان متل سنة 1948 لما كنتي تحسّي فيها جاية شوي شوي. هالمرة بدأت، بوم! هيك.

ما صحّلي وقت أحضر أيّا شي. مش متل 1948. ما كان بإيدي شي أعمله تقريبًا. اللي حصل كان، بالضبط قبل ما يدوّي صوت الصفارة، كنت بالمطبخ أحضّر مقلوبة. صمّمت أطبخها ليكون عنّا إشي نأكله على الأقل. قليت الدجاج وحطيته في الطنجرة. كنت مرعوبة ومزعوجه لدرجة نسّتني قلي الباذنجان، وطبختها بالجاج والرّز، وما طلعت مزبوطة، متل ما بحكيلك.

لما اطلّعت لبرّه شفت الناس بتهرب من بيوتها. صرّخ حدا عليهم: «شو، بدكم تعملوا اللّي عملتوه في الـ48؟ ارجعوا، لا تهربوا!» بحلف، ما حدا سمعله، كانوا بيرحلوا. هدول الناس، منهم اللي راح مَشي لوصل عمّان على رِجليه. منهم من أخواني وزوجاتهم، وخواتي وأزواجهم، ووحده من

مكتبة ياسمين

خواتي وحماتها، راحوا عمّان على رجليهم. كثرٌ فعلوها، ومنهم من قُتِل على الطريق. ما كانوا من أهلي، من غيرهم. يا ربّي، كانت أيّام صعبة!

طلّع زوجي راسه ليشوف، وشو شاف؟ واحد من جيراننا، مقتول. إجته طَلَقه. راح زوجي ليسحبه لجوّا فصرّخ جارنا المسيحي اللي تحت على الحاج: «يا حاج، شو بتعمل؟ راح تقتل حالك إنتا كمان. اليهود جايين بسرعة. جمّع عيلتك وروحوا على الكنيسة.» كان عندنا كنيسة قريبة منّا، وبيننا وبين المسيحيين وفاق. التفت زوجي لي وطلب مني أن أجمع أولادنا. حكيت: «ليش نروح؟ خلينا نظلّ. إذا كان مكتوبلنا نعيش فراح نعيش في بيتنا». سكّتني زوجي: «روحي، روحي يا مَرَه! اليهود جايين بسرعة!» وهيك رحت. وأنا رايحة، الأكيدة منّه هو إني شفت الناس بتهرب من البيوت اللي حوالينا، والجنود اليهود بيدخلوا بيوتهم. الوضع كان فظيع، كأن القيامة بتقوم. كلّ واحد نفسي نفسي. أخذت أولادي والمقلوبة وركضنا على الكنيسة.

لما وصلنا الكنيسة، ما كنا لحالنا هناك. كان في حوالي ثمانين غيرنا. ناس فوق بعض. حاولت أرتّب لنا مكان ما لقيت غير الممر. حوالينا كبار وصغار، قاعدين، ممدّدين. لكن على الأقل عنّا مكان نقعد فيه. ما شفنا شي طبعًا. كنا نسمع صوت الطيّارات من فوق روسنا وأصوات ضرب النار، بنادق ثقيلة، يمكن دبابات، حوالينا. ما كنا عارفين شو راح يحصل فينا. واحد فقط -الكاهن -كان معه راديو. رايح جاي يبلغنا بالأخبار، لكن من يعرف النهاية؟

قعدنا حوالي خمسة أيام. أعتقد أن الحرب استمرت ثلاثة أيام لكننا قعدنا خمسة. حالة الأولاد بؤس، كلهم. ماريان قضت وقتًا صعبًا. كان عمرها سنة واحدة فقط. وضعتها على الأرض لتنام في أول ليلة، وشو حصل؟ بنت

t.me/yasmeenbook

جارنا إجت ومَشت على بطنها. قسمًا بالله، الوضع كان بخزي. أول يوم أو يومين كانوا مرعبين ما حدا أكل فيهم. الرجال كانوا بيدخنوا بس. بعدها، أكل الناس ما معهم. ومقلوبتي اللي ما كانت مزبوطة أصلًا، وكانت ريحتها طالعة، والزّر لازق ببعضه متل الصمغ. لكن ما همهم، الناس مسحوها مسح. مش أنا. أنا ما لمستها. ما قدرت آكل لحدّ ما رجعنا على بيتنا.

لما رجعنا، انصدمنا. بيتنا انضرب بأكثر من قنبلة ضخمة. لقينا فجوات بكل مكان. الثلاجة اتدمّرت، والدرج اتهدّم، وفي غرفة نومنا بالضبط كان في جورَه كبيرة من أثر قنبلة. لكن، الله كريم، ظلّينا كلنا عايشين. لو ما رحنا على الكنيسة، فالله أعلم شو كان صارلنا. البيت، ماشي، بنيناه قبل من ولا شي، وبنقدر نبنيه مرة تانية. كان وما زال بيتنا. ما هربنا، وبقيلنا. الناس التانية، اللي هربوا، شو ظل إلهم؟ قاعدين في الأردن ربّك العالم وين، وما بعرفوا مصيرهم. بعض الناس حكت إن اليهود راح يروحوا وساعتها بيرجعوا. غيرهم حكى لا، اليهود ما راح يخلّوهم يرجعوا. أنا، ما بعرف. ما عندي فكرة. هلّأ بس بنشوف الحاصل. كم صار إلها، بعد خمسة وعشرين سنة؟ حتى أكتر. اليهود ضلّوا هون. الله أعلم لمتى راح يضلّوا.

بدكم تعرفوا بشو بفكّر عن، كيف هذا؟ عن «الوجود اليهودي» هون؟ شوفوا، أنا ما بفضل الحكي في السياسة. ما بحب السياسة. وزوجي ما بحب السياسة، ولا الحكي فيها. الحكي بالسياسة بجيب لي صداع.

المستوطنات اليهودية القريبة منّا، شو رأيي فيها؟ بحكيلك ياها هيك. إذا سرق واحد قميصك اللي لابسه، كيف بكون شعورك؟ من خمس، سبع سنين فاتت إجو اليهود لهون. أخذوا هاي الأرض، كانت لعيلة تركوا

مكتبة ياسمين

الأرض في حرب 1967. لما كانت الأرض خالية هديك الأيام، إجو شويّة بدو مع غنماتهم وأخدوها. بعدها إجو اليهود وطردوا البدو منها. ادّعى اليهود أنّ أصحاب الأرض في أمريكا أجّروها لهم. الناس هنا حكت أن ما حصل هو أن صاحب الأرض الأساسي -كان رجلًا غنيًّا- مات. رغم أن بعض الملاك الآخرين ما زالوا موجودين، واحد منهم ساكن في الحارة، حكوا أنّ زوجة الرجل الغني أجّرت الأرض لليهود. إحنا، الناس اللي ما زالت عايشه هون، بنحكي عن هدول اللي بيأجروا أملاكهم لليهود، وبنقول عنهم: «الله يخرب بيوتكم!» بحكيلكم، هاي الأرض أحسن أرض بالمنطقة. ما أحسنها من أرض! من سنين كنا متعودين نروح نقعد تحت الشجر. الهوا فيها بيلعب فيك لعب. هلّأ مين بيقدر يروح؟ لا بنقدر نروح ناحيتهم ولا همّا ييجوا ناحيتنا. لكن شوفوا، خلّي اليهود ياخدوا اللي ياخدوه. إذا الدنيا ماشيه متل ما الله رايد إلها، فكل واحد راح ياخد جزاته في النهاية. لكلّ أجل كِتاب، هيك بحكي. ما حدا بياخد شي معاه لما يموت. ما بروح الجنّة إلّا اللي بيستاهلها. في سورة في القرآن بتقول: «وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.»[1] بنقدر نعمل شي ضد إرادة الله؟ لا، مستحيل.

خذي، شوفي شو صار من كام سنة فاتت لواحد من جيراننا. كان في زيارة لحدا مريض. كان بدّه يروح وحكوله: «بدري، خلّيك، اشرب فنجان قهوة». لكنه حكالهم: «لا، لا، أنا مستعجل، ما بقدر أستنّى للقهوة». يا دوب طلع من عتبة الباب حتى دهسته سيارة. انتهى، هيك. نصيبه، الله كتبله متى ينقضي أجله. أنا على حقّ، وللّا مش على حق؟ أحكي لكم قصّة ثانية. حصلت مع ابن سِلفي. كان عايش بالكويت. سعيـــــــــد! جيبه مليان فلوس. غني، غني. عمل كل اللي نفسه فيه، وراح وين ما بدّه.

---

1. سورة البقرة. الآية رقم 17.

t.me/yasmeenbook

يوم في أمريكا، ويوم في باريس. طول الوقت يلفّ هون وهون. وبعدها صارت حرب في الكويت. بقي هناك لآخر دقيقة، هرب من فكّ الموت في آخر لحظة. عاش، آه. لكنه عايش حاليًا بالأردن من غير ولا دينار. مريض، تقريبًا شبه ميّت من يوم ما حصل اللي حصل، يا دوب عمره خمسة وأربعين سنة. قبل الحرب كان يدير باله على خوانه، وهلّأ همّا اللي دايرين بالهم عليه. الدنيا دوّاره. وبالأخير ما في غير الموت، والواحد لازم يمشي على الصراط المستقيم. هذا كلامي. في الأخير الله اللي بيحدد مصيرنا كلنا.

شو أحكيلكم كمان؟ الانتفاضة، كيف بشوفها؟ بتسألوني ولا كأني ياسر عرفات. ما بعرف. تحكي الناس أنها جيّدة لأن نتائجها جيّدة. قادة الانتفاضة يقولون هذا الكلام. استرجعنا غزة وأريحا، وسنسترجع أكتر. هيك بيحكوا، والله وحده العالم. هل راح نصير كلنا هون مسلمين في يوم من الأيام، أو اليهود راح يخلّونا نصير كلنا يهود؟ الله وحده العالم شو راح يصير. اللي بشوفه، في ناس بلا شغل وما عندهم شي يطعموا ولادهم بسبب الانتفاضة. وناس كثير بالسجن. الانتفاضة منيحة؟ ما بعرف. أنا، كل اللي بدي ياه إننا نعيش متل ما اليهود عايشين، ما حدا يعيش أحسن من حدا، مثلما كنّا أيام زمان. كل واحد لازم يعيش حياته. إن شاء الله يصير. لكن أحكيلك، خلّينا نحكي في شي تاني. السياسة بتجيبلي الصداع.

٨

سأحكي لك عن رحلتي إلى أمريكا. رحلات إلى أمريكا، ذهبت مرّتين. واحدة من ثلاث عشرة سنة، رحت لأربعين يومًا. الثانية من خمس سنوات، رحت لثلاثة أشهر. عندي ثلاث أولاد في واشنطن. وابنة في أمريكا، تعيش في مكان نسيت اسمه. في المرتين رُحت إلى واشنطن.

مكتبة ياسمين

رحت من غير زوجي. رفض الذهاب. قال لي: «حتى لو كانت أمريكا مش أبعد من باب العامود[1]، برضه ما بدي أروح». هو غير مهتم بالسفر لأماكن جديدة، حجّينا. ما بقدر يضل قاعد بمطرحه، لازم يلف ويدور في حوشنا. بيزرع، بيبذر، بيرش الزرعات. لازم يشغل حاله بشَغله. إذا ما كان بيشتغل، فبيصلّي. بيحبّ يصلّي. بيضلّ قاعد بالمسجد يصلّي لوقت متأخر بالليل، خصوصًا في رمضان. للمسجد، هذا المكان الوحيد اللي ممكن يروحه. حتى إني ما بقدر أخليه يروح ياكل برّا ببيت حدا تاني. ما بيحب غير طبخي. وَفي إلي، هاي هيّا. متل ما بيقول الله في القرآن: «الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات»[2]. وإذا ما كنت امرأة طيبة فكان زوجي ساعتها راح يطلع خبيث. لكن، الشّكر لله، طلع زوجي حلاوة طحينية، حلو متل الحلاوة الطحينية. ولا بعمره مد إيده عليّ، ولا عمل شي خلّاني أحرد في دار أهلي، ولا زعلني زعله كبيرة. لأكثر من خمسين سنة عشنا سوا وكانت عيشة متل الحلاوة الطحينية. والله، كان هيك.

لكن السفر لأمريكا معي، لا، لا. زوجي تركني أروح لوحدي. في المرة الأولى كنت خايفه شوي، دعيت الله أجد في الطائرة من يتحدث العربية على الأقل. ما كان لي حظ، بقيت لحالي. حاولت امرأة لطيفة التكلّم بالإنجليزية معي، بعدها جرّبت لغة الإشارة. الله رحمني برحمته حتى وصلت نيويورك. هناك كانت مضيفة تتوقّع حضوري -على ما أعتقد- شرحت لي كيف أركب سيارة أجرة بثلاثة دولارات، وما أعطيه أكثر حتى لو طلب الضّعف. ركبت في سيارة الأجرة قرب الباب مستعدة للقفز منها إذا صدرت أي حركة غريبة من السائق. لما وصلنا المطار في الأخير، قال لي بلغة الإشارة إنّي مدينة له بستة

---

1. باب العامود، بوابة دمشق، هي مدخل كبير من المداخل الشمالية لمدينة القدس القديمة.

2. سورة النور. الآية 26.

t.me/yasmeenbook

دولارات. صحت في وجهه بالعربية: «ثلاثة دولارات كلّ اللّي راح توخده، بدّك ياهن أو بلاهن!» ثم خرجت. أخذ رجلٌ أسود حقائبي، وفجأة كان ابني واقفًا هناك. شعرت حينها بالأمان. ركبنا طائرة أخرى -أصغر- وطرنا إلى واشنطن. طوال الرحلة وأنا أنظر للأسفل، كنت مرعوبة. لكنني مؤمنة بالقدر، وإذا ما كتب الله لي الوصول سالمة فسأصل.

وصلت. سكنت في بيوت أولادي -الأول ثم الثاني. لا يمكنني القول إني تعودت على أمريكا. هون القدس بتصير شوي شوي متل أمريكا، وصعب الواحد يتعود عليها كمان. واجهت مشكلة كبيرة في المحلات بسلالم متحركة. ضلّيت أقع كل ما أصل فوق. وبعدها فهمت كيف أركبها. بمجرد ما رجلك تاخذ الخطوة الأولى الكبيرة فأمورك تمام. وكمان الأكل الأمريكي؛ الهمبرجر، الهوت دوغ، وغيره، ما قدرت آكله.

المطعم الوحيد المنيح الذي ذهبنا إليه كان مطعم ماما عائشة. مطعم في واشنطن -أو كان حينها- لأن ماما عائشة ماتت الآن. ماتت بعمر تسعين سنة، أو متل هيك. بتكون بنت عم إلي من هنا. سافرت لأمريكا كبيرة، حملت حالها ورحلت. راحت لتكون مع قرايبها، لكن ما استقبلوها منيح. دبّرت حالها وتزوجت ولما مات ترك لها شويّة مصاري، وبهالمصاري فتحت المطعم. زاكي! أكل متل أكلنا هون. محشي ورق عنب، محشي كوسا، ملوخية، وبامية بالصلصة. أكل رهيب. لم تسمح لي بدفع ثمنه لأني بنت عمها. كانت غنيّة طلّعَت ملايين. حتى أنها تركت سيارتها وسائقها تحت تصرّفي. أخذني في جولة حول واشنطن لرؤية مبانيها. كان ذلك لطفًا منها.

مع هذا، فمعظم الوقت الذي قضيته كان مملًّا. بالذّات في سفرتي الثانية عندما قضيت هناك ثلاثة أشهر. معظم الوقت كنت متروكة لوحدي في البيت. يشتغل الأمريكان باجتهاد. وعندهم عطل كثيرة، وهذا جيّد. لكن

مكتبة ياسمين

كيف بيشتغلوا! بيصحوا الصبح ويسوقوا لشغلهم و -أقسم بالله- بيطلعوا بسياراتهم شايلين القهوة والشاي معاهم. متخيلة؟ بالنسبة لي هذا ملل، بحكيلك. حاول ابني يبسطني، حكالي لازم ألبس بنطلون. يمكن كان بدوّ ياني أبان متل النسوان الأمريكيات، ما بعرف. حكيتله: «شو، بتفكّرني جنّيت؟ أنا بلبس ثوب.» وهذا اللي لبسته، متل ما بلبس هون. ثوب بسيط مطرز بالورود للبيت، وثوب مطرز أسود للطّلعَه. لن ألبس مثل الأمريكيات لأني سافرت عندهم.

حاولت أشغل حالي بالفرجة على التلفزيون شوي، يا دوب شوي. بيت حاتم ما كان ممل متل بيت خليل. حاتم ساكن جمب المطار وبيته بيطل على أربعة شوارع. اتعودت أقعد في المصطبة أراقب الرايح والغادي من سيارات وطيّارات وناس. ما كان ممل فعلًا، والأكل كمان أحسن في بيت حاتم. هو وزوجته طبخهم عال العال. فأكلنا منيح هناك. إلّا مرة وحده، هاي آخر وجبة أكلتها بأمريكا. قبل ما أروح للمطار. إجتني حفيدتي وحكتلي بهذاك اليوم: «يا ستّي، بدك تروحي قبل ما تجرّبي البيتزا تاعتنا. لازم تجربيها!» ركض ابني وجاب بيتزا ورجع. أنا، كنت بحلم بالرّجعة على بيتي وهمّا بيحلموا بالبيتزا. وهيك قبل ما نطلع على المطار أكلنا بيتزا. ما راح آكلها بعمري مرّة ثانية. هلّأ في القدس الشرقية صار عنّا هاي البيتزا الأمريكية. ابني اللي بيعيش في الشقة تحتي بيجيبها لأولاده. مش إلي. أنا بحب الخبز العربي اللي شكله متل البيتزا، مع زيت الزيتون والزعتر. خلّوا البيتزا الأمريكية بعيد عنّي، شكرًا.

الله مَلا العالم بالخَلق، وسنحت لي الفرصة ورأيت منهم ما رأيت. بالإضافة لرحلتي لأمريكا، ذهبت الكويت والأردن والسعودية. ذهبت للسعودية للحج. زمان سنة 1984م. هاي الرحلة هي اللي بتعنيلي كثير.

t.me/yasmeenbook

الشكر لله إني عشت لأدّيت فريضة الحج. أبوي وأمي أدّوها الاثنين، وبتمنى ولادي يحجّوا كمان. هاي فريضة، متل ما بتعرفي. على كل مسلم قادر على الحج إنّه يحجّ.

المرأة لا تؤدي فريضة الحج لوحدها، يجب أن يكون معها مَحرم، رجل من العائلة، إن لم يكن زوجها فأحد محارمها. قد يكون ابنها أو أخوها. أنا، رحت مع زوجي. هذه هي المرة الوحيدة اللي رضي فيها يعتّب أبعد من باب العامود! كان بيتمنّى هالرحلة متلي بالضبط. كل مسلم مؤمن بيتمنّاها إلها.

سافرنا في الصيف، هذا أصعب وقت للسفر. والسعودية كالفرن في الصيف. أولادنا -الله يحميهم- أصرّوا على سفرنا بالطائرة. الجدّ، فكّرت أنّ السفر بالسيارة أحسن. بتشوفي مناظر أكثر، والواحد حُرّ يروح ويرجع وقت ما بدّه. رحنا بالباص للأردن، وعبرنا جسر اللّنبي، وبعدها طرنا إلى السعودية من عمّان.

شو ممكن أخبرك؟ عملنا اللي بعملوه الناس. للحج مناسك. الطواف حول الكعبة سبع مرات، والوقوف بعرفة مثلما وقف سيدنا إبراهيم في وجه عبدة الأوثان، ورمي الجمرات في مِنى، والتضحية بعدها بشاة، لأن إبراهيم كاد أن يذبح ابنه إسماعيل ففداه الله بكبش. عملنا كل المناسك. أراد زوجي استئجار عربة للطواف حول الكعبة -لأنه مسموح- لكني قلت: «لا، خلينا نمشي». أقسم بالله إني ما شعرت بتعب. الله أعطاني القوة، حتى الزلمة المريض بيصحّ وقت الحج. أنا وزوجي دِرنا بالنا على بعض. جدّ، دِرت بالي عليه. في مرّة، كنّا قريب نموت. كنا بطريقنا لرمي إبليس بالجمرات، والزحام كان شديد. حكولنا ما نروح على شارع ضيّق هناك -بيسمّوه شارع الموت- لأن أي حدا بيوقع هناك الناس بتدوسه في الزحام وبيموت. حكى زوجي «مش مهم». وصار بدّه يروح على هالمكان الضيّق، لكنّي سحبته ورحنا من طريق

مكتبة ياسمين

ثاني أسلَم، ويمكن أنقذت حياتنا. في النهاية ضحّينا بخروف، اثنين. شعرت بالراحة هناك. الواحد بيحس إنه قريب من الله في الحج. كل سنة وراها، لما ييجي موسم الحج، قلبي بيحنّ للحج مرّة ثانية. الله أعلم إذا بنقدر نروح مرّة ثانية. حتى الآن، «الإسرائيليين» بيسمحوا لكل واحد يروح مرّة وحدة، بس.

الجزء العاطل من الرحلة هو الرجوع من جسر اللّنبي. بحكيلك، الشغلة الوحيدة المنيحة اللي طلعت من الاتفاقية بين اليهود والفلسطينيين هي إن عبور جسر اللنبي ما عاد كابوس بالنسبة لنا. الأمور صارت أسهل. بنتي إجت من كام يوم تزورنا -لا تفتيش حقائب، لا تفتيش جسدي، لا ذلّ. لكن قبل كان منيَّل. الرّوحه على أمريكا لحالي بالطيارة من غير ما أعرف حدا أسهل من عبور جسر اللّنبي. اليهود بيعرفوا كيف يذلّونا. لما رجعنا من الحج، تركونا نستنّى تحت الشمس. كلنا لازم نخلع أحذيتنا ونتركها في مكان محدد. ونرجع بعدها ندوّر فردة مين لمين. طبيعي تنتهي المسألة بإن الناس تتخانق مع بعضها. ذل، ذل من الآخر. بيخلوكي تروحي على غرفة تفتيش وبيفتشوا جسمك. هاي البنت الشرطيّة خلتني أروح مرتين على الغرفة، وفي المرتين أرسلتني من غير ما تفتّشني. وفي المرتين تصرخ عليّ: «اطلعي من هون، ارجعي لهناك!» فكّرت اليهود بيحترموا الناس الكبار. على الأقل إذا ما بدها تحترمني عشانّي عربية، فتحترم سِنّي. ما بعرف ليش كانت تختارني. لليوم بلوم حالي لأني ضليت ساكته وما ردّيت عليها. ما كان لازم أسمح لها تهينني هيك. لكن على كل حال، انسي. أحكيلك، ولا شي ممكن يخرّب الحج بالنسبة إلنا. بحمد الله إنو عطاني القوة وخلاني أعمل هالرحلة أنا وزوجي -حجّينا -سوا.

بعد الحج أجريت بعض التغييرات. قبلها ما كنت أجد وقتًا لأداء الصلوات. لما كنت بِنت تعوّدت أصلي صلواتي الخمس. وبعد الزواج ومع ولاداتي لكل أولادي، لقيت حالي دايما مشغولة. والدي كان يخانقني على

t.me/yasmeenbook

تركي الصلاة، وكنت أردّ عليه: «يابا، برجع بصلّيها -إن شاء الله». وهَيني رجعت أصليها. في هذه الأيام أشعر كأني أفقدُ توازني إذا فوّتُ أيّ صلاة من الصلوات الخمس في اليوم، كأني أفقد شعوري بإنسانيّتي. بمجرد ما تبدئي الصلاة لأربعين يوم ورا بعض بتصير عادة عندك. صعب أصلّي على ركبتي. ركبي بتوجعني. الدكتور حكالي لازم أخسّس وزني، لكن هذا مش السبب. ركبي بتوجعني بس. لذلك بصلّي قاعده، هيك بعمل. المهم إنك تصلّي.

كمان، في الفترة اللي رحنا فيها الحج بدأت أصوم رمضان من جديد. صُمت الشهر كله، هذا فرض. الحقيقة، أصوم أكثر من هذا الآن. أصوم الإثنين والخميس كمان. النبي -اللهم صلي وسلم عليه- كان يصوم الإثنين والخميس طول السنة. الآن أصوم هذين اليومين في الشهرين اللذين يسبقان رمضان. مش فرض، لكن إشي منيح تعمليه. هذا اللي بحكيه لأولادي. كلهم بيصوموا وبيصلّوا. خليل -ابني في أمريكا- ما كان يصلي لكنه صار يصلي. حكى لي إنه حلم في ليلة إن المؤذّن بيناديه للصلاة. حلم نفس الحلم بالليلة اللي وراها، حدّثته نفسه أنها إشارة ليصلي. فتوضأ وصار يصلي من يومها، وكمّل بعدها. كل أولادي اللي بأمريكا مسلمين وبيصلّوا. يوم الجمعة المسجد اللي بواشنطن بيكون مليان مصلّين متل الأقصى عنّا. بحمد الله إن أولادي الله هاديهم كلهم. الوحيدة اللي ما بتصلي هي ماريان. بتصوم رمضان، لكن ما بتصلّي. بتحكيلي: «يمّه، إن شاء الله، راح أصلّي». بتمنى الله يهديها. يمكن تكون متلي.

شو هالدنيا وشو هالحياة اللي عايشين فيها؟ دوبها لحظة من الخلود. يوم القيامة جاي علينا كلنا، ولازم تمشي على الطريق القويم. مبارح بس زرت قبر أمي. أوّل مرّة من أربع سنين أروح هناك. كنت في زيارة لجارتنا وقررت الذهاب. أمي -أمي حبيبتي- بطّلع على المراية هالأيام، قسمًا بالله، بشوفها

مكتبة ياسمين

فيها. صرت أشبهها على كَبَر، لكنها كانت أجمل منّي. ماتت وعمرها خمسة وثمانين. من كام سنة بس. قرأت على قبرها الفاتحة. قرأتها هناك، لكن ما بهم وين تقرئيها، ثوابها بيروح للميّت وللي بيقرأها سوا. الله بيشملنا برحمته. بحكي للأموات هناك: «الله يرحمنا برحمته، أنتم السابقون ونحن اللاحقون». هذه الحياة ولا شيء إنها مجرد رمشة عين، بس. حاولت أعمل الصّح. والله راح يجازيني. أنا وحجّينا عملنا اللي بنقدر عليه. الله راح يحاسبنا في النهاية. بتمنى، ومؤمنة إننا مشينا على طريق الحق.

ما بعرف كم باقيلي من عمر على هالأرض. عشت حياة طويلة. حياة طيبة. قال لي واحد من أولادي من فترة: «أمي، إنت ما عملت شي بحياتك، طول الوقت مشغولة بأولادك». جاوبته: «سعادتي كانت في تربيتكم، وشوفتكم بتكبروا قدّامي. هذا اللي بدي ياه من هالدنيا.»

إلى الآن، عندي همّ واحد بس؛ ماريان. أتمنى أن أراها متزوجة. حجّينا مش شاغل باله. أبدًا. ما شغل باله ولا يوم بحياته. بيدير باله علينا، بيأمن عيشتنا، وبيرمي الهموم عليّ أنا. هو يثق فيَّ. أخوان ماريان لا يتدخلون هم أيضًا. ما حاولوا يدبروها أيّ شي. وهي ما بدها من حدا يدبرلها شي. مش واثقة في اللّي بدها ياه. البنت لازم تحكي لأمها كلّ شي في حياتها. هذا الصح. لكن ماريان ما بتحكيلي عن هالأمور، لهيك مين بيعرف؟

هالأيام الشباب عندهم طرق مختلفة. بتعرفي كيف بيتعارفوا هالأيام؟ بشرايط الفيديو! حد من عيلة واحدة من كناييني حصّلت عريس من شريط فيديو. كانت ترقص في عرس وأخدوا شريط الفيديو للرقص. وأرسلوه لحدا في أمريكا، واحد عيلته هون. متخيلة؟ أحكيلك، يمكن نعمل شريط فيديو لماريان، ونرسله لأمريكا! ليش لأ؟

t.me/yasmeenbook

جد، لا أمانع أن تلتقي ماريان بشخصٍ ما -شخص من عنّا -يريد العيش هناك. أخوانها هناك، وبيقدروا يديروا بالهم عليها. ليش لأ؟ حتى الآن جاء ماريان خطّاب كُثر. بعضهم غير متعلمين وحرفيين. ما رضيت بأي واحد منهم. بدها واحد متعلم، متلها. طيّب، خلّيه يكون متعلم، أنا موافقة. لكن، بعمر سبعة وعشرين صار لازم تختار حدا. بدّي ياها تختار. ما بقدر أجبرها. حرام! لا يجب أن تغصبي ابنتك على الزواج. لكن أريدها أن تستقر. تستقر وأنا عايشه. هذا الشي اللي لسّه بستنّى أشوفه. الله يعلم، متى يصير. في إيدين الله.

مكتبة ياسمين

ماريان

بعدما تحوّلت تلك الجلسة التي عقدناها مع ماريان إلى حوارٍ مع أم محمود، أحجمت أم محمود عن مقاطعتنا بعدها. ومن ناحيتنا لم نقترح على ماريان الالتقاء بها خارج المنزل. وهكذا عقدنا الجلسات الثلاث الأخيرة في شرفة منزلها بينما كانت أم محمود تتنقّل بين المطبخ أو الصالون، بعيدة عن مرمى السّمع.

من الجدير بالذّكر أن ماريان ورفيقة أصبحتا صديقتين أثناء هذه الفترة. فقد تتصل ماريان لمناقشة بعض مشكلاتها الشخصية التي قد تتعرض لها مع أمها أو صديقها، أو في العمل، سواء الآن أو لاحقًا بعد إنجاز الكتاب. وهذا عرّض رفيقة لمأزق -وهو أمرٌ يتكرّر غالبًا عندما يسير العمل الميداني على ما يرام. أي عندما يتساءل المرء: هل أستغلّ هذه الصداقة وسيلةً لدعم العمل؟ (لقد ناقشت رفيقة هذه المعضلة في الخاتمة). قد تكون الإجابة الوافية ههنا هي أن شيئًا من هذا الاستغلال قد حدث لعدم القدرة على تفاديه مهما حاول المرء أن يتحرّى الدقّة. فلم يكن محتملًا -في هذا الموقف- أن تتطرّق ماريان لمواضيع معيّنة لولا وجود هذه الصداقة. وعندما صار علينا أن نقرّر ما سننشره، اتّبعنا قاعدةً بسيطة: إن لنا حرية نشر ملاحظاتها التي وافقت على تسجيلها على الشريط.

ما يلي إذن، بعضٌ من ذكريات ماريان، وآرائها عن السياسة، والأصولية

t.me/yasmeenbook

الإسلامية، وعملها، وصديقها.

§

السياسة. ما بحب السياسة، أحاول البقاء بعيدة عنها قدر استطاعتي. ما في حدا في عيلتي بيحب السياسة. حتى الكلام عنها ما بحبه. السياسة بتودي عالسّجن. أعرف أنك في «إسرائيل» تذهبين للسجن بسبب ما تعمله لا ما تقوله. والقدس الشرقية تحت القانون «الإسرائيلي»، بعرف. لكن، بضلّ بعيدة عنها. لا أشارك في التصويت على الانتخابات «الإسرائيلية» -مع إنه مسموح لي باعتباري من سكان القدس. وأبقى بعيدة عن الانتفاضة. السياسة مش إلي، إطلاقًا.

هذا لا يعني أن ليس لديّ أي وجهات نظر، أكيد عندي. وما يحصل حولي يؤّثر عليّ، ويغضبني. لكني بحتفظ بهذا الشعور لنفسي. طيّب، شوفوا، أحكيلكم شَغلَه.. حصل ذلك في الأسبوع الماضي لأحد من أقربائي، لن أخبركما من هو على وجه التحديد. اللي صار هو إن بيت قريبي دمّروه. ليش؟ لأنه بناه بلا ترخيص. البناء بهذه الطريقة ممنوع. هذا القانون. يقع بيته بالقرب من شارع مؤدٍ لمستعمرة يهودية قريبة من هنا. وهكذا، لليهود مخططات و... طبعًا، بيته مش جزء من مخططاتهم. أنذروه بهدم بيته، لكنه لم يأخذ الإنذار على محمل الجد؛ فالبيت على أرضه -كما تريان -وهالأرض ورثها عن أبوه. لما جاؤوا لتدمير المنزل ما سمحوا له بأخذ قشّة منه -لا مغاسل، لا أبواب، ولا شي. ما سمحوا له يوخد أي شي أبدًا. كان غضبان جدًّا، فوق ما هو غضبان على حاله. بيته كان جميل جدًّا كلّفه حوالي 80000 دينار أردني [حوالي 115000 دولار]. جاؤوا لإزالته بالجرافات، فحاولت زوجته الكلام معهم، لكنها في النهاية صاحت فيهم: «هدّوه! هدّوه بسرعة! ليش بتهدّوا فيه شوي شوي، حجر حجر؟ بتتعبوا حالكم وتتعبونا معاكم.

مكتبة ياسمين

هدّوه. خلّصوا عليه!» بمجرد ما خلصت صياح عليهم انهارت، ماتت. هذا اللي صار. الآن، انتقلوا لبيت بالإيجار. هو رجل طيب، من أحسن الناس. عنده أربعة أطفال، ولدين وبنتين. ما خسروه كان تحويشة عمرهم، ما في مجال لتعويضها. خلاص! بالتأكيد يشعرني هذا بالغضب. كل عائلتي تتميز من الغضب، أمي، وأنا، كلنا. لكن أحكيلكم، شخصيًّا ما كنت راح أبني بيت من غير ترخيص. الله يهديه. ما كان لازم يحط حاله بهيك موقف ضعيف. بشعر بالأسى عليه، لكن.. شو عسى الواحد يعمل؟

أعترف أنه في بعض الأحيان عندما يرتكب «الإسرائيليون» شيئًا كهذا -أو أسوأ- مثل قتل الجنود «الإسرائيليين» للمصلّين في المسجد الأقصى فالأمر بيخليني بتمنى لو بقدر أعمل شي. لكن، شو المفروض أعمل؟ أرمي حجر؟ قنبلة؟ أرمي قنبلة على الجنود وأعرض حالي للموت؟ هذا الفعل لا يأتي إلا من شخص أدركه مصاب عظيم من «الإسرائيليين» لدرجة يكرههم تمامًا. أنا ما بقدر أدبح جاجه عشان آكلها، فهل بقدر أحمل سكّين وأقتل حدا؟ لا.. لا، أبدًا، هذا حرام. شغلات متل هيك مش إلي، ولا لعيلتي.

في عائلتنا، لم يشارك أحد في الانتفاضة. ما عدا واحد من أولاد أعمامي. جد، هو ما شارك فعلًا -هيك حكوا. «الإسرائيليون» اتهموه بأنه ألقى قنبلة مولوتوف وسجنوه ثلاث سنوات ونصف. حكى إنّه كان رايح الصيدلية يجيب دوا لجدته لما اعتقله الجيش هناك بالخطأ. مين عارف؟ على كل حال، كان الوحيد من أقاربنا الذي سُجن أو شارك في الانتفاضة بطريقة ما.

في الحارة القريبة منّا -مش من حارتنا- هناك كثرٌ من الشبّان المراهقين الذين شاركوا في الانتفاضة. كان بيصرخوا علينا -نحنا أهل هاي الحارة- لأننا ما شاركنا كفاية حسب رأيهم. لكن شوفوا، أوكي، هالأولاد شغلوا حالهم برمي الحجارة والانتفاضة. لكن شو بخصوص المستقبل؟ اتعطّلوا

t.me/yasmeenbook

عن المدرسة كم سنة، أو كانوا يروحوا ويطعلوهم بدري. هذا كان حال الضفة الغربية كلها، بحكيلك. مجموعة كبيرة من الشباب ضاعت سنوات من حياتهم دون أن يتعلموا، وهم غير متعلمين الآن. شو راح يصيرلهم؟ من الأكيد إن كرههم لـ«إسرائيل» مستمر، لكن من غير تعليم مين راح يخدموا؟ «إسرائيل» هي اللي راح تستفيد. سيصبحون عمّالًا بسطاء، عمالة رخيصة في حسبة الاقتصاد «الإسرائيلي». نحن في حاجة إلى المتعلمين لبناء دولة فلسطين. إذا حاولنا بناء دولة من دون مواطنين متعلمين، فستكون دولة بائسة، بس.

ما بقصد من كلامي إنّي ضد الانتفاضة. أنا ضدها من جانب، ومعها من جانب آخر. ما من شك أن الانتفاضة تلعب دورًا إيجابيًّا؛ وذلك بتوحيد صفوف الناس هنا. الناس صارت أقرب لبعض وتهتم لبعض، ما في حدا هالأيام بيترك أخوه الفلسطيني يبات جوعان. كمان ما بظن حدا في الخارج كان راح يهتمّ بمشكلة فلسطين لولا الانتفاضة. و«الإسرائيليين» راح يتمادوا في احتلالنا أكثر وأكثر، وما راح يصير أيا شي. صارت بعض التطورات بسبب الانتفاضة؛ نحن الآن صرنا أقرب للحصول على دولة فلسطينية. السؤال رغم ذلك هو: ما شكل هذه الدولة؟ ما بظن حدا بيعرف يجاوب على هذا السؤال.

شو شكل الدولة اللّي بفضّلها؟ طيّب، راح أخبركم. مش متأكدة إذا حتوافقوني أو لأ، لكن بخبركم على كل حال. إذا نظرنا في الاحتمالات، فدولة بقيادة عرفات وفتح، أو دولة بقيادة حماس، أنا بفضّل الدولة الإسلامية. سأدعم حماس، لكن بشرط واحد: على الدولة التي سيقيمونها أن تكون دولة تتبع الأسس الإسلامية فعلًا. ففي الإسلام -كما تريان- يمكن لكل شخص التعبير عن وجهة نظره، وفي دولة تسوسها أسس إسلامية حقيقية، فإن للنساء حقوقهن. أقصد، حق التعليم، والعمل، واختيار الزوج. المنظمات اللي متل حماس بتآمن بهالشي. بيدعموا حق المرأة في التعليم والعمل مع الرجل، شرط

مكتبة ياسمين

التزام المرأة بالملابس المحتشمة والتصرف بأدب.

متل ما شايفين، الإسلام يقدّر المرأة. أكتر حتى من المسيحية واليهودية، متل ما بعرف. الآية القرآنية التي تقول إن الله جعل الرجال «قوّامين» على النساء لا تعني أن الرجال أفضل منهن. لا، كلمة «قوامون»[1] ببساطة بتعني إن الرجال عندهم قدرة أكبر من قدرة المرأة؛ فهم أقوى منها بدنيًّا. كمان الرجال -متل ما بشوفهم- منطقيين أكثر بينما السّتات عاطفيات أكتر منهم. السّتات عاطفتهن بتتحكم فيهن. ولأن الرجال أقوى فلهم الحق بالسيطرة على البيت والحكومة، وأنا مع هالشّي. مجتمعنا مجتمع يخضع للهيمنة الذكورية. لكن مش معناته إن مكانة الرجل أعلى من المرأة. مكانة المرأة مساوية لمكانة الرجل. والإسلام ما بيقلل من مكانة المرأة إطلاقًا. الإسلام الحقيقي، بقصد.

[حول هذه النقطة سألت رفيقة ماريان: هل تعتقدين أن بإمكانك الوثوق في المنظمات كونها تساند النساء؟ أتعتقدين أنهم سيمنحونك حرية التجوال مرتدية تنورتك وقميصك ذا الكمّين القصيرين دون أن يفعلوا لك شيئًا؟]

شوفوا، ماشي الحال، راح ألبس الحجاب وثوب طويل. شو؟ مشكلتها ليست فيما نلبس، إن كان هذا الثوب أم ذاك. الأهم هو ما سيكون عليه وضع المرأة في المجتمع، معزّزة مكرّمة أم لا. ليست المنظمات هي من تجبرنا على ارتداء الملابس المحتشمة؛ فقد أمرنا الإسلام بذلك، وهذا جزء من الدين. لكن شوفوا، أنا بعرف إن في منظمات بتحرّف الإسلام خطأ. بيستغلوا الدين

---

1. عرض مايكل غوركن على ماريان الآية الواردة في سورة النساء (الآية 34) من النسخة الإنجليزية المترجمة للقرآن، بترجمة ن. ج. داوود، إصدارات بينغوين، 1974، 370، وطلب رأيها فيها.

t.me/yasmeenbook

عشان ينزلوا من قدر المرأة. بعض هذه المنظمات شديدة التّزمّت مع النساء، تراقبهن دائما للتأكد من انضباط سلوكهن، وأن لا أحد ينظر لهن. مش هذا الوضع اللي المفروض يصير. أنا ضد هالنوع.

مع هيك، اللي بشوفه، أخطاء المنظمات أقل من أخطاء الأحزاب السياسية التانية. ولهيك، إذا بدّي أدعم جماعة سياسية معيّنة فبفضل المنظمات الإسلامية. أكيد راح يكون في صراع في الدولة الفلسطينية، هذا أكيد. ما بعرف مين راح يفوز فيها. لكن بعتقد إن شعبية حماس بتزيد. أظن في ناس كتير بتسأل حالها: «شو أنجزنا بحياتنا؟ ضيّعنا كل شي.. بلدنا، حالنا». العودة للدين ستكون هي الطريقة لإيجاد أنفسهم مجدّدًا، ليصبحوا أقوى، وليستعيدوا وطنهم. هذا مكتوب في القرآن إنه «ومن يبتغِ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة لمن الخاسرين». أنا مؤمنة بهذا، وإنه واحد من الأسباب اللي خلّت بلدنا تضيع منّا. استرجاع ديننا يجعلنا أقوى. بالنسبة لي هذا واضح. بتفكروا إن «الإسرائيليين» والأمريكان مش خايفين من المنظمات الإسلامية؟ أكيد خايفين. الأمريكيون راغبون في المضيّ للسيطرة على المنطقة، مستغلين كل الملوك والأمراء في الخليج. إذا رحل هؤلاء الملوك والأمراء وأمسك بزمام السلطة ناس على دراية بها فلن يكون باستطاعة الأمريكان السيطرة على المنطقة. لهيك همّا خايفين، خايفين إننا نصير أقوياء. بعتقد كتير من الفلسطينيين فاهمين هالحكي. يمكن أكون غلط، لكني بعتقد إن المنظمات الإسلامية راح تصير أقوى مع الوقت. بتمنى هذا. أمي كمان بتتمنى يصير هيك.

الله يستر علينا، بعد ما صرت حاكيالكم كل هالحكي! لكن، أوكي، اطبعوه. حكيتلكم قبل إني بحاول أظل بعيد عن السياسة قد ما بقدر. السياسة ما بتجيب غير المشاكل. شو إذا وزارة التعليم «الإسرائيلية» ما عجبها رأيي؟ باعتباري معلمة في القدس، فأنا أتبع موظفي الحكومة «الإسرائيلية». قد

مكتبة ياسمين

يقررون عدم تجديد عقدي. أعرف عددا من الناس ليس بإمكانهم الحصول على وظيفة بسبب آرائهم السياسية. هذا شي بيقلق شوي. لكن، يا الله. لما ييجي وقته وينطبع الكتاب، مين عارف شو راح يصير؟

❧

هذه السنة أعمل معلمة رياضيات وعلوم في مدرسة ابتدائية هنا في القدس الشرقية. أعلم الصف الثالث الابتدائي. هي مدرسة للبنات فقط. السنة الماضية، كنت معلمة احتياط، وهذا العام أدرّس بعقد عمل. كيف بحب شغلي؟ الصحيح، أنا بحبه. عدد الأطفال في الصف كبير، خمسة وثلاثين، أو أربعين. لكن مع ذلك، بحب شغلي. بحب الأطفال، بالذات الأذكياء اللي بييجوا على المدرسة حلوين ونظاف. بحب أعلمهم وهما بيحبوني كمان، ما في شك. أكيد، في بعض الأطفال الصّعبين أحيانًا، وفي أيام البنات بتكون فيها مشاغبة. وآه، أحيانًا بصير إني بضرب بنت كَفّ خفيف، هو ممنوع، بعرف، لكن كف خفيف عشان تنتبه ما بيأذي. حصلت معاي لما كنت بعمرهم، وما آذتني.

غالبًا رغم ذلك لا أواجه مشكلات مع هؤلاء البنات، فعلاقتي بهن طيبة. في بعض الأيام -إذا شعرت بالتعب- أقول لهنّ: «ساعدوني بإنكم تكونوا منيحات اليوم». ويساعدنني فعلًا. وإذا انتهى الدرس يتساءلن: «كيف كنّا يا آنسة؟ أزعجناك أو كنّا منيحات؟» في السنة الماضية قبل زيارة موجّهة وزارة التعليم لصفّي قالت لي البنات: «لا تهتمّي، خليها تيجي، هاي العجوز. راح نفرجيها. نحلف لك إن الدرس راح يكون حلو!» وعملوها، فعلًا. بطريقة ما عرفن من هي هذه المرأة، وقدّرن الموقف تقديرًا صحيحًا، بالإضافة لقلقي البادي لهنّ. هدول بنات بالصف الثالث بس، لكن ذكيّات. بحكيلكم.

t.me/yasmeenbook

يحصل بعد الدرس أن تأتي إلي فتاة أو أخرى لتحكي لي مشكلاتها. في عمرهن، الثامنة أو التاسعة، لا يعرفن كيف يحفظن الأسرار. إذا في مشكلة بالبيت، خلينا نقول.. الأهل بيتخانقوا، بيحكولي. مؤخرًا لاحظت إن بنت صغيرة عندي صار أداءها سيء بالامتحانات وما بتعمل الواجب. لما حكيت معها عرفت إنها متبهدلة بين بيوت جدّاتها الاتنين لأن أبوها وأمها تطلقوا. تكلمت معها، حاولت أريّحها، لكن ليس باستطاعتي الكثير، اللهم إلا التساهل مع هذه البنت لا أكثر.

هنّ فتيات رائعات، فعلًا. بعضهن يكتبن لي رسائل صغيرة أو ملاحظات. يكتبن عبارات مثل: «آنسة، إنتي أحلى معلمة في كل المدرسة»، أو «آنسة، أنا بحبك». أحيانًا يحضرن لي الهدايا. إحدى المرات كانت آنية زهور. ومرّة كانت، كيف بدي أحكيها؟ هدية غريبة وحزينة بنفس الوقت. زوج من الأحذية. اتوقعت إن الحذاء لأم البنت، والبنت أخدته من غير ما تعرف أمها. إجت البنت لما كنت مشغولة مع صف ثاني ووقفت عند الباب. وهمست: «بسسس! بسسس! تعالي هون، عندي شي إلك». لما رحت للباب أعطتني هذا الكيس وقالت: «آنسة، جبت لك هاي ليوم الأم». اطلّعت فلقيت كيس مكرمش فيه فتحتين طالع منهم كعبين. فتحته وانصدمت. كان الحذاءان كبيرين، مقاس 42. شكرتها وعدت بالكيس إلى الصف. كانت الفتيات يراقبن ما حصل بالطبع، وألحَحن عليّ: «جربيه يا آنسة.» الحذاءان كانا باليين وقذرين، وبشعي المنظر. آخر شي تمنيته هو إني ألبسهم. وهتفت البنات: «البسيه، البسيه». وهيك.. لبستهم. لما انتهى الدرس وودعت البنات، مرّت عليّ زميلة وهي بتكتم ضحكتها: «سمعت إنّك استلمتِ هديّة، مش هيك؟» ووقفت زميلة ثانية جمبها ميته على حالها من الضحك. في الأخير، ما لبستهم، ولا احتفظت فيهم. تركتهم في خزانة بالمدرسة، يمكن حدا مسكين يستفيد منهم في يوم من الأيام. بعد عدة أيام،

مكتبة ياسمين

زارت الأم المدرسة لسبب أو لآخر. قالت لها المعلمة التي التقت بها: «بتعرفي شو، بنتك جابت لزميلتي هدية، كندرة». لم تقل الأم إنها لها، حكت: «الله يلعن شيطانك يا هالبنت». أما الحذاء فما زال -على حد علمي- في الخزانة.

إحدى حسنات التدريس في المدرسة هي حبّي لزملائي. معظمهن نساء. بعضهن أكبر مني، وبعضهن في مثل سنّي. كثيرات متزوجات وقلة قليلة منهن عازباوات. نتبادل النكات كثيرا في غرفة المدرسات. أحيانا أدخل عليهن وهن يتحدثن عن أزواجهن أو ربما عن الجنس، عندها يتوقفن عن الكلام لأني مش متزوجة، بيحكولي: «لما تتزوجي بتقدري تنضمي لنا، مش هلّأ». حكولي إن في مدرستنا ولا عزبا اتزوجت وهي بتشتغل في المدرسة. وقالولي: «لكن في نهاية السنة، إذا ما انخطبت، راح ندبرلك عريس!» هاي بالنسبالهن مزحة، لكن بالنسبة لي مشكلة، بقصد إني ألتقي بحدا. بقصد بالنسبة لَسِتّ عزبا هنا في القدس الشرقية.

الطريقة اللي بيتبعها الأغلبية هنا، هو إن عيلة العريس تدوّر له على عروس. لكن أنا ما بدي تدخّل من حدا. ما بدّي أمي تتدخل في الموضوع. ولا أخواني ولا أخواتي كمان. جَدّ، هما مناح في هالموضوع. ما بيتدخلوا في حياتي، لا أخواني ولا خواتي. لذلك، فعلا الموضوع بيخصني وحدي. أنا بعرف أكثر من الكل مين الشخص اللي بتمناه، ماشي؟ ما أنا أكيده منه هو أني سأتزوج من مسلم، لا مسيحي. أعرف فتيات فعلنها، لكني لن أفعلها. ليس عليه أن يكون عربيًّا. فليكن من البوسنة، من يدري، ففيها مسلمون جاؤوا مؤخرًا إلى «إسرائيل» من هناك، ما عندي مانع! أنا بمزح، لكن ما بمزح بمسألة إنه مسلم، بهاي أنا جدّية. ما راح أتزوج إلّا رجل مسلم.

t.me/yasmeenbook

في الحقيقة، كل هذا كلام نظري، لأني، طيّب، بطريقة ما، قابلت شخصًا أعجبني. مسلم، آه. عرفته من شهور قليلة فقط. قابلته عن طريق معلمة معي في الشغل. صديقة لي، متزوجة. كنت أزورها في بيتها ومرّ عليها أسامة -هذا اسمه. ما كان عندي علم بإنه جاي، وهي ما حكتلي ولا شي. لكن بينهم وبين بعض كانوا مرتّبين إنّو ييجي. وهيك شفته أول مرّة.

ما الذي يمكنني قوله عنه؟ جَدّ، ما بدي أحكي كتير. يمكن ما يحب، ما بدّي أحرجه. كل ما يمكنني قوله هو أنه رجل ذكي، متخصص. هو أكبر منّي بقليل، يعيش مع أخيه في القدس الشرقية. لا، لا، ما رحت لهناك أبدًا. ما شفته غير في بيت أخته. هناك حكينا. بتكون أخته وأولادها موجودين بالعادة، مرّة مرّة بيتركونا أحيانًا في الصالون مع بعض نتكلم بحريّة.

مرّةً، مرّةً واحدة فحسب، التقينا لقاءً سريعًا في مكان عام. جلسنا هناك وتكلمنا، وأخبرك الحقيقة، كنت مرعوبة! طوال الوقت وأنا أقلب نظري هنا وهناك. بدا لي أن الجميع يبحلق فيّ، وأن كل شخص يعرفني ويعرف أهلي. في النهاية، ما تحمّلت، وقلت له: «ما بدّي هيك، اللقاء بمكان عام ما بيناسبني!» شوفي، إذا أي حد من عيلتي شافنا هناك، فراح تصير مشاكل كتير. راح يحكوا: «وثقنا فيك وإنتي ختتينا.» وراح يقولوا: «إحنا عيلة محترمة وإنتي شوهتي سمعتنا.» سيعاملونني بقسوة -صدقاني- وسوف يجبرونني على ترك وظيفتي، والتوقف عن رؤيته، وراح يحكوا إنهم حيكسروا رِجله إذا إجا لبيتنا، ومتل ما إنتو شايفين، ما في معنى للقاء في مكان عام. ما بدي أحط حالي بمشكلة، و.. فعلًا، ما بدي أحرجهم. بالتأكيد أحب أن أكون حرّة في الخروج، وأسامة يرغب في هذا طبعًا. لكن كما أخبرتكما، ما دمت موجودة في بيت أهلي فلازم أعيش على هواهم، وهذا اللي بعمله. لهيك إذا التقينا، فبنلتقي في بيت أخته. في الأغلب نتكلم بالتلفون. أحب التلفون؛

مكتبة ياسمين

لأن الواحد بيحكي شو ما بده، وصوت أسامة كمان حلو. أحب التحدث معه على التلفون. نتكلم لوقت متأخر من الليل. خط التلفون عنّا موصول بتلفون الطابق الأرضي بشقة أخوي، لذلك أنتظر للساعة العاشرة أو الحادية عشرة -عندما ينام الجميع -ثم أتكلم مع أسامة. شعور جميل جدًّا، وأريح. يمكنك معرفة الكثير عن شخص ما بالتحدث على التلفون فقط. ربما لا يقارن بالخروج معًا، لكن هذا اللي بيسمح فيه مجتمعنا، وأنا راضية.

في «إسرائيل» الغربية، الناس أكثر حريّة في الخروج. عندهم حريّة بزيادة. مثل ممارسة الجنس مع كل من هب ودب قبل الزواج. أنا ضد هذا.. حرام! كل شيء له وقته. هذا ما أعتقده. بالنسبة لنا، فبمجرد كتب الكتاب بين الشاب والفتاة تصبح المعاشرة مشروعة. ما بقصد كل شي للآخر، أقصد لا مشكلة في التقبيل والعناق. حتى على أيام أمي، كان هذا مسموح بعد كتب الكتاب. سألتها عنه وأقرّت به. في الحقيقة، بالرجوع للشريعة، يعتبر المخطوبان زوجًا وزوجةً قانونيًّا بمجرد كتب الكتاب، وعليه يحق لهما المعاشرة. لكن بما إن عادات المجتمع داخله في الموضوع، فهذا غير مقبول إلا بعد العرس. أنا موافقة على هيك، وكل السّتات اللي بعرفهن. إن ممارسة الجنس قبل الزواج تعتبر خطأً كبيرًا؛ وذلك لأن الانفصال وارد في فترة الخطوبة، ولا يوجد رجل عربي يقبل بالزواج من امرأة يعرف أنها ليست عذراء. وماذا سيكون مصير الطفل إذا حملت أيضًا؟ سيكون طفلًا غير شرعي، ولن يربّيه أحد. هذا فظيع، لذلك أقول: لكلّ شي أوانه، للجنس والزواج، لكلّ شي وقته.

المعلمات في المدرسة قالولي إنهن راح يحكن لي كل شي عن الجنس بمجرد ما أتزوج.. ولكن جد، بشو بحتاجهن؟ إذا كان في معلومة بدّي ياها فبروح بقرأ عنها أو بشوفها على التلفزيون. شي متل الجنس -على ما أعتقد- مش

t.me/yasmeenbook

ممكن يتعلمه الواحد إلا بالخبرة. لي صديقة بتحكي عن زوجها، لكن مين عارف، يمكن يكون زوجها مختلف عن زوجي. أفضّل التريّث والاكتشاف بنفسي. مجتمعنا يفضّل الانتظار ليوم العرس نفسه، إن «العُرف» جزءٌ من الدين كذلك. وليس من الصواب معارضة ما هو مقبول اجتماعيًّا.

يصعب أن أحدد أيّ نوع من أنواع الزواج أريد. زواج ناجح، أكيد. إذا شفت زواج أهلي، فزواجهم ناجح. متزوجين من حوالي ستين سنة، ولسه بيحترموا بعض وبيحبوا بعض. شي شايفاه. لا، مش قصدي بيحضنوا بعض وبيبوسوا بعض قدّام الناس، أو حتى في البيت قدّامنا، أكيد لأ. بينهم وبين بعض، أكيد. شوفي، عندهم ثلاثة عشر ولد وبنت، شو ما عندهم؟ طريقتهم بتعجبني. راح أكون متل هيك مع زوجي. ما في أحضان وبوس قدّام أولادنا.

ما عندي شك، مع هيك، إن أهلي بيحبوا بعض. من اللي بشوفه فكل واحد منهم بيحاول يسعد الثاني. بالذات أمي، بتحاول تسعد أبوي بأي طريقة. عن طريق إخوانه وعائلته، وحتى إذا أزعجها أيّ منهم، فتحاول دومًا معاملة الجميع بلطف. ومع أبي، فهي دومًا طيّبة. وإذا قال شيئًا لا تتفق معه عليه أمام مجموعة من الناس فلا تعارضه إطلاقًا؛ تحترمه دائمًا. شوفي.. كنا اليوم معزومين على الغدا في بيت أختي. ما حب أبوي يروح ولهيك حضّرت أمي له الغدا قبل ما نطلع -بدال ما ترتاح ليوم واحد من هم الطبخ- هي في نظري كاملة مكمّلة معه، 100 على ميّه.

بالنسبة لأبي، لا يمكنني قول المثل. هو يحبها ويحترمها، أكيد. لما يكونوا سوا لحالهم بيكون لطيف معها. بيجيبلها تفاحة وبيحكيلها: «بترجاك يا مرتي لتاخذيها». أو بيجيبلها موزة وبيقشّرها إلها. هو طيب معها. لما جابت

مكتبة ياسمين

التوأمين -هيك حكولي- ساعدها فعلًا. كان يطعميهم وبيشتغل بالبيت معها. ما زال بيساعدها أحيانا في بعض الأشياء، في المطبخ وغيره. الجيران بيعرفوا إنه بيساعدها لكن ما بيهتم. هذا هو منيح فيه.، لكنه مختلف أمام الناس أو في مكان عام. إذا خرج من البيت يقول لها: «امشي وراي!» يمشي هو في الأمام، لا إلى جانبها. هي لا تحب هذا، لكنه يصرّ على طريقته. والأسوأ من هذا هو طريقته في التعامل معها أمام الناس، فإذا قالت شيئًا لا يتّفق معها عليه، ويعارضها فورًا أمام أي شخص -خاصة أمام أختي وزوجها- يكون في أسوأ حالاته حينها. تقول له لاحقًا: «كون حقّاني معي. بتكون طيّب لما نكون لحالنا، ولما يكون عنّا ضيوف بتتغير.» مرّات بيضايقني هالشي أنا كمان، وبحكيله: «يابا، ليش بتعامل ماما هيك؟ ليش؟» لكنه ما بيجاوب. هاي طريقة. وبس.

الرجال هكذا، معظمهم هكذا. يحبّون الظهور بمظهر الزعماء، وأن زوجاتهم لا يفقهن شيئًا، إنما يفعلن ما يؤمرن به. معظم أزواج صديقاتي على هذه الشاكلة، وسواء كانوا متعلمين أو جهلة، كلهم بيشبهوا بعضهم. شو بالنسبة لصديقي؟ هو متلهم. حتى الآن الموضوع باين هيك. لما نكون في بيت أخته لوحدنا بيكون لطيف ومتفهم، ولكن بمجرد ما يدخل حدا بينقلب ميّة وثمانين درجة. بيعمل حاله ما بدّه يحكي معي، ولا كأنه مهتم بالمرّة. شو لازم أعمل؟ أبلع وأسكت، ما راح أقدر أغيره. خلاص، هيك هم الرجال. إذا تزوجنا فلازم أكيّف نفسي على هواه، متل ما أمي كيّفت حالها.

أتوقع أن يختلف زواجي عن زواج والديّ في أمر واحد؛ هو ما يتعلق بالأطفال. لن أنجب أبدًا هذا العدد كما فعلا. لن أستطيع تحمل عبئهم. في زمانهم كانت الفكرة تتلخص في إنجاب الأطفال، وبطريقة أو بأخرى فالله يعينك على تربيتهم، فموانع الحمل ما كانت متوافرة مثلما هي في أيامنا هذه.

t.me/yasmeenbook

وهكذا، يولد الأطفال واحدًا تلو الآخر. غاية القصد مش مشكلة يخلّفوا لو الأم قادرة تدير بالها عليهم، والأب رجل صالح وعنده فلوس تكفي لترابيتهم كلهم. ماشي، خليهم يخلفوا أولاد كتير. لكن بالنسبة لي، ما بقدر أتحمل هالعدد من الأولاد.

إذا مشت الأمور متل ما بتمنى، فبدي يكون عندي اثنين أو ثلاثة، ولد وبنتين، أو العكس. يكون زوجي مقتدر وما اضطر أشتغل، أظل بالبيت وأدير بالي عليه وعلى ولادي. إذا احتجت للشغل فراح أشتغل. لكني بفضل الرغبة الأولى. ما بدي بيت كبير، بيت صغير مؤثث أثاث منيح بيكفيني هنا في القدس الشرقية، ما بدي ياه قريب من بيت أهلي. وبتمنى يكون لكل طفل غرفته. ومكتب خاص إلي ما بيقتحموه الصغار ولا بيزعجوني. إنجاب أكثر من طفلين أو ثلاثة هو أمر فوق الاحتمال؛ فالأطفال يحتاجون للوقت والجهد، ولجرعة عاطفية وجسدية كبيرة. عليك إرسالهم لمدارس جيدة، وكليات جيدة. لا، ما بقدر أتحمل أولاد كتير، ولا يمكن.

وشو إذا ما تزوجت؟ ماشي، فكّرت في هذا. بدّي أتزوج أكيد، لكن إذا ما صار فبتمنى أتبنى طفلين، ولد وبنت. بعرف إن الموضوع مش شائع في مجتمعنا. لكن بعد عشر سنوات -خلينا نقول -راح أصير مستقلّة أكتر، وحرّة أعمل اللي بدي ياه. ما راح يمنعوني إخوتي. ثم ديننا يحثنا على هذا. القرآن يحثنا والرسول نفسه تبنى أيتامًا. وعليه، هذا شيء أرغب فيه. أرغب بشدة أن أصبح أمًّا. أن أربي أولادي بطريقة تختلف عن تربية أبويّ لي. بدي ياهم يطلعوا مستقلّين، وقادرين يشوفوا العالم بانفتاح. أعتقد بقدر أربي أولادي ليصيروا متل هيك. أريد الفرصة، لكن مين عارف؟ كلّه بإيد الله.

مكتبة ياسمين

أم عبدالله وسميرة

(مخيّم عايدة)

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

سميرة

يقع مخيم عايدة على أطراف بيت لحم، تحديدًا الطريق الرئيس الذي يربط القدس/ الخليل، وهو مخيّم للاجئين الفلسطينيين أنشأته الأنروا[1] سنة 1967. مخيمٌ صغيرٌ يضم 2300 شخصًا، ويبدو من الشارع الرئيس أقل فقرًا من المخيمات الأخرى الكبيرة في غزة، أو في أي مكانٍ آخر من الضفة الغربية. رغم ذلك ففي مخيم عايدة دلائل تشي بمخيمٍ للاجئين: أزقة ضيقة قذرة، ومجارٍ طافحة من بالوعةٍ مفتوحة، وأطفال صغار يتقافزون جيئةً وذهابًا.

هنا نشأت سميرة مع أشقائها الثمانية وشقيقاتها، وهنا تزوجت، وهنا تربّي أطفالها. لكن بيتها اليوم أكبر وأرقى من البيت -ذي الغرفة (الذي أصبح يضمّ غرفتين لاحقًا)- الذي ترعرعت فيه. إنه بيتٌ إسمنتيٌّ مؤلّفٌ من طابقَين، يضمّ غرفة ضيوفٍ واسعةٍ في الأسفل، وغرفتي نوم ومعيشة ومطبخ في الأعلى. يستقرّ التلفاز والفيديو في أحد أركان غرفة المعيشة، والمكتبة -التي تضم العديد من الكتب السياسيّة- في ركنٍ آخر منها. وعلى الحائط عُلّقت بعض المطرزات الفلسطينية وصورة زفافٍ كبيرة لأخيها وزوجته اللذين دفعا ثمنًا غاليًا نظير نضالهما القوميّ الفلسطيني -تمامًا كسميرة وزوجها.

---

1. تساعد الأنروا -وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين- الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية إلى يومنا هذا، وتقدم خدمات متنوعة في مخيم عايدة.

t.me/yasmeenbook

لدى سميرة اليوم -وقد بلغت الحادية والثلاثين من عمرها- قطوفٌ من سيرةٍ شخصيّةٍ توحي بأنها ناشطةٌ سياسيةٌ شطر حياتها الأعظم، وقد أمضت ثلاث سنواتٍ في السجن إثر إلقائها قنبلة مولتوف على جنودٍ «إسرائيليين». بخلاف طباعها، فإن سميرة تُبدي احترًاما للآخرين، وصوتها ناعمٌ عذب -بل يبدو صوتًا بنّاتِيًّا- ولدى حديثها يتولّد لدى المرء شعورٌ بمدى تفتّح عقليتها وصدقها. كما أنها من أكثر النسوة -من بين اللواتي أجرينا عليهن الدراسة- صراحةً وانتقادًا لذاتها.

قابل مايكل غوركن سميرة لفترةٍ قصيرةٍ أثناء ورشة عمل تضم عربًا ويهودًا حول مجال الصحة العقلية للعاملين. واقترح صديقٌ مشتركٌ -على علمٍ بالكتاب- اسم سميرة مادّةً مناسبةً للدراسة. إذ تبيّن لاحقًا أن سميرة من أكثر المشاركات حماسًا. إضافة إلى أنها بدت كمن فهم طبيعة مشروعنا بسرعة. في الواقع، لقد قرأت سميرة عددًا من الكتب عن نساء عربيات، وأبدت موافقتها فورًا على التحدّث إلينا.

قابلنا سميرة ثماني مرّات لفترة امتدّت لعشرة أشهر. أجريت كل المقابلات في غرفة معيشة بيتها، وغالبًا بعد الظهر عندما تعود من عملها أخصائيّة اجتماعية في مركزٍ لإعادة التأهيل، حيث يكون ابنها ذو السنوات السّت وطفلتها معها، بينما زوجها -الذي أيّد مشاركتها كليًّا- خارجًا. جاءت أم سميرة مرّتين أو ثلاث مرّات لتشاركنا الجلسة لفترةٍ قصيرة. لكنها نادرًا ما انضمت أو شاركت سميرة الحوار. بدا ذلك احترامًا عقلانيًّا متبادلًا، أو كمسافةٍ تفصل بينهما. أوضحت لنا سميرة تمام الإيضاح أنّها تفضّل التحدث معنا بمعزلٍ عن أمّها.

في هذه المقتطفات من مقابلاتنا الأولى مع سميرة، ستتذكّر شيئًا من تجاربها المبكّرة كونها ابنة أبوين لاجئين. كما ستعرج على الكيفية التي تبلورت

مكتبة ياسمين

فيها تجاربها هذه لتشعل فتيل بداياتها المبكّرة لتصبح ناشطةً سياسية.

ولدتُ بينما كانت تعيش عائلتي في بيت جالا -التي تبعد حوالي كيلو متر عن المنطقة التي نقطنها اليوم. أنا الطفلة الرابعة في الترتيب والابنة البكر للعائلة. بالعافية بتذكّر هديك الأيام في بيت جالا، بتذكّر البيت بس. كان بيتًا صغيرًا مكونًا من غرفةٍ واحدةٍ ومطبخ. بُني منخفضًا عن مستوى الشارع الذي يحاذيه، وعليه ما كان بإمكانك رؤية أي شخص يقطن فيه. بتذكّر جارة لنا ألمانية مسيحية، سِتّ طيبة كتير بتجيب لي الهدايا على طول. أذكر اعتياد أمي على السهر ليلًا لتطريز الثياب -أثوابٌ فلّاحية جميلة، تطرزها بمقابل مادي. ما بتذكّر أكتر من هيك.

في عمر الخامسة انتقلنا لمخيم عايدة. بعدها رزقت بشقيق آخر - حاتم -وهو الذي تريان صورته على الحائط- ثم ولدت أمي أختي سارة، وخمسة أشقّاء آخرين، هم: إسماعيل، وفواز، ومحمد، وميسون، وجميل. أتذكّر تلك الأيام الأولى التي انتقلنا فيها إلى المخيم، لكنّي بتمنى لو بنساها. أيام صعبة وكل ما تذكّرتها بشوفها أصعب. بيتنا كان غرفةً واحدةً ومطبخًا، بالكاد يتّسع لنا. في الليل ننام جميعًا على الأرض في نفس الغرفة، بخلاف بعض أخوتي الذين ينامون في بيت جدتي في المخيم. لكل واحد منّا مكانه، ومكاني في الركن جنب سارة. لما تولد أمي بننتقل كلنا على المطبخ. حدث هذا مرات قليلة، وفي كل مرة أتذكر استيائي. ما بنشوف شي، بس بنسمع أمي بتئّن وتصرّخ. ما حدا بحكيلنا شي أبدًا. هذا خطأ، شو رأيك؟ كنت خايفه، وما حكيت شي أنا التانية.

تلك السنوات -حتى ما تلاها عندما بنينا غرفةً أخرى في المنزل- كانت قاسيةً جدًّا. ما كان مع أبوي قرش. فهو يعمل قصّارًا، هاي شغلانته،

t.me/yasmeenbook

وبعمره ما حبّها. حتى لما كان صبي بالقرية ما حبّ شغل الفلاحة. هيك حكولي. كان أخوه الأكبر هو من يتولى العمل. فأبي كسول منذ ذلك الحين، ولم يتغير طبعه حتى بعدما رزق بأطفال. وقد تسبب ذلك بمشكلاتٍ بينه وبين أمي؛ إذ توجب عليها أن توفر المال عن طريق التطريز. كما أن أخي الأكبر، عبدالله، اضطر لترك المدرسة عندما بلغ الرابعة عشرة ليساند العائلة. أما أخوتي الآخرين فكانوا يعملون أيضًا أثناء الإجازات المدرسية.

بالعافية دبّرنا حالنا. أقصد، لم يكن لدينا ما يسدّ الرّمَق. شو كان حيلِتنا؟ ماشي، بالنّهار أمي بتطعمينا خبز وشاي، ومرّات زيت زيتون كمان. كان ورا بيتنا شجر زيتون، وبناخد شوية زيتون أجرة مراقبتنا للشجر. بعد الظهر بناكل بطاطس مقلية دايمًا، ونادرًا بناكل أيا شي تاني. وإذا ما في أكل، بتشربنا أمي شاي كمان مرّة. هذا هو طعامنا المعتاد. ربما حصلنا مرّة في الشهر أو في المناسبات على طعام مختلف. وجبتي المفضلة هي الدجاج الذي تعدّه أمي في الطابون. لذيذ جدًّا! أتذكّر تناولي للمثلجات والحلوى مرّة مرّة. لكن في أغلب الأيام بناكل الوجبة المعتادة: شاي وخبز وبطاطس. في الواقع، ما كنت بعرف إنّا فقراء هديك الأيام؛ فمعظم اللي حوالينا في المخيم كانوا متلنا في نفس هالظروف القاسية. كل صحابي متلي، وهذا خلاني ما أستوعب قسوة الوضع اللي نحنا عشناه بالطريقة اللي أدركتها اليوم.

الأقسى بالنسبة لي وللجميع حينها هو الشجار الذي كان ينشب بين أمي وأبي، فكثيرٌ من تلك الشجارات سببه جدّتي -أم أبي- التي كانت تكره أمي، وضد زواجهما، ولم تقبل أمي أبدًا كنّةً لها. بتروح بتعبّي راسه بكل أنواع الإشاعات، فبيرجع مليان وبيطلّعها على راس أمي. الصراحة، العيشة مع ستّي صعبة. كانت تعيش قريبًا من مدخل المخيم، ويعرفها الجميع؛ تخطف رجلها وتزور ناس كثير وقت ما بدها. قاسية وصعبة المعشر؛ ربما لأنها ترمّلت في سنّ مبكرة -نحو الثلاثين -وحملت على عاتقها مسؤولية تربية

مكتبة ياسمين

ثمانية أطفال. ما بعرف، لكن اللي بعرفه إن أبوي قدّر تعبها، وكان لها تأثير كبير عليه. أذكر أنها في سنوات حياتها الأخيرة -ماتت منذ خمس عشرة سنة مضت عن عمر يناهز ثمانين عامًا- أضحت مشلولةً جزئيًا وغير قادرة على تصريف شؤونها. فكنت أنا وأخي يوسف نعتني بها وننام في بيتها، أعتني بنظافتها وطعامها، وكثيرًا ما أخدمها في منتصف الليل، حينها كنت في حوالي الخامسة عشرة من عمري. ولا بعمرها حكتلي كلمة شكرًا. أجيبلها الأكل اللي بتطبخه أمي، فترجعه معي مرتين وتلات؛ بدها ابنها -أبوي- يجيبلها الأكل بدالي، أو أخوي الكبير -عبدالله- لأنه المدلل عندها. كانت تفضّل الأولاد على البنات. ما حبّتني بعمرها، ولا أنا كمان. لم تكن امرأةً صالحةً في الحقيقة؛ فقد حوّلت حياتنا لجحيم -حياة أمّي على وجه الخصوص. كأنّه ناقِصنا مشاكل!

بما إني البنت الكبيرة ، فتحمّلت مسؤوليات كثيرة في البيت. هيك بتمشي الأمور، ولّلا لا؟ إذا طلعت أمي من البيت للسوق أو أي مكان تاني، فأنا المسؤولة عن أخواني الصغار. أحد إخوتي كان متأخر النمو -لم يمشِ حتى بلغ الخامسة من عمره- أتولى العناية به، فأنظفه وألبسه. القيام بكل ذلك يزعجني؛ دوبني عشر سنين، وهذا كثير على طفلة مثلي. لم أطق أعباء المنزل، وما زلت لليوم لا أطيقها. زمان يا دوب أتحمّلها عشان أطلع وألعب. كان عندي صاحبتين، سميرة -نفس اسمي- وصاحبة تانية اسمها امتياز، بنطلع نلعب مع بعض لعبة الخمس حصوات، أو بالعرايس اللي بنعملها من العيدان. كنّا بنلبّس العروسة تياب وبنعمل لها بيت، وبنلعب لعبة الأم وأولادها. اعتاد والد سميرة على ضربها لمغادرتها بيتها للعب معنا، لكنها كانت شجاعة؛ تهرب لتلعب معنا وبعدين بترجع تاكل القَتلة. بالإضافة لسميرة وامتياز كنت ألعب أحيانًا كرة القدم مع الأولاد. أبوي

t.me/yasmeenbook

ما حكى شي عن لعبي مع الأولاد، لكن لما كبرت شوي -حوالي العاشرة من عمري -يمكن- الصحيح ما بتذكر حدا منهم حكالي: «لا، عيب!» ولا صار شي متل هيك، كل شي مر طبيعي، وأنا لحالي بطّلت ألعب مع الأولاد في هذا العمر.

ما استمتعت به فعلًا هو الذهاب للمدرسة. إنها طريقة أخرى للخروج من البيت والتواجد مع الصديقات. كنت طالبة مجتهدة وذكية. ما كنت الأشطر، بس كنت من بين الشاطرات. لما بتذكر هديك الأيام، ما بقدر أحكي إن المدارس كانت منيحة، أو المدرسات كانوا مناح كمان. التحقت بالصف الأول وحتى التاسع بمدارس الأونروا للبنات. مدارس مكتظّة عن آخرها، وأحيانًا في الصف أربعين أو خمسين طالبة دون تهوية أو تدفئة. المعلمات كنّ قاسيات معنا، يضربننا على اليدين والوجه كثيرًا. أتذكّر صفعة تلقيتها لما كنت في الصف الثاني -في حصة الرياضيات- لأني تركت الصفحة خالية في دفتري. متخيلة؟ تعودنا ارتداء هذا الزي في المدرسة: الثوب المقلّم بالأزرق والأبيض. بإمكانك رؤية البنات مرتديات هذا الزي إلى يومنا هذا وهن ذاهبات للمدرسة. أنا كنتُ مخزيّة جدًّا وأنا لابساه لأني لبست هذا المريول لسنوات، لحد ما صارت أكواعه مرقّعة من كتر ما هو قديم. رقعتين على الفستان وكل وحده لون. ما كان عندي حذاء شتوي، كنت أصرّخ بوجه إمي: ليش ما بتشتريلي مريول وجزمه جديدة؟ تسمعني وهي ساكتة، وبس تصير لوحدها تبكي. زمان ما كنت فاهمة، ما استوعبت إلا بعدين.

أمّي كانت أميّة. لكنها رغبت دائمًا في تعلم القراءة، ولم تتحقق لها تلك الرغبة مطلقًا. إذا طلبوا منها التوقيع باسمها يتملّكها الإحراج لأن كل ما تستطيع هو أن تبصم بإبهامها. في طفولتنا حاول بعضنا تعليمها القراءة لكننا لم نبدِ معها صبرًا كافيًا، لهذا لم تتعلم إطلاقًا. بإمكان أبي القراءة؛ فقد التحق

مكتبة ياسمين

بالمدرسة حتى الصف السادس، ولهذا يستطيع قراءة الجريدة والقرآن. لم يفكر أبي في تعليم أمي القراءة. لكن، شوفي، لما كنت في المدرسة وما أعرف أحل الواجب، بعمري ما رحت له؛ أصلًا إني أطلب منّه المساعدة ما كان بيريحني، وأخواني دايما مشغولين. تعلّمت من بدري إن درجاتي العالية في المدرسة تعتمد عليّ. وكان لازم أعتمد على حالي.

من الصف السابع وطالع، بدأت أتعرف على بنات من خارج المخيم. كنا نذهب لمدرسة الأونروا الثانوية الدنيا مع بعض، ومنهن صار عندي اهتمام بالسياسة. بدأت أكتب عن شعوري -عن الفقر والمعاناة. أعطتني صديقاتي كتبًا سياسية لأقرأها -عن الصراع الفلسطيني وعن الماركسية وصراع الطبقات. كنت في الثالثة عشر من عمري حينها، وخبأت هذه الكتب بين كتبي المدرسية حتى لا يراها أبي. منها بدأت أعرف ماهية الاحتلال «الإسرائيلي» والنضال الوطني ضد الاحتلال -لمَ علينا أن نمضي في النضال والمظاهرات والقتال؟ ومع هيك كنت دايما خايفة أبوي يكشفني وأنا بقرأ هاي الكتب. الصراحة كنت بخاف أبوي أكتر من «الإسرائيليين»! وهو فعلًا ضبطني كذا مرّة، وفي كل مرة بيغضب ويخطف الكتب منّي ويمزقّها ويحرقها، ويصيح: «حرام! حرام!» أبي كان رجلًا متديّنًا، واعتقد أن كتبي منافية للدين. بالإضافة لقلقه من تورّطي أنا وأخوتي سياسيًّا، خائفٌ مما قد يفعله «الإسرائيليون» بنا. حاول أن يضع حدًّا لذلك لكني لم أفسح له المجال.

في المدرسة كمان، واجهت مشاكل مع بعض المعلمين. في الصف التاسع كان عندنا معلم شديد التديّن. مسكني وأنا بقرأ شي عن الماركسية، ضربني كَف ووصمني بالكفر قدّام كل الصف. بعدها طلب من صفنا والصفوف التانية يبقوا بالمدرسة لحضور محاضرة عن مخاطر قراءة متل هاي الكتب. ما

t.me/yasmeenbook

بقيت بالمدرسة لأني عارفه شو راح يصير. كنت فتاةً عنيدة ولست مستعدة للإصغاء لانتقاداته لي أكثر. أخبرتني صديقاتي اللاتي حضرن المحاضرة ما قاله وكيف أنه تحدّث عني بطريقة مُهينة. غضبتُ جدًّا، كنت أغلي من الغضب. ومع ذلك فقد مرّرتها له -أعترف أني.. كان بدي أزعجه. وبعد هذه الإهانة صرت أشدّ إصرارًا على التمرّد. والأمر نفسه مع أبي. كلما حاول منعي من قراءة الكتب التي تتكلم عن الماركسية أو ما شابهها، صرت أكثر إصرارًا على قراءتها. كرهت الاستسلام أو الضعف. هذا خطأ، بس هيك كُنت.

واجهتني متاعب أيضًا مع إدارة المدرسة الثانوية الدنيا؛ فقد كنت أخرج وصديقاتي للمظاهرات حينها. كان هذا قبل الانتفاضة -في أواخر السبعينيّات -فإن كان في ذكرى أو مناسبة -مثل أيلول الأسود[1]- كنّا بنطلع للمظاهرة. وأحيانًا -الصراحة- كنّا بنطلع للمظاهرات عشان المتعة بس؛ لأن ما بدنا نروح المدرسة في هداك اليوم. كانت إدارة المدرسة بتعاقبني وبتطلب حضور ولي أمري للمدرسة. بس ما عمري جبت أبوي؛ لأنه ممكن يحرمني من المدرسة كلها. كنت أجيب بداله أخوي الأكبر منّي -يوسف. يمكن ما كان مؤمن باللي بعمله، لكنه بحبني، وما حكى لأبوي أبدًا عن اللي صار.

مرّ الوقت وصرت في الثانوية العليا -من الصف العاشر للصف الثاني عشر- حيث صار لي بطبيعة الحال رؤى سياسية صلدة. كما بدأت أرى حاجتي للكفاح لأجل وجهة نظري. قرأت شتى المواضيع -كتب لفيكتور هوغو ومكسيم غوركي والكثير الكثير من الكتب السياسية. أذكر

---

1. في سبتمبر 1970 هاجمت قوات الملك حسين في الأردن الفدائيين الفلسطينيين في قواعدهم والمخيمات الفلسطينية في الأردن. قتل الآلاف من الفلسطينين أثناء هذه الهجمات، واضطرت المقاومة الفلسطينية لتحويل قواعدها إلى لبنان.

مكتبة ياسمين

كتابًا أثارني جدًّا. كان اسمه «الفدائيون». كتابٌ يتناول معكسر الفدائيين في الأردن، حيث دُرب المقاتلون على أداء المهمات الجهادية. انتابتني رغبةٌ في أن أصبح مثلهم.

بمرور الوقت عرفت ما يعنيه وضعنا باعتبارنا لاجئين؛ ففقرنا نتيجة الظلم الكبير الذي تعرض له الفلسطينيون. احتلنا «الإسرائيليون» واستعمرونا، وأجبرونا على ترك قرانا، وسلبونا أرضنا. هذا الجيش «الإسرائيلي» الذي أراه كل يوم أمام مخيّمنا هو نفسه الذي ارتكب بحقنا مظالم سنة 1948. إن لوالديّ الحق في البقاء في قريتهما القبو. بالنسبة لهذا الأمر فأبي وأمي سيوافقانني بلا ريب. شو لازم نعمل عشان الوضع اللي نحنا فيه؟ هاي حكاية تانية. لكن بلدنا في القبو، سمعت حكاوي عنها طول حياتي.

﴿

من وقت ما صرت بعمر بيسمحلي أقعد وأسمع، اتعود أبوي وأمي الاتنين يحكولنا عن القبو. حكولنا كيف انجبرت عيلاتهم على الهجرة سنة 1948. وأكتر من هيك، كانوا يحكلونا عن حياتهم في القرية. ما عليك غير تسألي سؤال واحد بس أو تحكي كلمة عن القرية، وراح تلاقي أمي أو أبوي يحكولك عنها لساعات. كان الإنصات لهما يحكيان عن القبو متعةً بالنسبة لي. وإن لم أكن غاضبة منهما في ذلك اليوم بالتحديد، فسأظل مصغية. استمتاعي كان أكبر بذكريات أبي في القرية، لأنه كان أوعى سنًّا لما رحلوا عنها، خلينا نشوف، لا بد أنه كان في الخامسة عشر من عمره أو قريبًا من ذلك. أمّا أمي فكانت في حوالي التاسعة. بيتذكّر أكتر منها، وذكرياته كانت أسعد وأمتع. عائلته مكوّنة من ثمانية أطفال، وكذلك عائلة أمي. لكن عائلته أغنى من عائلة أمي بكثير؛ فأبوه المختار، بينما عائلة أمي فقيرة. اضطر والدها للعمل

t.me/yasmeenbook

بعيدًا في مقالع الحجارة، حيث يبيت هناك في أغلب الأوقات، ولهذا كان على الأم والأبناء العمل في أرضهم. حكت لي كم هو شاقّ ذلك، وقد ألمت بصورة معاناتها الكاملة. مش سهل عليّ أسمع هالحكي.

لكن إذا استمعت لأبي فأتصور فورًا مكانًا بديعًا. في صغري كنت بحب أتخيل، رسمت هاي الصورة في عقلي عن القرية، وحتى عن التلة اللي وراها المزارع والشجر والجدول. حلوة، مش هيك؟ أبي يتذكّر القرية بتفاصيلها الدقيقة، اعتدت سؤاله عن كل ما يتعلق بحياتهم فيها. ما حكالي أبدًا كم دونم بيملكوا [الدونم حوالي ربع هكتار]، بحكيلي بس: «كثير». كانوا بيزرعوا الطماطم، والخيار، والبقوليات والعدس والقمح، وكل أنواع الفاكهة، وبيربوا حيوانات كمان، متل الخرفان والدجاج والأرانب. بعضه للاستهلاك وبعضه للمتاجرة. اشتهر أبوه بكرمه، وباعتباره المختار فبيتهم عامر بالضيوف على مدار اليوم، وبيذبحوا الخرفان لهم. مش بس بالمناسبات، على طول. بدا لي أنهم عاشوا حياةً رغيدة، كانوا أغنياء وسعداء. أعلم أن أبي لا يستمتع بشيءٍ قدر استمتاعه بالحديث عنها.

حدثني أبي أيضًا عن شقيقه الأكبر الذي حارب جنبًا إلى جنب مع الحسيني سنة 1936م ليثوروا ضد الانتداب البريطاني. كان بطلًا من الفدائيين. وساعدته أمه في قتاله هذا ضد البريطانيين بجلبها الذخيرة له. كان بإمكانها التسلل من بين الجنود البريطانيين لأنها امرأة، ولم يفكروا أبدًا في إيقافها. أبي لم يكن فدائيًّا، بل مجرد ولد صغير عندما دارت هذه الأحداث، لكنه معجب بأخيه وأمه كذلك. سألت كل ما يخطر على البال من الأسئلة عن هذا الموضوع، الكلام عنها كان بيأسرني كتير، وحبيت أعرف كل شي عن اللي صار سنة 1948، كيف وصلنا لحد التهجير من القرية ووين رحنا. كنت بدي أعرف كل شي بالضبط.

مكتبة ياسمين

بعدها لما صرت في مرحلة المراهقة زرنا القرية أخيرًا. تقع القبو بعد الخط الأخضر مباشرة[1]. ما بتبعد كتير عنّا، يمكن خمسة أو عشرة كيلو مترات. زرناها ثلاث مرات، ولما نكون هناك أبوي بيضل يحكي ويحكي، أما أمي فبتسكت في الغالب. ما كنت بعرف بشو بتفكّر لحظتها، كإنها بتختلي بنفسها. قمت بجولة مع أبي. كان مدهشًا لي تطابق كل ما على الأرض مع ذاكرته تمامًا. إن القرية مدمّرة الآن، سُوّيت بالأرض، حيث حوّل «الإسرائيليون» معظمها إلى متنزّه. رغم ذلك فأبي ما زال يعرف موقع كل شيء فيها على وجه التحديد؛ بيت أهله، والمسجد، والحقول. رحنا مشي على الحقول أنا وهو. في قطعة من الأرض مسطحة ناحية التل. كان لكل قطعة اسم. كان يحكيلي اسم كل قطعة، ويقول: «بتنتهي هون، بالضبط، وبعدها تبدأ قطعة كذا وكذا». فرجاني مكان بيتهم اللّي دمروه الإنجليز وحكالي كيف بنوه مرّة تانية. وفرجاني مكان مسجدهم القديم، وقبر جده، والجدول اللي تعوّدوا يسبحوا فيه، ومن وين بيجيبوا الـمَي. كنت أرشفُ شربة ماء دومًا عندما نذهب لهناك. ماءٌ عذب.

في كل زيارة من زياراتنا للقبو كنّا بنرجع بشي من هناك؛ أمي بتحب تعمل هيك. مرّة كانت ترجع بجركن مَي [حوالي 5 غالون]. بالنسبة إلها فهالـمَي غير، مختلف عن أي مي تاني بالعالم. كانت بتجيب رمل من القرية كمان. في مرة من المرات طلب خالي الذي يعيش في الأردن أن نرسل

---

1. في الخرائط العالمية للسنوات من 1948م إلى 1967م رُسم الخط الحدودي الفاصل بين «إسرائيل» والأراضي التي تشرف عليها الأردن باللون الأخضر. قرية القبو كانت تقع فوق الخط الأخضر بالضبط على حدود «إسرائيل»، بينما مخيم عايدة يقع تحت الإشراف الأردني. في عام 1967، عندما احتلت «إسرائيل» الأراضي التي كانت تُشرف عليها الأردن وضمت الضفة الغربية إليها، فإن عائلة سميرة -وبالطبع كل من يعيشون في الضفة الغربية -تسنّت لهم زيارة قراهم التي هُجّروا منها.

t.me/yasmeenbook

له بعض الرمل، فأرسلت له. كل فرد من أفراد العائلة ممن عاش في القرية ما زال مرتبطًا بقوّة بكل ذرة رمل منها، ويتحرّقون شوقًا إلى القرية، ولديهم إحساسٌ بأنهم سيعودون في يوم من الأيام إليها. حكتلي أمي إنها -بعدما هاجروا من القبو لما كانت صغيرة- طلبت من أبوها وأمها يشتروها ثياب جديدة للمناسبات، فحكالها أبوها: «ما في مناسبات غير بالقرية». بالنسبة لهم، فكل شي حلو وبيستاهل ما زاله مرتبط بالقبو.

ما بقدر أحكي إن عندي الشعور نفسه. بتفهم مشاعر أمي وأبوي، لكن ما عشت هناك اللي عاشوه. إذا سألت أمي فراح تحكيلك: «يوم من الأيام راح نعيش هناك مرة تانية.» ما بصدّقها. ألحقَ اليهود بنا ظُلمًا عظيمًا بإجبارهم والديّ على الرحيل من القبو، هذا أكيد. في الحقيقة، لن يعيدوها إلينا بأي طريقة، حتى وإن لم يعش فيها أحدٌ للآن.

معركتنا الآن -كما أراها- تكمن في التخلص من الجيش «الإسرائيلي» الذي يحتلنا في الضفة الغربية. عشت حياتي كلها في ظل الاحتلال، ومعركتي الآن -بل ومنذ دخلت عالم السياسة -هي ضد هذا الاحتلال. إن أعمال الظلم الماثلة أمام عيني ليل نهار هي التي جعلتني أنضم إلى النضال الوطني مذ كنت مراهِقة، أكتر من أيّ شي تاني.

٨

في المدرسة الثانوية العليا شاركت سياسيًّا أكثر من الثانوية الدنيا. التحقت بالمدرسة الثانوية في بيت لحم في الصف العاشر. كانت مدرسة للبنات أيضًا. خمسٌ من صديقاتي مهتمات بالسياسة مثلي. نخرج للمظاهرات كلما سنحت الفرصة، ونشجّع الفتيات الأخريات على الانخراط معنا في المظاهرات. كانت مديرة المدرسة ضد ذلك، فاتهمتنا بالتحريض، وفُصلنا من المدرسة. متل ما إنتي شايفه، هالكلام قبل الانتفاضة -كان سنة

مكتبة ياسمين

1978م- ما كان طلاب كتير بيطلعوا مظاهرات. الإضرابات والتظاهرات ما كانت مقبولة إطلاقًا، وإلا فالعقاب بينتظرك. بمجرد إعلان الانتفاضة صارت ردود الفعل السياسية مقبولةً أكتر.

لكن في تلك السنة لم أُفصَل من المدرسة لفترةٍ فحسب، بل شاركتُ فيما انتهى بي إلى دخول المعتقل. كان ذلك عملًا أحمق. بقصد، اللي عملته كان غبي. عملت شي هون بالمخيم. في المخيم في واحد متعاون مع «الإسرائيليين». كنت واثقة تمام الثقة من ذلك؛ فقد أُلقي على العديد من الناس هنا، وكنت واثقة أنه من أبلغ عنهم. لذلك قررت حرق سيارته. أخذت إطارًا واتجهت لسيارته، وعندما أوشكت على وضعه في مكانه ألقى القبض عليّ، وسلمني «للإسرائيليين» الذين ألقوني في المعتقل تسعة أيام. كانت غلطة سخيفة، حركة بلا طعمه، شغلة ما بعملها إلا الصغار. كنت حينها أبلغ خمس عشرة سنة ليس إلا. قضيت في سجن المسكوبية تسعة أيام. كانت تلك هي المرة الأولى التي أنتهي فيها خلف القضبان. ميتة من الرعب، مش عارفه شو راح يساوي فيني أو كيف بدي أتصرف. لما استدعوني لغرفة التحقيق، كنت متخشبة من الرعب. في محقق اسمه «أبو نهاد»، ما كان عربي، يهودي كان. كل المحققين ينتحلون أسماء عربية. كان يقترب منّي بينما يستجوبونني، فلمس كرسيّه كرسيي. وضع يده عليّ فحاولت الابتعاد أو الالتفاف، لكنه ظل يضع يده عليّ لأنه يعلم تمام العلم كم هذا مُهين للمرأة -خاصة العربية- وتبدّى له أنها الطريقة التي سينفذ من خلالها إليّ. كنت شديدة الذعر، وهو يتحدث معي بلغة بذيئة مهدّدًا بحبسي في زنزانة واحدةٍ مع نسوة معروفات بالإجرام. قال لي إنني لم أتكلم فسوف يحبسني مع نسوة قاسيات، وألمحَ لي لأفهم بأنهن سوف يؤذينني أو الله أعلم شو راح يعملن فيني. ما أذعنتله -مع إنها كانت أول مرة لي في السجن. في النهاية حبسوني مع امرأة كبيرة في السن، امرأة ضخمة من إحدى القرى القريبة من الخليل. كانت نصف

t.me/yasmeenbook

مجنونة. زوجها انقتل وهي بتبكي وبتصرخ وبتشقّ ثيابها. رعبتني كتير، أكتر من المحقق نفسه أو أي حدا تاني في السجن. ما اتجرأت أحكي ولا كلمة وحده معها طول ما أنا محبوسه هناك.

بنهاية اليوم التاسع أخلى «الإسرائيليون» سبيلي لأعود للبيت. كان والداي شديدي الغضب. لم أرهما عندما كنت في السجن. أمي كانت أشدّ غضبًا بسبب ما حصل لي. وأبي ساخطٌ عليّ. أما أخوتي فردّة فعلهم هي أن ما أصابني هو جزء من حياتنا ولا شيء يستدعي كل هذا الهياج. كنت أولى أفراد عائلتنا التي تدخل السجن، وثاني بنت في المخيم تُعتقل. أبوي حسّ إنها فضيحة وعار على العيله -بالذات لأني بنت. كان غضبان عليّ. كعقوبة طلّعني من المدرسة وخلاني بالبيت. أمي كانت متعاطفة أكثر معي، مش سياسيًّا، لكن إنسانيًّا. ما كان بإيدها شي تعمله مع هيك بخصوص العقاب، فسكتت، وأنا كمان. في يوم من الأيام -أخيرًا- غيّر أبوي رأيه وقال لي: «ماشي، ارجعي عالمدرسة!»

أنهيتُ دراستي العليا في القدس الشرقية، في أفضل مدرسة للصفين الحادي عشر والثاني عشر. وحصلت على منحة دراسية. شايفه، كنت بجد طالبة مجتهدة كتير، علاماتي كانت عالية رغم مشاركتي السياسية. المدرسة كانت منيحه للي بدّو يروح عالجامعة. وأنا رحت. كان في طلاب بهاي المدرسة من عائلات القدس الراقية، وعندهم معلمين خصوصي مناح. لكني واجهت مشاكل هناك كمان، مش لحالي، كل وحده متلي. للمرة الأولى في حياتي أتعرض للتمييز الطّبقي بانتظام؛ فبنات العائلات المرموقة يستحوذن على الأنشطة أو الدروس الخاصة في المدرسة. فلنقل، درسٌ في الموسيقى، لهنّ فقط. بالإضافة إلى هذا كانت المديرة والعديد من المعلمات يعاملن بنات العائلات المرموقة معاملةً خاصة؛ فهنّ متعاطفات معهنّ وودودات ولطيفات دومًا، بينما يكرهن ويحتقرن من هنّ من العائلات

مكتبة ياسمين

الفقيرة. أشعرتني مديرة المدرسة بأني في نظرها فتاة وضيعة. بيّنت لي إنها بتعتبرني المشكلجية، اللي بتسبّب البلاوي، صاحبة الشّعر المنكوش اللي ثيابها مبهدلة. حكَت لي مرّة بطريقتها البِشعَه إنها ما بتتوقع مني أعدّي التّوجيهي، وما بعمري راح أدخل الجامعة. ما ردّيت عليها أو أيّ شي متل هيك، لكن صمّمت أثبت لها إنها غلطانة. وعمِلْتها. من بين بنات صفّي الخريجات، كنت ثاني أعلى معدّل في التّوجيهي. كان معدلي العالي كافي إنه يدخلني الجامعة، وكافي إنه يدبّر لي منحة كمان.

ذلك من حسن حظّي؛ فيستحيل عليّ الذهاب للجامعة إطلاقًا دون منحة دراسية. والداي يؤيّدان فكرة التعليم، لكنهما لا يملكان مالًا لذلك. التحق خمسة منّا بالجامعة في الضفة الغربية -يوسف وأنا وسارة وإسماعيل ومحمود- وتخطّط ميسون للالتحاق بها العام المقبل. إن عائلتنا تقدّر التعليم باعتباره وسيلة لتطوير نفسك، والأمر نفسه بالنسبة للبنات أيضًا. لكن في زماني، ما كان عند أهلي فلوس لتعليمي إذا قررت أروح الجامعة سنة 1982م. ساعدوني أشتري كتب، مش أكتر من هيك.

ما كان عندي فكرة شو بدّي أدرس بالجامعة. كل اللي بعرفه إني بدي أعمل شي مميز بيوم من الأيام، أساهم مساهمة مميزة لشعبي. أحلام، أحلام، هذا اللي جبته معاي للجامعة. انتهيت إلى دراسة اللغة الإنجليزية -لا تسأليني ليش- في الحقيقة لم أكن مهتمة بدروسي ولا حضرت الصفوف بانتظام. كنت أكثر اهتمامًا بصديقاتي ونشاطي السياسي. كما أنني التقيت بزوجي في تلك السنة -سنتي الأولى من الجامعة- بينما هو في سنته الثانية في جامعة بيت لحم حينها، ومن مخيم عايدة أيضًا. أحببته؛ كان شديد الاهتمام بالسياسة. قابلته بطريقة عفوية ومباشرة. نادرًا ما رأيته في المخيم قبل ذهابي للجامعة. بعدها جاء عصام إليّ في أحد الأيام معرّفًا بنفسه، ثم أصبحنا أصدقاء لا أكثر. فيما بعد -بعد مضي أشهر قليلة- أخبرني عصام برغبته في إقامة علاقة جدّية

t.me/yasmeenbook

معي. كنتُ سعيدة بذلك لأني أحببته. إنه رجل من النوع الهادئ وشجاع الشخصية، شخصٌ تربط بينه وبين الآخرين في الحرم الجامعي علاقة دافئة. عصام منتمٍ لجماعة سياسية مختلفة عنّي -كان مع الشيوعيين وأنا مع جماعة عرفات، فتح. حاول العديد من الشباب الفتحاويين قطع علاقتي بعصام. قالوا لي إن التورط مع شخص ينتمي لجماعة سياسية أخرى يعدّ خطأً فادحًا، طنّشتهم. حبيت عصام وما كان عندي استعداد أتركه.

برّا الجامعة كان صعب نشوف بعض، بالذات هون في المخيّم. لكن أحيانًا كنت بروح أزور عصام في بيته بأي حال، من غير ما عيلتي تعرف. ما كانوا أهلي راح يسمحوا لي. إذا عرف أبوي فممكن يجنّ جنونه. أم عصام أصيبت بصدمة جراء زيارتي له على هذا النحو. كانت تقول: «كيف بتصير هاي؟ بنت بتزور شاب؟» خفت أن تخبر والديّ، لكن لأن عصام ابنها البكر فهو مسموع الكلمة ويحترمه والداه، فجعلهما يكتمان السر. كنت أجلس مع عائلة عصام، وأحيانًا معه وحده. كانت له غرفته، وصديقٌ اعتاد على زيارته فيها وكذلك أنا. فنتحدّث كثيرًا عن السياسة. لم يتّفق عصام معي دومًا ولا أنا اتفقت معه. لكن بيننا احترامٌ متبادل. لم يضغط عليّ لأتحول إلى جماعته، وما حاولت الأمر ذاته معه. كنّا نتحدث، ونتجادل، لكن لم يحصل أن وصلنا لنهاية سيئة. وبالتأكيد هناك الكثير من الأمور التي اتفقنا عليها اتفاقًا كليًّا. كنّا متفقين -أكيد- على الحاجة لمقاومة وطنية. اتفقنا أيضًا على الحاجة لاتخاذ مواقف شخصية. وهذا اللي جابلنا المشاكل، متل ما إنتي عارفه. ألقيَ القبض عليّ أنا وعصام. حكيتلك قبل هيك؟ ماشي، اللي صار التالي: مضينا على نشاطنا هذا نحن واثنان آخران فقبض علينا «الإسرائيليون» وألقونا في المعتقل. مكث عصام فيه لسنتين ونصف السنة، وأنا لثلاث سنوات.

لازم تفهمي إن الفترة اللي عملنا فيها عملتنا كانت أثناء حرب لبنان. صيف سنة 1982م كانت. «الإسرائيليين» كانوا اجتاحوا لبنان وقتلوا

مكتبة ياسمين

الفلسطينيين، رجال، نساء، أطفال. كنا نشوف هذا كل ليلة على شاشة التلفزيون، وطار عقلنا. أنا وصحابي كنّا بنغلي غَلي، وحسينا من واجبنا نعمل شي. أي شي. اجتمعنا بيوم وقررنا نهاجم مجنّدين «إسرائيليين». كان عملًا عفويًّا غير مخطط له إطلاقًا. انطلقنا لنقطة تفتيش الجيش خارج المخيم حاملين بأيدينا قنابل المولتوف، ورشقنا بها حافلة جنود ومستوطنين وهربنا.

لما بسترجع هديك الأيام حاليًّا، بشوف إنه ما كان شي نافع. بقصد، اللي عملناه عملناه بطريقة غبية. ما كان غلط من الناحية الأخلاقية. شوفي، بعرف إن اليهود بيشوفوني «إرهابية». لو كنت محلّهم، فمتأكدة إني راح أشوف نفس ما همّا شايفين. لكن إذا كان هالشّخص مكاننا، وحس بمعاناتنا مع الاحتلال كل يوم، معاناة حقيقية بقصد، يمكن وقتها يقدر يفهم ليش بنعمل اللي بنعمله. هناك أعمال من الخطأ القيام بها؛ فقتل امرأة وطفل -من وجهة نظري وشعوري -أمرٌ أرفضه. إذا ما طلب مني القيام بشيء مماثل فسوف أرفض. أنا أحب الأطفال جدًّا، فكيف يمكنني فعل أمر كهذا بأطفال الآخرين؟ لكن، يظل على المرء أن يتفهم ما الذي يدفع شخصًا للقيام بمثل ذلك. بالنسبة لنا -معشر الفلسطينيين- فإنها قضيّة أكون أو لا أكون. ونحن نريد أن نحيا بشرًا. لنا الحق وليس بإمكان أحد أن يسلبنا إياه، و«الإسرائيليون» يحاولون إنكار هذا حقّنا هذا. هم لا يحترموننا ولا يعاملوننا حتى باعتبارنا بشرًا مساوين لهم. إن من يقاوم الاحتلال ليس «إرهابيًّا» تجرّد من إنسانيته. إنه يقاتل ليستطيع شعبه أن يعيشوا بشرًا.

هيك بشوف الأمور. وأنا ما برفض الأساس الأخلاقي للي عملته. لكني بشعر مش أكتر -بالنظر للي عملته وقتها- إنه اللي عملناه كان أحمق بهديك الطريقة. كان من الطبيعي يمسكونا، ومن السهولة كمان يقتلونا -وهو اللي صار تقريبا. متل ما إنتي شايفه، بمجرد ما ألقينا قنابل المولتوف هرع الجنود راكضين في إثرنا. هرب كلّ منا في اتجاه مختلف، فأطلق الجنود النار في كل

t.me/yasmeenbook

مكان، وتطايرت الرصاصات من حولنا وأنا أجري بأقصى سرعة. كنت محظوظة لأني لم أصب. لم يصب أيّ منا -عرفت بعدين- لكنهم أمسكوني بسهولة، وعندها طرحوني أرضًا وانهالوا عليّ ضربًا ببنادقهم. استمرّوا في ضربي حتى أخذوني إلى مركزهم. ومن هناك انطلقوا بي لمكان آخر، وهو المكان الذي فتحوا فيه تحقيقًا معي.

الضابط الذي تولى التحقيق معي كان يطلق على نفسه اسم كريم. قاسٍ جدًّا. رجل بذيء فعلًا، وحقير وشيطان. بدأ بضربي بيديه وشَتمي. كان يعرف كل شيء عن عائلتي -فهو الذي اعتقل أخي حاتم قبل شهرين. كان حاتم في المعتقل بسبب إلقائه قنبلة مولتوف، ويقضي حكمًا بالسجن لمدة ثلاث سنوات حينها. كان هذا الرجل -كريم- بيعرف كل شي عنّه، وعنّا، وحاول ينتزع المعلومات منّي. لكن ما كان عندي شي أحكيه فعلًا. اللي عملته كان رد فعل عفوي، مش أكتر.

في المساء نفسه نقلوني من عند هذا الرجل -كريم- لسجن المسكوبية. نفس المكان الذي اعتقلت فيه منذ ثلاث سنوات ونصف مضت. حاولوا هناك عصر المزيد من المعلومات منّي، لكني كما قلت سابقًا -ما كان عندي شي يعصروه. ما عذبوني، تركوني هناك وحاكموني. ما كانوا في حاجة لاختلاق شي ضدّي؛ لأنهم قبضوا عليّ متلبسة. في المحاكمة قالوا إن قنابل المولتوف اللي رميناها عليهم تركت أضرار بالحافلة، وإنّو حدا منهم إصابته خطيرة. ما كان عندي أدنى فكرة إذا القنبلة اللي رميتها عملت أي ضرر. أنا رميتها وهربت بس. على كل حال، حكموا عليّ بالسجن ثلاث سنوات في المعتقل. بعد شهر نُقلت من المسكوبية إلى معتقل الرّملة، حيث قضيت السنوات الثلاث التالية فيه.

عندما بتّ في ذلك المعتقل جاءت عائلتي لزيارتي. كانوا أوفياء جدًّا،

مكتبة ياسمين

يأتون لي متى ما سُمحَ لهم. فقد كان يسمح لهم بالزيارة مرّةً واحدة كل أسبوعين لمدّة نصف ساعة. في البداية صعب عليّ رؤية الألم في عيونهم عندما جاؤوا في المرة الأولى. حاولوا أن يبدو مَرحين، لكن ما زال بإمكاني رؤية مقدار الألم البادي عليهم. أنا وحاتم كنّا في السجن بنفس الفترة. من الصعب عليهم تحمّل ذلك. بالإضافة إلى ما لم أعرفه طوال هذه الزيارات الأولى، والذي لم يقل والديّ شيئًا حياله -وذلك بعد عشرة أيام من اعتقالي- وهو أن الجيش «الإسرائيلي» دمّر منزلنا. سوّته جرّافة بالأرض. اكتشفت ذلك لاحقًا عن طريق الجرائد. عندما قرأت ذلك الخبر أصبتُ في مقتل. منذ تلك اللحظة وصاعدًا بدأت أشعر بذنب فادح لأني أذيتُ عائلتي، آذيتهم فعلًا. كانوا يا دوبهم زادوا غرفتين جداد على البيت قبل ما أدخل السجن، وهسّه المكان كله انهدم. رفض أبوي عروض الناس ليعيش في بيوتهم. حكى إنه راح يضلّ بمحل ما بيته كان، مش بأي مكان تاني. انتهى بهم الأمر بالعيش في خيمة قريبًا من موقع البيت المدمّر، وكان ذلك الشتاء قاسيًا. البردُ قارصٌ والمطر والثلج غزيرين. أعرف أنهم لا بدّ قاسوا الكثير، رغم أنهم كتموا عنّي الأمر، وكانوا يوصوني بالاهتمام بنفسي فحسب. كان ذلك أصعب شيء بالنسبة لي وأنا في السجن. ما حسّيت بتحسّن إلا بعدما عرفت إنهم رجعوا يبنوا البيت. عندها فقط شعرت أن الحياة دبّت في أوصالي من جديد. عرفت أنهم سيصبحون بخير. كان ذلك بعد حوالي عشرة أشهر من اعتقالي.

بالنسبة لكوني في المعتقل، فما كان في شي مختلف، عالأقل كان هيك بوقتها. كنت في زنزانة الأسيرات السياسيّات، كلهن نساء فلسطينيات. في الزنزانة المجاورة لنا نساء يهوديّات، لسن سجينات سياسيّات، إنما هنّ في السجن بسبب جرائم سرقة وقتل ومخدرات وغيرها، وكنّا نحتكّ بهنّ بالتأكيد. نشرب القهوة والشاي معًا ونتبادل النكات. لم نكن نتحدّث عن السياسة؛ فذلك يجرّنا للمشاكل، لكننا نحاذيها. بطريقةٍ ما كنّا نتشاطر العدو

t.me/yasmeenbook

نفسه -الحارسات والشرطة- وبالنسبة لهم كما بالنسبة لنا فالحكومة أيضًا عدوّتهم؛ فهي لا تعاملهم معاملةً حسنة. معظم هؤلاء النسوة من الطبقة الدنيا، لم يكنّ عدواتٍ لنا وكان أمر تعاطفنا معهنّ واردًا. معظمهنّ طيبات القلب فعلًا. ولذلك تعاملنا مع بعضنا بعضًا بالحُسنى.

وطبعًا، كوّنت صديقات حقيقيّات من بين هؤلاء النسوة. ما زلت أرى بعضهن لليوم. نزور بعضنا بعضًا أو نتصل ببعضنا بالهاتف. بعض هؤلاء النساء شخصيات رائعة. لا يعرف أحدٌ الكثير عنهنّ، لكن بعضهن يتمتّعن بمكانة أخلاقية توازي ما لنيلسون مانديلا -على الأقل هيك بشوف أنا. هنّ متميزات ولا شك. إن احتكاكي بهن ساعدني كثيرًا على التغلغل في أعماق الأسْر، ولأصبح إنسانة ناضجة. عندما دخلت المعتقل كنت في الثامنة عشرة ليس إلا، مجرد طفلة. من هالسِّتّات اللي ضمتني تحت جناحها ووجّهتني وساعدتني على تطوير نفسي. في زنزانتنا نشأت صداقة حميمة فعلًا. ما كان في أنانية، إنما شعور مشترك بيننا، اللي بيخصني بيخص الجميع. حتى الحارسات احترمونا بطريقة ما، لأنهن شافن كيف بنتعامل مع بعض.

طوّرت النسوة في المعتقل برنامجًا دراسيًّا يمكننا الانضمام إليه إذا ما رغبنا، فقد كانت بعضهن على مستوى تعليمي عالٍ، ويعرفن كل ضروب الموضوعات. سعدتُ بانضمامي ودراستي. صمّمت ألا أضيع وقتي في المعتقل، وأن أفعل ما أمكنني لتطوير نفسي. تعلّمت الإنجليزية هناك -تقريبًا كيفية القراءة. وتعلمّت الكثير حول -أظن بتقدري تسمّيها- العلاقات الدولية. درسنا عن اليابان والصين والجزائر واليمن -التغييرات السياسية والثورات اللي صارت فيها. وما في داعي أحكي إننا درسنا المشكلة الفلسطينية. كانت النسوة المتعلمات المطلعات على هذه المواضيع يقدّمن محاضرات عنها. ونحصل على بعض الكتب من مكتبة المعتقل. أما المواد الأخرى -تلك التي نحتاجها ولا تسمح بها سلطات السجن

مكتبة ياسمين

-فنتدبّر أمر تهريبها. نهرّبها في الزيارات العائلية؛ حيث تطبع المواد بخطّ دقيق على قصاصات صغيرة من الورق الملفوف بالبلاستيك، كنا نبتلعها أثناء الزيارات، ونستخرجها فيما بعد في الحمام، وننزع عنها البلاستيك وننسخُ بسرعة المادة التي فيها على الدفاتر، ثم نتخلّص من النسخة الأصلية. أمسكت بنا الحارسات ونحن نقوم بذلك واكتشفننا عددًا من المرات، لكننا لم نتوقّف عن فعلها، كمّلنا اللي بنعمله.

على كل حال، بالإضافة لحضور جماعات الدرس انشغلت بالعمل في المعتقل. أنا اللي بكره شغل البيت انتهيت للشغل في مطبخ المعتقل! اشتغلت فيه لسنة لحد ما نقلوني للشغل برّه في الحقول -إزالة الأعشاب الضارة وإزاحة الصخور وشغل من هالنوعية. ما كانت شغله تسعدني، لكنها نفعتني. القاعدة في المعتقل تقول إنك إذا لم تعملي فلن يُسمح لك بالخروج من الزنزانة إلا ساعة واحدة في اليوم. أما نحن اللواتي نعمل فيسمح لنا بالخروج أكثر من ذلك. سُجّلت بعض النسوة للعمل في محلات خياطة ومجموعة صغيرة منهن أيضًا سجلت للعمل في مصنع ينتمي لشركة «إسرائيلية» ضخمة. لم أرغب في القيام بهذه الأعمال. كنت بطبخ للمعتقلات وبشيل الحشيش غير المفيد بس ما كان في نيّتي أفيد اقتصاد «إسرائيل» بأي شي. شعرت العديد منّا بذلك أيضًا، مما أدى في نهاية المطاف لمواجهة كبيرة في المعتقل. بلّغنا الحارسات -نحن الأسيرات الفلسطينيات -بأننا لن نعمل هناك، بل أكثر من هذا أيضًا، بأننا من اليوم فصاعدًا سنطهو للمعتقلات فحسب لا للحارسات، إذ كنا في ذلك الوقت نطهو للحارسات أيضًا. ردّت سلطات المعتقل على ذلك بقسوة وصرامة. قابلوا ذلك بحرماننا من زيارات عائلاتنا وإغلاق المكتبة، مما أثار غضبنا حقًّا. صرنا نصرّخ وندقّ على أبواب الزنازين، فجابولنا حرّاس رجال رشّونا بغاز مسيل للدموع. بعدها عملنا إضراب عن الطعام استمر ثمانية أيام وصارت له شعبية كبيرة. بعض

t.me/yasmeenbook

المجموعات اليهودية متل السلام الآن، ومجموعات نسائية تضامنّ معنا. وفي النهاية جاء وزير مفوّض بالسجون «الإسرائيلية» -حاييم بارليف- وأبرم معنا اتفاقية تنص على أنه لا يتوجّب على أحد العمل في مصانع أو محلات تنتج للاقتصاد «الإسرائيلي»، ولم يعد علينا الطبخ للحارسات أيضًا. وهذا اللي صار. رجعت الحياة لمجاريها.

اليوم الذي خرجت فيه من المعتقل كان غريبًا؛ فعصام هو الذي جاء لاصطحابي. بقينا على اتصال أثناء الفترة التي كنا فيها في المعتقل معًا؛ حيث تدبرنا أمر تبادل الرسائل المهربة بيننا. وفيما بعد خرج هو من المعتقل -قبلي بستّة أشهر -وجاء لزيارتي مرّتين. لكني ما كنت على علم بقدومه في اليوم الذي خرجت فيه من المعتقل. متل ما إنتي شايفه، توقعت إطلاق سراحي في الخامس من أغسطس سنة 1985م، لكن سلطات المعتقل رفضت إخراجي وقالوا إن عليّ الانتظار للثامن والعشرين من أغسطس. ذهب عصام ليتحرى الأمر دون أن يخبر عائلتي أو يخبرني، واكتشف حدوث خطأ ما. فيوم الإفراج عني يفترض أن يكون الخامس من أغسطس، وادّعت سلطات المعتقل أن ملفي مفقود -شي متل هيك. بعد عدّة أيام -كان ذلك في الثالث عشر من أغسطس- أذكر قدوم الحارسة إلي، قالت سيفرج عنّي اليوم. ما كنت مستعدّة شعوريًا وقتها. لكنهم أفرجوا عني على أي حال. ولما مشيت خارج المعتقل، مين كان هناك؟ عصام، وصاحبه. بدّك الصراحة، ما توقّعت أشوفه. كانت مفاجأة حقيقية بالنسبة لي.

مكتبة ياسمين

أم عبدالله

نزولًا من الزقاق شديد القذارة من بيت سميرة، وعلى بعد خمسين مترًا يقع بيت أم عبدالله (حليمة) -البيت الذي أعيد بناؤه سنة 1982م بعدما سُوّي البيت الأصلي بالأرض. إن أساس البيت الجديد بسيط وغير جذّاب؛ بناءٌ إسمنتيّ من طابقٍ واحد، ومكوّن من أربع غرف وخلفه قنٌّ صغيرٌ للدجاج في الخارج، وبستانٌ من الزيتون نُثرت القمامة على أحد جانبيه (حيث عاشت العائلة في خيمة لعشرة أشهر سنة 1982). يعيش في البيت اليوم مع أم عبدالله زوجها أبو عبدالله وأبناؤهما غير المتزوجين الباقين، أربعة أولاد وبنت. جميعهم في سن المراهقة أو أوائل العشرينيات.

لم تجر لقاءاتنا الأولى مع أم عبدالله في بيتها، فقد كنا نخشى جميعًا ممانعة زوجها لمشاركتها، أو أن يزعجه ذلك بأيّ شكلٍ من الأشكال، ولهذا فقد قررنا مقابلتها في بيت سميرة بينما تكون الأخيرة في عملها. وفي آخر الأمر دعتنا أم عبدالله لزيارتها في بيتها (بينما كان زوجها في الخارج). عقدنا مقابلاتنا الثلاث الأخيرة في مجلسها الذي ازدان بصورة زوجها وأمه الصارمة اللذان كانا يحدّقان للأسفل من على الحائط ذي اللون البيج، والمروحة القديمة أو مدفأة الكيروسين التي تهمهم أو تهسهس هي الأخرى حسب الجو.

ما تزال أم عبدالله -التي تبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا- تبدو امرأةً جذّابة، بوجنتيها بارزتين وعينين عسليّتين، وابتسامةٍ مفتعلة، بل نادرة.

t.me/yasmeenbook

يداها -حتى وهما مزيّنتان بالخواتم الثلاثة التي تلبسها -تبدوان خشنتين كيدي فلّاحة. وفي ثوبها الأسود المطرّز وشاشيتها البيضاء بدت كأنها ما تزال امرأةً قرويّة. ثرثارة بالفطرة، كانت أم محمد مطّلعةً على المقابلات، ومثلها مثل العديد من النسوة الفلسطينيات في سنّها، لديها شعورٌ عميق بالغضب -والفخر- كونها عاشت أثناء تلك الفترة وتحمّلت تاريخًا قاسيًا. إذ تردّد قائلة لنا: «ذُقنا، ذُقنا». بدت كمن استطاب فرصة تدوين هذه الحكاية في كتابٍ لشخصٍ ما، في مكان ما، ليقرأ.

إن قصة أم عبدالله تمثّل صرخةً من القلب، خاصة عندما تستعيد الأحداث السياسية -حيث ينتابها شعورٌ عارمٌ وتتوحّد مع كونها واحدة من بين أكثر من سبعمائة ألف لاجئ فلسطيني في حرب سنة 1948. كما أن حقيقة قضاء خمسة من أبنائها السبعة أحكامًا بالسجن باعتبارهم أسرى سياسيين تركت بصمةً لا تمحى عليها. عندما نتحدّث عن هذه الأحداث تبدو كمن لا يتحدّث إلينا، بقدر ما تتحدّث إلى قارئ، في مكانٍ ما هناك.

في ضوء ذلك، ربما لا يثير الدهشة أن تكون أم عبدالله المرأة الوحيدة في الكتاب التي رغبت في استخدام اسمها الحقيقي. لكن زوجها وعائلتها أشاروا عليها بغير ذلك، وفي نهاية الأمر وافقتهم على مضض، رغم أنها أصرّت أن نطلق عليها اسم أختها الكبرى، حليمة. وهذا ما سنفعله.

في الاقتباسات التالية المأخوذة من لقاءاتنا الأولى معها، تستعيد أم عبدالله ذكريات حياتها صبيّةً في قرية القبو، وتهجير عائلتها في حرب 1948، وبعض ذكرياتها العادية وغير العادية امرأةً فلسطينيةً شابّةً ولاجئة.

١

أنا من قرية القبو التي تبعد عشر دقائق بالسيارة من هنا. أنا وزوجي

مكتبة ياسمين

وكثيرون من قاطني مخيم عايدة منها. إن لدينا بعض الخراف من القبو. صحيح، هذه الخراف من نسل تلك التي جاءت من القبو عام 1948. ما زلنا نحتفظ بها. لكنها كل ما نملكه، كل شي غيرها راح. القبو صارت ردم. اليهود سووها بالأرض سنة 1948 بعدما هجّرونا. نستطيع التعرف إليها الآن بصعوبة. نحنا اللي عشنا فيها بس بنقدر نعرفها وكيف كانت زمان.

بتذكّر، كان عمري تسع سنين لما رحلنا لكني بتذكّر. بتذكّر حرب سنة 1948 كمان، أكيد. يا الله، احكيلي ليش رحلنا؟ ليش؟ لهاليوم، بسأل حالي هالسؤال. لو إنا بقينا! كان لازم نبقى، مهما حصل. الناس كانت خايفه. بتذكر الكبار بيحكوا. «الحرب جايه قريب» «شو نعمل؟» كنا بنشوف النار من مسافة. القبو قرية مبنية فوق تلّة. كان بإمكاننا رؤية الدخان يتصاعد من عين كارم، ولِفته، والملحة، ودير ياسين، حيث يتناهى إلى سمعنا صوت طلقات البنادق والقذائف. هناك قريتان قريبتان منّا، وصلنا أهلها بعدما هجّروا منها، وبقي بعضهم في القبو لفترة من الزمن. جلسوا معنا وحدّثونا.

كنا جميعًا خائفين، مذعورين. سمعنا عما فعله اليهود في دير ياسين، كيف ذبحوا أهلها. ظنّنا أننا سنلاقي المصير ذاته، وعليه فمن الأفضل لنا أن نرحل قبل أن نلاقي حتفنا، وهذا ما قرّره الرجال. جاؤوا ببعض الشاحنات في أحد الأيام. يومٌ باردٌ مطيرٌ من أيام أكتوبر، وحملونا على ظهر هذه الشاحنات. أنا ووالديّ وكل الأطفال. كل القرية استقلّت هذه الشاحنات حيث سارت بنا إلى بيت ساحور، التي لا تبعد كثيرًا عن موقع سكنانا الآن. سرنا إلى الحقول حيث لا مكان نأوي إليه. تساءلنا: «شو اللي راح يصير إلنا؟» ما حدا بيعرف، لكنا صرنا نعرف هَسّه.

يا الله، شو هالغلطة! بحلف، كان لازم نظلّ. من هداك اليوم وكلنا بنلوم حالنا لأنا رحلنا. لو ظلّينا، يمكن اليهود ذبحونا، ويمكن لأ. في قرى

t.me/yasmeenbook

ظل فيها أهلها متل أبو غوش، وحافظوا عليها. لو إنّا ظلّينا، حتى لو ذبحوا شوي منّا، أو معظمنا، يمكن كان القرية نَجَت. كان عاش بعضنا، وظلّت القبو موجودة. بدال هيك شوفي شو حصل! عايشين حياتنا في المخيم وما عنّا شي، والقبو اتسَوَّت بالأرض. حوّل اليهود نصفها إلى غابة ليتنزّهوا فيها! والباقي عبارة عن أطلال، أصبحت أثرًا بعد عين. إذا ذهبت إليها فلن تعرفي أبدًا كم كانت مكانًا جميلًا. إحنا اللي عشنا فيها بنتذكّر القبو على حقيقتها، كيف كانت أياميها. مين بيقدر ينسى؟ مستحيل أنسى.

كانت قرية جميلة. جَدّ. كل حد بيحكي هيك. الناس يزورونها من كل مكان ليروا مناظرها الخلّابة، والنسيم الغربيّ، حلو وبيردّ الروح، مش متل هوا المخيم اللي ريحته كلها مجاري. بحلف إن القبو كانت متل جنّة عدن. فيها جدول ماء يجري أسفل القرية ليصبّ نزولًا في جدول آخر على جانب التلال حيث يقتفي قطع الأراضي التي كنا نزرع فيها المحاصيل. في الربيع تتفتح الأزهار البرية على التلال وتزهر أشجار الفاكهة. آه على زهور السفرجل! بتشمي ريحتها من كل ناحية في القرية. كانت القبو جنة عدن، بحلف لك.

عيلتي كانت من الفلّاحين، متل كل الناس. ما كنّا أغنياء ولا فقراء. يعمل أبي وأمي في الحقول معًا. أمي تعمل أكثر؛ ويقضي أبي معظم وقته خارجًا في مقالع الحجارة حيث ينام هناك، بينما يترك أمي مع البارودة لترعانا، وتهتم بالمحصول. تستطيع أمي القيام بأعمال الرجال. بإمكانها الحرث خلف البقرة مثل رجل، وعندما يحين البِذار تستطيع إنجاز ضعف ما ينجزه أبي؛ فبينما يبذر أبي عشرين صفًّا تبذر هي أربعين. أي والله، ما في حدا شغّيل متل أمي! في أيام السوق كانت بتحمل سلة خضار في كل إيد -كل وحده بتوزن خمسين كيلو جرام- وولد صغير على ظهرها، وتنزل التلة مع خيط الفجر.

مكتبة ياسمين

تركب القطار الذي يمر بالقرب من مصبّ الجدول، وفي عشر دقائق تصل إلى القدس، فتمضي يومها في البيع لتعود مساءً بحصيلة وافرة من النقود. كانت تاجرة ذكيّة، شاطرة كتير.

عادةً ما يكون المحصول وفيرًا، فيكفينا ويفيض للبيع في السوق. زرعنا العديد من النباتات كالقمح والشعير والحمص والعدس والزيتون والخيار والبصل، وكل أنواع الفواكه كالعنب والصبار والسفرجل والخوخ والمشمش والتفاح. كانت لي شجرة تفاح، وارفة الظلال كمظلّة، أستلقي تحتها فتتساقط ثمارها عليّ. وكانت لي شجرة تين سمّيتها قَرَوي. تثمر تينًا أخضر فاتحًا لبّه شديد الحمرة. ربّينا النحل الذي يتغذّى على أزهار شجرة التين. لعسله طعم مميز، طعم طبيعي وليس صناعيًّا. فوق كل هذا، ربّينا الحيوانات بالطبع. مثل الدجاج، والماعز، والخراف. لكل عائلة حوالي مائة رأس من الخراف والماعز. كنا نذبح خروفًا أو اثنين ونعدّ وليمة عامرة في المناسبات، أو عندما يأتي الضيوف. ما كان فيه ثلاجات، لهيك بناكل اللحم كله بعد الذبح في كمّن يوم وهو طازه، وطعمه طيّب. مش متل اللي بناكله اليوم. أبوي كان كريم، إذا زاره ضيف بيذبح لهم خروف وبيكرمهم. وأمي كانت ست من يطبخ، طبخها في الطابون أحسن واحد في القرية. بتذكّر، آه بتذكّر. هديك الأيام اللي كانت بالقبو!

كنا مبسوطين هديك الأيام. كنت أخرج إلى الكروم في عمر الخامسة، السادسة، السابعة، مع أخواتي وبنات أعمامي. نحرس قطوف العنب لنتأكد أن أحدًا من الأطفال الآخرين لن يسرقها. نلعب كذلك في الخارج؛ نبني أحيانًا بيوتًا صغيرة من الحجارة ونصنع الدمى من خرق القماش، أو نلعب الغمّيضة، أو الخمس حصوات، أو نلعب الزّهر كالأولاد تمامًا. نلعبها على الأرض بالقلول والحفر. كنت أشطر وحده فيها كمان.

t.me/yasmeenbook

كان خاطري أروح المدرسة متل بناتي. لكن في هديك الأيام ما كان في مدرسة للبنات بقريتنا. ولا مدرسة للأولاد كمان، مش لـمّا انولدت. اللي كان موجود هو الكتّاب، بيروح عليه الأولاد بيقعدوا على الحصيرة على الأرض وبيتعلموا القرآن ويمكن أشياء تانية كمان. راح واحد من أخوتي للكتّاب. بعدها بنوا غرفة للدراسة راحوا عليها ولاد العيلة الصغار. أما أنا وخواتي فما كان عنا شي. يا خسارة، بجدّ.

عندما لا ألعب فإنني أعمل؛ عملًا مثل رعي الغنم. كان أبي يوليني ثقته في هذه المهمة، فآخذهم إلى المناطق المعشبة. اعتادت الحملان عليّ وصارت تتحدث إلي.. بااااع.. بااع! ولا تخرج إلّا معي. فيما بعد، لـمّا كبرت، كانت تباع أو يذبحها أبي. صعبّ عليّ ذلك لأني افتقدت تلك التي راحت. أذهب للمكان الذي ذُبح فيه أحدها وأفكر فيه، متذكرة تلك الأيام حين أخلع سترتي في الشتاء وأضعها على الحمل لتدفئته. كنت بحاكي حالي، ما بعمري حكيت لحدا. حبيت هدولاك الحملان.

خلينا نشوف، غير شغلي مع الحملان، كنت بساعد أمي، بشغل البيت أو بالحقل، أي شي بتطلبه مني. كنت بنت صالحة، وطفلة مطيعة. تحكيلي أمي: «يا حليمة، روحي للجدول هاتي مَي» فبروح أجيب مَي. «يا حليمة روحي دوّري على الغنمات»، فبروح ألاقيهن. أو تقول لي: «روحي على الحقل وجيبي شويّة بصل»، فبروح بجيب. «روحي اقطفي عنب»، فبروح بقطف. «روحي اقطفي شوية تين، اقطفي المستويّة اللي فوق الشجرة»، فبروح بقطف تين. آه، يا ما اشتغلت.. يا ما اشتغلت.

لكن بجد، اللي كان يشتغل أكتر منّي هي أختي الكبيرة، اللي بدي ياكم تحطّوا اسمها بدالي في الكتاب. تكبرني بثماني سنوات، وتؤدّي كل المهام الشاقة في البيت والحقل أيضًا. يا للأسف! زوّجها أبي في الثالثة عشرة من

مكتبة ياسمين

عمرها. جرت العادة في ذلك الوقت على تزويج الفتيات في الثانية عشرة والثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، حيث جعلوها تعمل في حقول حماها. هذا ما حصل لأختي. كانت عائلة زوجها ترهقها في العمل وتضربها أيضًا. وبعد أربع سنوات من زواجها ذهب أبي وأرجعها، طلّقها. لم ترزق بأطفال، ولذلك وافقت عائلة زوجها. عادت للبيت ولم تتزوج مرة أخرى حتى بلغت الثلاثين من عمرها. رزقت بزوج طيب في المرة الثانية، ولديها الآن ثلاثة أطفال. اتبهدلَت في حياتها الأولى أختي هاي.

نفس الشي حصل مع أمي كمان. تزوجت في الحادية عشرة. يا حرام! حصل هذا لأن أمها توفيت بينما كانت تبلغ الثانية من العمر، لم يكن لدى والدها من يساعده في تربيتها. كانت له أخت متزوجة في القرية ولها ولد. وهكذا، رتّب والدها أمر زواجها من ابن خالتها عندما بلغت الحادية عشرة من عمرها. قال لهما الشيخ الذي وافق على كتب الكتاب: «ما تعجّلوا بالزواج، استنّوا سنتين زمان». أمي ما كانت بدها تتزوج، لكن في هذاك الوقت بتتزوجي لما أبوك يقرر يزوّجك. ما بتتجرأ الوحده تحكي كلمة. كانت تحكيلي: «كنت لسّه بلعب مع البنات لما أخذوني». بعد كتب الكتاب راحت تعيش في بيت خالتها. عاشوا مع بعض في غرفة وحده. بعد ذلك لما بلغت الرابعة عشرة تم الزواج، وفي الخامسة عشرة رزقت بمولودها الأول، طفلة.

أقسم بالله، حياة المرأة في تلك الأيام صعبة. كانت تعمل في البيت والبيارات وترعى أطفالها. وبتفكري حدا كان يرحمها لما تكون حامل؟ لازم تروح السوق شايله السلال على راسها وفي إيديها، كل هذا وهي حامل. وبتشتغل بالأرض لحد ما تولد. بلحظة بتشتغل بالمجرفة وباللحظة الثانية بتوقف تا تولد. أجل، هناك في الأرض تساعدها النسوة. قد تذهب إحداهن للقرية لتحضر مقصًّا لتقطع الحبل السّري وتجلب غطاءً أو بطانية تلف بها

t.me/yasmeenbook

المولود. سمعت أن رجلًا في إحدى المرات كان يعمل مع زوجته في البيارة لوحدهما حيث لا نسوة في الجوار لمساعدتهما. فقام زوجها بذلك بنفسه، لكن بما أنه لا يملك مقصًّا فقد أخذ حجرين وقطع بواسطتهما الحبل السري، ثم عاد للقرية معها والمولود. مشت حافية القدمين وطفلها على ذراعها. بتتخيلي؟ هيك كانت بتشتغل النسوان. بعد يومين -آه يومين على ولادتها- بترجع للبيارة بمجرفتها تشتغل عادي! مش مزبوط هالشي بس هيك كانت الأمور ماشية.

أحكيلك شغله، أحيانًا أفكّر أن الله انتهى بالفلسطينيين إلى هذا المصير بسبب كل تلك الطرق السيئة التي عاملوا بها نساءهم. لإجبارهم النساء على العمل طوال اليوم في الحقول، وحمل الأمتعة الثقيلة على رؤوسهن، ومنحهن ساعات قليلة فقط من الراحة كل ليلة. قسمًا بالله هاي جريمة! بعتقد الله بيعاقب الفلسطينيين عليها، لهيك أخذ منّا قرانا.. جد، هذا اللي بفكّر فيه.

بتعرفي مين اللي عامل نسواننا منيح؟ الإنجليز. كنت طفلة فترة تواجد الإنجليز، لكني أذكر هذه الأمور. إذا رأى الإنجليز رجلًا يضرب زوجته فإنهم يوقفونه ويضربونه عوضًا عن ذلك. كذلك إذا رأوا امرأةً تمشي حاملةً متاعًا ثقيلًا على رأسها وزوجها يمشي خالي اليدين فإنهم يأخذون بعضًا مما تحمل ويعطونه لزوجها. أو حتى إذا ما رأوى حمارًا يحمل متاعًا ثقيلًا جدًّا، فيجعلون صاحبه يحمل شيئًا من متاعه بنفسه. في إحدى المرات عندما كنت مع جدتي -العمياء- وهي تمشي حافية القدمين، جاء ضابط إنجليزي وساعدها للوصول لبيتها، مزيلًا عن طريقها الأشواك والأحجار. بتذكّر هيك أمور، آه بتذكّرها.

لكن شوفي، للإنجليز وجه ثاني. حكولي عنه. دمّروا بيت جدّي لأن أحدًا من أفراد عائلته قاوم ضدهم. فدائي كان. أنا بحكيلك عن فترة ثورة

مكتبة ياسمين

الفلسطينيين في الثلاثينيات. واجهت عائلة زوجي المشكلات أيضًا، وعديد منها مع الإنجليز. كان والد زوجي هو المختار، وأخوه الأكبر فدائي. أصيب في إحدى المرات في كلا ساعديه، فأخذته أخته إلى قريةٍ أخرى وخبأته في طابون ضخم، ووضعت على جراحه زبدة الحليب لأربعين يومًا حتى شفي. وحالما تحسنت حالته عاد للقتال مع الفدائيين ضد الإنجليز. عملت أم زوجي على مساعدة ابنها؛ حيث كانت تخبّئ الذخيرة للفدائيين بإخفاء الرصاص في الخبز كما لو كانت شطائر. في إحدى المرات جاء الإنجليز بحثًا عن الذخيرة في بيتها، لكنها دبّرت أمر إخفائها في القمامة، ودعَت الإنجليز -عوضًا عن ذلك- لتناول الغداء، ولم يجدوا الذخيرة أبدًا.

هذا اللي سمعته عن الإنجليز. بعرف إنهم ما كانوا صحابنا. حاربونا، وسببولنا بلاوي كثيرة. هذا الوجه الثاني للإنجليز. مين بيقدر ينسى؟ أنا ما بنسى. بتذكّر كل هذا.

٨

شو اللي حصل لما هاجرنا من قريتنا في الـ48؟ كل شي.. كل شي ممكن تتخيليه، ذُقنا.. ذُقنا. في بيت ساحور قدرنا نلاقي قُرنَه في بيت نتأجرها. في القُرنة الثانية كان في عيلة ثانية، وفي الثالثة عيلة غيرها. لم يكن عندنا ماء وأجبرنا على البحث عنه جميعًا، فإذا ما وجدنا أيًّا منه سواء نظيف أو قذر كنا نشربه. قضينا وقتًا عصيبًا، صدقيني. بيت ساحور مجتمع مسيحي، و.. شوفي، زوجي حكالي أمسك لساني وما أحكي عن هالمواضيع. هدول الناس بيعيشوا متل عيشتنا اليوم، وتحت الاحتلال «الإسرائيلي» متلنا كلنا. في حرب سنة 1967، لما أخذ «الإسرائيليين» بيت ساحور واللي حواليها، ذكّرنا هدول الناس وحكينالهم: «صرتوا متلنا هسّه». لكن شوفي، اللي صار سنة 1948، والطريقة اللي لجأنا فيها، تكررت في بيت ساحور، خلينا ننسى

t.me/yasmeenbook

اللي حصل. المهم أننا تدبرنا إيجاد الماء هناك، ووجدنا ما نأكله. دبّرنا حالنا.

بعد حوالي ثلاث سنوات انتقلنا للعيش في مدينة مجاورة لنا، بيت جالا، إنها بلدة مسيحية أخرى. على الأقل كانت هكذا، فنصفها الآن من المسلمين. دبرنا حالنا هناك كمان. بقصد، ما كان سهل، لكن ما بدي أخوض في هالحكي. زوجي حكى لي: «سيبك اللي صار في بيت جالا في حاله، احكي منيح.» المحافظ كان طيّبًا معنا، وساعدنا بإن عمل لنا مسجد في بيت جالا، تبرّع به بنفسه. اللي كانوا ضدنا -نحنا اللاجئين- مين كانوا؟ مش من أهل بيت جالا الطيبين. كانوا من السكرجيّة والشيوعيين وناس عاطلة غيرهم. يمكن كانوا خايفين ناخد أراضيهم. ما بعرف. خلينا نحكي إذن إننا دبرنا حالنا بمساعدة هالناس الطيبة اللي هناك. عملنا اللي بنقدر عليه.

عشنا في بيت جالا معظم الفترة من.. -خلينا نشوف- حوالي سنة 1951 إلى أن أتينا للعيش هنا في مخيم عايدة سنة 1976 م. لكني كنت ما أزال صغيرة عندما انتقلنا أول مرة لبيت جالا. حوالي الثانية عشرة من عمري. فتاة صغيرة فعلًا. في ذلك الوقت جاءت عائلة لأسرتي تطلبني عروسًا لأحد أبنائها. ما كنت بدي أتزوج بأي شكل. ما كنت بدّي أصير متل أمي أو أختي. وكمان أبوي عرف إن هالعيلة بدها تشغلني عندهم بالأرض لأن عندهم أراضي كتير. ما عجبه يستغلوني بهالشكل، لهيك أبوي رفض.

لكن الموضوع ما وقف عند هذا الحد. شوفي، كنت صبيّة حلوة وقتها، حلوة كتير بتقدري تقولي. خدودي مورّدة، وشكلي، طيب.. بيعطي أكبر من عمري شوي. لا كما أبدو الآن، فالحزن بدد جمال وجهي. ألقِ نظرة على سميرة، إن لها ملامحي فيما مضى. كنت أشبهها، جميلة حقًّا.

ما حصل هو أن مزيدًا من الرجال تقدموا لخطبتي. عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري جاء لخطبتي جندي أردني كبير في السن. الجنود

مكتبة ياسمين

الأردنيون يرغبون في الفتيات الفلسطينيات لأن مظهرهن وشخصيتهن وطريقة ملبسهن جيدة. تزوج العديد من الجنود الأردنيين فتيات فلسطينيات ثم طلقوهن لاحقًا. هذا الذي جاءني كان متمركزًا قرب الحدود العراقية، بعيدًا عنّا. يبلغ من العمر ثلاثين أو خمسة وثلاثين عامًا، ولديه زوجة وأطفال أصلًا. قابل والداي زوجته وأخبراني أنها جميلة ولها عينان زرقاوان. أرادني زوجةً ثانية. أخبر والديّ صراحةً أنه سوف يأخذني بعيدًا حيث لن أتمكن من العودة لزيارتهم إلا فيما ندر. لم ترق لأبي الفكرة، ولهذا رفض. حسّيت حياتي انردّت لي.

بعدها خطبني رجلٌ آخر في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره -عندما صرت في الخامسة عشرة من عمري- كان من سوريا، ولديه أربعة أطفال لكنه بلا زوجه. كان أرملًا. ويدخّن عشرين سيجارة في كل مرة يجيء فيها إلينا، ولكن فكّرت حينها أني أريده فعلًا، لكن.. الحمد لله، رفضه والدي. شعر الرجل بالغضب الشديد عندما عاد بخفّي حنين. ودعا الله إني ما أتزوّج حدا غيره. دعا عليّ مرتين هالدّعوة. وبعدها مباشرة إجتني آلام في ذراعي ورجليّ. ما راح الألم، فأخذني أهلي للشيخة حتى تشيل عني هاللعنة. في المرة الأولى ودوني لشيخة، وبعدها لغيرها، وما طِبت. في الأخير ودوني لدكتور قال إن عندي شغله بالـ«أعصاب». هيك سمّاها. ومتل ما بتعرفي، لليوم هالآلام بتروح وبتيجي، وبتصير أسوأ في الصيف من الشتا. أنا متأكدة راح تضلّ معي لحدّ ما أموت.

وأنا في آلامي انهال علينا المزيد من الخطاب. فجاء جندي آخر ممن تمركزوا فوق التلة في بيت جالا لطلبي، وردّه أبي خائبًا. ومن ثم كان هناك بعض الرجال الفلسطينيين الذين أرادوني -لاجئون مثلنا- لكن أبي ردّهم مجدّدًا: لا. في النهاية جاءت عائلة من قريتنا -من القبو- عائلة المختار. كنت

t.me/yasmeenbook

في السادسة عشرة من عمري. فوافق أبي. أخبرته أني لا أريد الزواج بعد، لكنّه لم يصغ إليّ. كان يصغي إليّ حينها، لكنه قال إذ ذاك: «خلاص، راح تتزوجي هذا الشاب.» أبي كان رجلًا طيّبًا -الله يرحمه- مات منذ سنتين ونصف. كان طيّبًا، لكنه صاحب مزاج سيء، يفقد صوابه في بعض الأحيان. لم أناقشه مطلقًا عندما قال في النهاية: «هذا هو، مَفيش لا تاني.» وهيك، خلاص، صار لازم أتزوج.

كنت صغيرة جدًّا، أكيد. بعرف بوقتها واليوم كمان لساتني متأكدة. البنت مش لازم تتزوج بدري. كل ما كانت أكبر بتصير فاهمه الدنيا وبتقدر تفهم زوجها أكتر. في سن السادسة عشرة لن تكون مستعدة بعد للاعتناء بالبيت وخدمة زوجها وإطعام طفلها، كل هذا في الوقت نفسه. أحلف لك، لما توصل عشرين سنة راح تكون تعبت خلاص. راح تفكّر: «كان أحسنلي ما أتزوّج بالمرّة.» تحتاج الفتاة إلى الانتظار حتى تتعدى فترة المراهقة. وهذه الأيام تحتاج لوقت أطول إلى أن تنهي دراستها، فتكون جاهزة في الثانية والعشرين أو الرابعة والعشرين. وهذا ما فعلته بناتي. سميرة تزوجت في الرابعة والعشرين، وسارة في الثانية والعشرين، وميسون -تبلغ الثامنة عشرة- وقد رفضت العديد بطبيعة الحال، وأنا دعمتها! الشباب كمان عليهم يستنّوا. بيفكّروا إنهم جاهزين إذا وصلوا العشرين، لكنهم مش هيك أبدًا. إنهم يتزوجون حتى إذا ما بلغوا السادسة والعشرين رغبوا في الطلاق. من الأفضل للشاب التريّث حتى يصبح كبيرًا وواعيًا، فلنقل في السادسة والعشرين من العمر. هيك بشوف، وأنا متأكدة إني صح.

لكن بوقتها ما كانت الشغلة بإيدي. أبي قرّر، وعليّ إطاعته. ما شفت زوجي أبدًا. من بعيد بس، ماشي هون أو هناك. ما عمرها إجت عيني عليه. أوه، لا، لا.. عيب! ابنت مستحيل يكون لها أي علاقة بالشباب وقتها، ما بتجرئن يطلعن فيهم. إذا تجرأت الوحده واطلعت على الشباب ومسكوها،

مكتبة ياسمين

بتتعاقب وبتتبهدل. كلنا بنعرف هيك. وإذا خرجت بنت مع شاب، فالله يكون في عونها! راح يخلصوا عليها بشغله من هالشغلات: يسمموها، أو يقصّوا راسها، خلاص. شوفي، هذه الأمور ما زالت تحدث ليومنا هذا -ربما بصورة أقل- لكنها ما زالت تحدث. منذ خمسين سنة مضت هنا في المخيم جزّ رجل عنق ابنته المتزوجة عندما سمع أنها تعاشر رجلًا آخر من وراء زوجها. سمع هذه الإشاعة ولم يتحقّق من صحّتها، فقتلها وألقى جثتها في الشارع. وجاءت الشرطة وألقت القبض عليه، وأودعته في السجن. فيما بعد وكّلت عائلته محاميًا لإطلاق سراحه. ثم اكتشف لاحقًا أن كل ذلك كان إشاعةً كاذبة، مش أكتر. ندم، لكن بعد إيش؟ متخيّلة؟

عندما كنت فتاة فالأمر كان أسوأ من هذا بكثير. إذا كنتِ فتاة فلا يمكنك فعل أي شيء قد يتسبب في إطلاق شائعة عنك. إنها تيجي عينك في عين شاب، فربّك وحده بيعلم شو اللي ممكن يصير لك. لهذا بالطبع لم ألقِ نظرةً على زوجي إطلاقًا. لكنّه رآني. كان يشاهدني وأنا ذاهبة إلى الجدول لجلب الماء. كانت عينه عليّ وأرادني. هذا ما عرفته لاحقًا. ذهب إلى أهله -الشاب هو اللي بقدر يعمل هيك- وحكالهم إني البنت اللي بدّو ياها. وسألوه: «هاي، ليش هاي بالذّات؟» حاولوا ثَنيه عنّي. أمه كانت على علم بأمر مرض الأعصاب عندي على ما أظن. قالت له: «هذي مريضة. متل أختها، بعمرها ما راح تجيب لك خِلفه.» فأجابها: «ما بيهمني، بدّي ياها شو ما عندها.» وصار يبكي. هذا عرفته بعدين. حكتلي أخته، ومرّه سألته بنفسي فجاوبني: «آه، صحيح، بكيت.»

وهكذا، وافقت أسرته عليّ حتى رغم معارضتهم ذلك. جاؤوا في أحد الأيام وطلبوني. ما كنت أعلم بما يجري أصلًا. جاؤوا ورحلوا ووافق والدي في ذلك المساء. تحدّد نصيبي. وفورًا بعدها انكتب الكتاب. وافقوا على كتب الكتاب بعد أربعة شهور. خلاص، هذا اللي صار. كنت أبلغ السادسة

t.me/yasmeenbook

عشرة من العمر وإجاني نصيبي. في الفترة ما بين كتب الكتاب والعرس -متل ما بتعرفي- يُسمح للشاب بزيارة الفتاة. مش متل الحال هالأيام أكيد. اليوم بينسمح للشاب والبنت يقعدوا مع بعض ويحكوا. في أيامي هذا كان ممنوع. زوجي كان يأتي -في الأشهر الأربعة التي سبقت العرس- فيجلس ويتحدث مع والديّ. هو أكبر منّي بست سنوات. أجلسُ أنا في الرّكن ولا أجرؤ على النظر إليه بسبب أبي، كنت خائفة من أبي. لكنه دومًا يسترق النظر إليّ. بقدر أحس بنظراته وبنحرج. لما ينظر والداي لاتجاه آخر أشعر به ينظر نحوي، فيصيبني الحرج. في إحدى المرات -قبل العرس- جاء باحثًا عن أبي. لم أدرِ بأنه هو، وفتحت الباب. أخبرته بسرعة أن أبي عند الجيران. رأتني زوجة أخي أتحدث معه، فسارعت لإخبار أمي التي جاءت تصيح فيّ: «يا بنت ما بتستحي! شو حكايتك؟» هددتني بإخبار أبي إن أنا تحدّثت إليه ثانية. صدقيني، بعمري ما عدتها. خفت. المرة الثانية اللي كلمته فيها كانت ليلة عرسنا. بعدها مشي الحال.

❧

أقيم العرس على النمط المعتاد أيامها. على مدار يومين؛ ليلة الحناء، والعرس نفسه. مو متل أيام القرية -متل زفاف أمي اللي ظل عشر أيام. لا، قعد عرسي ليومين، بس. بالنسبة لي، كان مهر العروس وقتها 110 دينار مقدم، وعشرين دينار مؤخر. أما مهر البنت المتعلمة 120 دينار، لكني ما كنت متعلمة. مهر البنت المتعلمة اليوم بالآلاف. كان بإمكان سميرة أن تطلب آلافًا لكنها لم ترد مهرًا. أحضر لها زوجها بعض الذهب وأغراضًا للمنزل، وهذي هيّ. فعلًا، مهر هذه الأيام كثير، كثير جدًّا. في أيامنا هاي العريس بيفلّس من ورا المهر.

مكتبة ياسمين

على أي حال، أنفقتُ المهر على شراء الذهب. اشتريت زوج أساور باثنين وعشرين دينارًا -تساويان اليوم ثلاثمائة دينار. ما زالتا لديّ، أحتفظ بهما في خزانتي، ولا أستعملهما. إنني أرتدي الخواتم فقط هذه الأيام. كما اشتريت بعض الأثواب الجميلة، واشتريت أشياء أخرى كذلك.

العرس كان عادي، في بيت جالا. انعملت لي زفّة أنا وأمي وأخواتي بالسيارة. الرجال غنّوا ودَبكو قدّام السيارة، والنسوان مشت وراها يغنّن ويزغردن. لبست فستان بسيط مع طرحة، وغطّوني بجاكيت رجالي. هيك العادات. ما رحت على مزيّن، وما حطيت المكياج اللي بيحطوه بأيامنا هذي. لا، مش من عوايدنا. أعدّوا عشاء كبيرًا في بيت زوجي ذبحوا فيه بعض الخراف. كان في موسيقى ورقص للنسوان جوّا البيت، والرجال برّا البيت. قضى الجميع وقتًا سعيدًا. حتى حماتي كانت مبسوطة. لكنها كانت تتظاهر بذلك. لم أشعر بكرهها لي وقتها، كنت صغيرة لأفطن ذلك. فيما بعد عرفت كم كانت غير سعيدة تلك الليلة. لم تتقبل أبدًا اختياره الزواج منّي.

بعد حفلة العرس، انتقلت لبيت زوجي للعيش مع عائلته. عشنا كلنا في غرفة واحدة. كان لي ولزوجي ركن من تلك الغرفة، ليس عندنا مصابيح، كل ما نملكه فانوس كيروسين، وعندما تخلد العائلة للنوم يطفئونه ونمسي في ظلام حالك. لكن في الليلتين الأولى والثانية لم تبِت العائلة في البيت معنا، بل باتوا عند الجيران. هيك العادة. رجعوا بعد يومين وصرنا ننام كلنا في غرفة وحده.

اللي صار هو إن الليلة الأولى مرّت على خير. وفي الليلة الثانية صابتني رعشه وألم فظيعين في مثانتي. آلام كنت أعاني منها منذ الرابعة عشرة من عمري. رجعت لي هديك الليلة، في الليلة الثانية، كانت فظيعة. ساءت الحال حتى أنهم أخذوني للدكتور في القدس. تعرفي شو قال؟ قال: لو استنّيتي يومين زياده كنتِ متِّ». أعطاني دواءً لكن الألم استمر تسعة أيام متتالية. كان

t.me/yasmeenbook

الألم سيئًا لدرجة جعلتني أضرب نفسي، وتوقّفت عن التبوّل تماما. في نهاية الأمر أحضرت لي امرأة من بيت جالا أعشابًا يقال لها رِجل الحمامة. غلتها في الماء وسقتني إياها، وصار بإمكاني التبوّل بعدها فورًا. أقصد، ما زلت أعاني بعض هذه الآلام التي تروح وتجيء لليوم. رحت للدكتور وأخذت دوا، لكن لما يخلص الدوا بيرجع الوجع. شو أعمل؟ ما بظن راح توقف بالمرّة.

ﷺ

العيشة مع حماتي ما كانت سهلة أبدًا. كانت امرأةً قوية، قادرة. أجل، تلك هي صورتها على الحائط. ليست شخصًا سهلًا، صدقيني. مات زوجها في شبابها، وربّت أولادها بنفسها. ماتت منذ خمس عشرة سنة -الله يرحمها. اذكروا محاسن موتاكم. كانت أم زوجي، وما بحكي غير الله يرحمها.

صار لحماتي مكانها الذي عاشت فيه لما انتقلنا للمخيم سنة 1967، لكنها عاشت معنا في الأيام التي كنا فيها في بيت جالا. ساعدتني على العناية بالأطفال حالما شرعت في إنجابهم. عبدالله ويوسف وأحمد وسميرة وحاتم -جميعهم ولدوا في بيت جالا. وعندما انتقلنا للمخيم أنجبت ستة آخرين هم سارة وإسماعيل وفواز ومحمود وميسون وجميل.

كنت في السابعة عشرة من عمري عندما أنجبت البكر -عبدالله- فكنيتي هي أم عبدالله. كانت ولادة عسيرة، كل ولاداتي كانت عسيرة. توحّمت، قيء طوال الأشهر الأربعة الأولى من حملي بعبدالله، وفيهم كلهم. بحلفلك، لو ما كان وحامي صعب لكنت خلّفت أكتر. يمكن خمسة عشر أو أربعة عشر.

ولدت عبدالله في المستشفى. وُلِد معظم أطفالي في المستشفى. وأربعة في البيت بمساعدة الداية، وواحد في عيادة في المخيم. كلهم بخير وأصحاء، ما عدا فواز الذي ولدته في عيادة في المخيم؛ فهو معاق وما زال يعيش معنا. ولد

مكتبة ياسمين

رَضي، وكلهم متله.

الصراحة أحببت الولادة في البيت. أن تأتي الدّاية لمساعدتي. كل داية كانت مختلفة. واحدة من بيت ساحور ومُرخّصة. ثانية من مخيم الدّهيشة، وثالثة من هنا. عادةً تظل الداية معي لبعد الولادة بيومين. أو حتى لأسبوع إذا كنت أحتاجها. أدفع لها طبعًا لتبقى. أعطيها بضاعة من الدكان ونقودًا. مش كتير، لكن اللي بيكفي.

مع كل أولادي، درت بالي عليهم بطريقتنا في القرية. شو هي؟ شوفي، وحده من هالشغلات إني أحطّ الكحل في عيون الصغير. أصنع الكحل بوضع زيت الزيتون في خرقة ثم أحرقها. والرماد الناتج عنها هو الكحل. أضعه على جفني الطفل لأربعين يومًا؛ فذلك يساعد على أن تنمو عيناه قويّتين فلا تتهيجان أو تمرضا. عملت هيك مع كل ولادي. كنت أمرّجهم وألفّهم. اللي بعمله كل ليلة هو إني آخذ شوية زيت وأخلطه بشوية مَي مالح، أدهن منّه شوي على كل جسم الصّغير وأمرّجه منيح. هذا بيحمي البشرة من التسلخات، وما بيخلي لهم ريحة عرق بس يكبروا. وبعدها ألف القماش عليه قوي، بلفهم فيها، وبيناموا على هيك. وفي الصبح بنشيل عنهم القماش ونغسله، ونرجع نلفهم مرة تانية بقيّة اليوم. هيك لأربع أو خمس شهور. بتكبر عظامهم قوية وسليمة.

أخبرت سميرة عن هذه الطريقة لكنها لم تتبعها. إنني أعتني هذه الأيام برضيعتها ليلى، لكن سميرة لا ترغب أن أقوم بذلك مع ليلى. غلطانة، بتفكر إن الواحد لو لفّ الصغير فإيديه ورجليه راح ينصابوا وينكسروا. بتظن إن الملح بيهيّج بشرة الرضيع. أنا بحكيلك على الأكيد الغلط إنها ما تعمل هيك. سميرة وبنات هاليوم كلهم غلطانات. أكيد، النسوة من جيلي -نسوة القرية- بيعرفن شو بيعملن. شو، ولادنا مش صْحاح؟ شوفي ولادي، وشوفي سميرة

t.me/yasmeenbook

نفسها، مش قوية؟ وشوفينا إحنا اللي انولدنا في القرية، كان عنّا الأحسن من كل شي! الهوا، والأكل، كنّا أصحّ أيام القرية. الأم ترضع طفلها، لكنها إن لم تتناول غذاء جيّدًا فلن يكون حليبها جيّدًا. كان حليب الأمهات في القرية جيّدًا. ومنذ أن غادرنا القرية لم تتوافر التغذية الجيدة للأمهات.

أرضعت جميع أطفالي من حليبي. لكن الحاصل أن أيًّا منهم لم يشبعه حليبي. الله وحده العالم ليش. لذلك كنت أضيف دومًا بعضًا من حليب البقر، وأعطيهم إياه بالملعقة دائمًا لا في زجاجة رضاعة؛ لأني إذا أعطيتهم إياه في زجاجة رضاعة فقد يتركون الرضاعة الطبيعية. الحليب بالمرضعة بيكب كب أما بالملعقة فقليل، مش هيك؟ هذا ما فعلته مع الإثني عشر جميعهم. لم أرِد إيقاف الرضاعة الطبيعية. أوه، لا! بمجرد ما أبطّل رضاعة بصير حامل من جديد. حكت لي إحدى النساء عن ذلك، ونجح الموضوع. ما عدا مرّة -مع سارة- حملت فيها وأنا لسّاتني برضّع حاتم. لكن الشغلة بتزبط بالعادة.

كيف كانت ولادة سميرة؟ ماشي، أحكيلك الصحيح، ما كانت سهلة. ولادتها كانت متل ولادة ابني الأول عبدالله. يمكن لأن سميرة كانت الأولى، البنت الأولى. بتذكر إني كنت بدي ألدها بالبيت، لكن صارت مشاكل وما قدرت أولدها، فأخذوني للمستشفى الفرنسي. صيّحت كتير، فأعطوني إبرة، وبعدها انولدت. منذ ولدت أحببتها، أحببناها جميعًا، كانت ابنتنا الأولى. أنا من سمّيتها سميرة. اختار زوجي أسماء أبنائنا الثلاثة، وأنا سمّيتها سميرة. أطلقت عليها الاسم تيمّنًا ببطلة قاومت في سبيل الإسلام -كانت مجاهدةً شجاعة حقيقيّة- سمعت زوجي وأصدقاءه يتحدّثون عن سميرة هذه في إحدى المرات، عندما كانوا يروون قصصًا من القرآن عن الرسول. قررت حينها أن هذا الاسم هو الاسم الذي أريده لابنتي. ولهيك سمّيتها سميرة[1].

---

1. اختصرنا حكاية أم عبدالله الطويلة عن البطلة المذكورة حرصًا على إخفاء هوية ابنتها.

مكتبة ياسمين

هي كمان بطلة، مش هيك؟ عاشت سميرة كما اسمها. في طفولتها، يمكن ما شفتي شجاعتها وهي صغيرة، كانت دائمًا حسّاسة وعصبية نوعًا ما. أكثر عصبيّة منّي. عندما ألد في البيت، أرى في عينيها الفزع، إلا أنها لا تنطق أبدًا. كنت أضع الصغار في المطبخ، لم أرد إخبارهم بما يجري، لم أرد إفزاعهم. لكن سميرة تعرف. أذكر في إحدى المرات بدت خائفة جدًّا. حاولت طمأنتها، قلت لها إن الألم يروح ويجيء. وأني مستعدة للإنجاب مرة أخرى في اليوم التالي فلا أبالي. ما بعرف إذا كان طمّنها كلامي. ما بقدر أحكيلك. ما سألتني أبدًا عن هالموضوع، ما حكت ولا شي. هيك هي سميرة.

٨

أنجبت أطفالي الخمسة الأوائل خارج المخيم، أما الستة الآخرون ففيه. قبل انتقالنا بفترة وجيزة حاولت حماتي تزويج زوجي من امرأة أخرى. كانت بدها ياه ياخذ الثانية. هذا حصل وأنا حامل بالسادس، بنتي سارة. ما كانت بدها ياه يتزوجي بالمرّة، وحكتله إني ما بجيب ولاد. وهسّه وبعد ما خلّفت أربع ولاد وبنت، لسّاتها بتكرهني. كانت تكرهني لدرجة تدعي عليّ بالموت. إيش أقول؟ الله يرحمها، بس. كانت أم زوجي. زوجي لم يصغِ لها. ظلّت تعيد وتزيد عليه وهو يجيبها: «لا». كان بدّه ياني أنا بس زوجة. وفي الأخير توقّفت حماتي عن محاولاتها دفعه للزواج.

عندما انتقلنا للمخيم استقلّت بنفسها. انتقلنا لهذه البقعة، وكان بيتنا -لفترة من الزمن- مكوّنًا من غرفة واحدة ومطبخ. ثم ساعدتنا الأونروا على إضافة غرفة نوم أخرى وشرفة. شو أحكيلك كمان؟ دبّرنا حالنا. آه والله. أنا قروية ونحنا -النسوان القرويات- بنعرف ندبّر حالنا. عمل زوجي اللي الله قدّره عليه، هو قصّار. وبعدها تولى ابني الأكبر التجارة وساعده أخوته

t.me/yasmeenbook

كذلك. يعيش ولداي -الثاني والثالث في الترتيب -يوسف وأحمد حاليًّا في السعودية. ماشية حياتهم منيح هناك، وبيرسلولنا فلوس. بيقولوا لنا: «تعبتوا كتير، ارتاحوا.» لهيك إحنا عايشين بخير هسّه، مدبرين حالنا.

عشنا أيام صعبة كمان. أعتقد أصعبها كان لما هدموا بيتنا. هدموه اليهود. كان ذلك في سنة 1982 لما دخلت سميرة المعتقل. أكيد حكتلك، مش هيك؟ ماشي، هاي كانت أيام صعبة. كنا نعيش في بيت الأونروا، ويا دوب أضفنا له غرفتين، والمي والكهربا وصلتنا سنة 1978. قبضوا على سميرة وهدموا البيت. كانت المرة الأولى التي يدخل فيها أحد أبنائي للمعتقل. لحظة، كان في مرّة قبلها، قبلها بأربع سنين، لما قعدت سميرة بالسجن لأسبوع. كان عمرها خمس عشرة سنة فحسب، ومتورطة بالسياسة. كان في شخص من المخيم متعاون مع اليهود وقررت هي تحرقله شاحنته، فمسكوها متلبسة، وأرسلوها لسجن المسكوبية، وما سمحولنا بزيارتها. حققوا معها لكنها كانت ذكية، ولم تعترف بمن كان وراء فعلتها، وأصدقائها. أخبرتهم أنها نفّذت كل شيء بمفردها. واجهتهم، فتركوها.

لكن بعد أربع سنوات رجعت للسجن من جديد. هذه المرة لإلقائها قنبلة مولتوف على حافلة ملأى بالجنود. جاء اليهود بعد دخولها المعتقل بعشرة أيام وأزالوا البيت. سووه بالأرض، ثم عرضوا علينا خيمة لنسكن فيها. قلناهم: «خلّوها إلكم! بعدما هدمتم بيتنا بدكم تعطونا خيمة نسكن فيها؟ خلّوها إلكم!» اشترينا خيمتنا لحالنا، خيمة كبيرة من الخليل، ونصبناها في بستان الزيتون القريب منّا. انتقلنا كلنا للخيمة. كان شتاءً قارص البرودة وغزير المطر والثلوج، لكن دبّرنا حالنا. مددنا خطًّا من الكهرباء ووصلناه من بيت المختار لخيمتنا. كان لدينا ثلاج ومكواة وتلفزيون، وكثير من الزوار كذلك، حيث واظبوا على زيارتنا ودعمنا.

مكتبة ياسمين

ما حكينا لسميرة، ما حكيلنا لها في الأوّل. لما رحنا لزيارتها في المعتقل مازحناها وكنّا بشوشين معها، ما حبينا نقلقها. ثم اكتشفت بنفسها ما حصل؛ قرأت عنه في الجرائد. انزعجت جدًّا، لكننا قلنا لها: «ديري بالك على حالك، لا تقلقي علينا. راح نعمّر بيت جديد، أحسن من بيت الأونروا. لما تطلعي حتشوفي!» وهذا اللي صار. بس مر الوقت وعدّت ثلاث سنين طلعت فيها سميرة كنّا فيها رجعنا بنينا البيت، ودبرنا حالنا منيح متل ما خبّرناها.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

سميرة

عندما عادت سميرة لبيتها من المعتقل عام 1985م كانت تبلغ من العمر اثنين وعشرين سنة. أصبح لأهدافها السياسية وحياتها عمومًا تركيزٌ واضحٌ على هدف معيّن. وكما بيّنت ذلك قائلة: «الأسرُ صقل خططي وطموحاتي، وصرت أعرف أكتر شو اللي بدي ياه وكيف أسعى له.» ثم انطلقت شرارة الانتفاضة الفلسطينية التي اجتذبت عددًا أكبر من أفراد عائلتها بتدفّقها السريع بينهم، حيث أثّرت على حياتها هي أيضًا تأثيرًا كبيرًا.

فيما يلي، تستعيد سميرة بعض الأحداث التي جرت في السنوات العشر الماضية: زواجها، وإنجابها لطفليها، وعملها أخصائيّةً اجتماعية، ومتابعتها لنشاطها السياسي. كما تتذكر أيضًا عودتها للمعتقل لمدة شهر في سنة 1991 حيث جرى تعذيبها. كانت تلك التجربة الأكثر صعوبة من بين ما تتذّكره (إذ إنها لم تفعلها من قبل) وما زال تأثيرها على حياتها باقيًا للآن، وهذا مفهوم.

أذكر جيّدًا اليوم الذي خرجت فيه من المعتقل، 13 أغسطس 1985م. كيف ممكن أنساه؟ كان صدمة إلي، ولأهلي كمان. ما اتوقعوا أرجع على البيت بهداك اليوم أصلًا. ظنّوا أن إطلاق سراحي في نهاية أغسطس. ثم فجأة، كان عصام من يصحبني إلى البيت. إنهم يعرفون عصام بالطبع، وأنه صديقي.

مكتبة ياسمين

أمي على علم بأني أحبه، لكن أبي لم يكن يعلم -على الأقل ما بعتقد. لما ظهر عصام معي بدوا غاضبين -عوضًا عن كونها مناسبة مفرحة لهم- إذ مثّلت لهم حرجًا كبيرًا. شعروا بأنه أمرٌ معيب. كيف أجرؤ أنا -فتاة غير متزوجة- على المجيء بسيارة مع رجل؟ شعروا بأني سأجلب العار لهم أمام الناس، وأخبروني بذلك. جرحتني ردّة فعلهم، آلمتني كثيرًا. بس كان لازم أتوقّعها. ثلاث سنوات في المعتقل ما غيّرتهم. زعلت، لكن هذا اللي صار.

أنا تغيرت على العموم. كبرت كتير، وعرفت مين أنا. الأَسر صَقل خططي وطموحاتي، وصرت أعرف أكتر اللي بدي ياه، وكيف أسعى له. أنا أعرف بالتأكيد أني أريد عصام، وقد عزمت على المضي على الدرب معه. ومتأكدة من أنه يريدني أيضًا. كلانا يرغب في إنهاء دراسته الجامعية. وكان قد عاد ليتابع دراسته وصار بإمكاني أنا الأخرى متابعة دراستي، ليس في كلية اللغة الإنجليزية، بل أخصائيّة اجتماعية. قررت في المعتقل أن رغبتي هي التعامل مع مشكلات الناس مباشرة، والأخصائية الاجتماعية هي السبيل لذلك. عزمت على متابعة نشاطي السياسي، لكن بطريقة أكثر تنظيمًا. لا مزيد من قنابل المولتوف!

قررت أنا وعصام الزواج فورًا. لتحقيق هذا احتجنا لإخبار والدينا للحصول على موافقتهما، لم تكن المشكلة مع والديه، فالمشكلة الحقيقية كانت مع أبي. لم يرد لي الزواج من عصام. لم تكن مسألة شخصية؛ إنما لم يرد لي الزواج من شخص متورطٍ في السياسة. عندما جاء عصام لأبي طالبًا موافقته، رفضه. فانتظر عصام فترةً من الزمن وعاد لطلبي مرّةً أخرى، فرفضه أبي مجدّدًا. حدث ذلك مرات قليلة، ولذلك أحضر عصام جاهةً من رجالات المخيّم المحترمين ليطلبوني من أبي، لكن أبي أجابهم: «كيف بدكم ياني أعطيه ياها بعدما رفضته كذا مرّة؟» أبي رجل عنيد. يعتقد أنه الوحيد

t.me/yasmeenbook

الذي يعرف الصواب، واللي بيناسب كل واحد منا. اللي صار بالنهاية هو إني رحت لأخوتي وأقنعتهم إن عصام هو الرجل اللي بدي أتزوجه. فوافقوا يروحوا لأبوي، وفي الأخير أقنعوه.

بينما كل هذا عم بيصير، كنت بشوف عصام طبعًا. ما كنت مستعدة ما أشوفه، لكني كنت ميته من الخوف يلاقيني أبوي. على الأقل، أمي كانت تعلم أننا نلتقي أحيانًا. الموضوع ما كان سهل. كان مطلوبًا من كلينا البقاء حينها التزام مساحة محدّدة، والذهاب يوميًّا لمركز الشرطة المحلية للتوقيع على سجل يثبت أننا لم نغادر. ولهذا فلم تتوافر لنا أماكن كثيرة لنذهب إليها وحدنا. لكننا مع هذا أحيانًا نتمكن من الهرب بمساعدة أصدقائنا، وذلك بدعوتنا لرحلات قصيرة إلى القدس أو أريحا، حيث أغتنم الفرصة أنا وعصام فنذهب.

وظّل أبي - حتى بعد خطوبتنا وكتب الكتاب- ضد فكرة خروجي أنا وعصام معًا أمام الناس، أو ما شابه. لم يسمح لي بزيارة عائلة عصام، وعندما كان عصام يزورنا لم يسمح لنا بالجلوس معًا وحدنا. كان شي بيضحّك؛ كان علينا نتعامل مع سلطتَي احتلال: «الإسرائيليين» وأبوي! طول هديك الفترة خايفه واحد من هالاتنين يمسكني.

ليس كل الآباء في مجتمعنا بصرامة أبي، فالأمور أصبحت أسهل شيئًا ما، لكن لازم أحكي إن مجتمعنا شديد القمع في هاي الناحية. أنا دبّرت حالي وعملت اللي بدّي ياه. لكن ما زال على المرأة والرجل المتحابين ألّا يُجبرا على اختلاس الخروج سرًّا كما فعلنا. أؤمن بحرية المرأة في فعل ما تريده مع الرجل الذي تحبّه، فلها الحرية في معاشرته. لا أقصد الطريقة المتبعة في «إسرائيل» والغرب. أنا أؤمن بالحرية، إنما ليس بإفراط. لكن شوفي، أنا حبّيت عصام، فليش ما بقدر أكون حرّة أعمل اللي بدّي ياه معه؟ هاي

مكتبة ياسمين

شغله بتخصّني ما بتخصّ حدا تاني. في مجتمعنا لا يدعم أحد فكرة المعاشرة قبل الزواج. قلّة فحسب تدعمها، يغتنمون الفرصة، لكنهم مجرّد قلّة. شو قصدي؟ أحكيلك الصراحة، بالنسبة لنا عصام محافظ في هالأمور، مش أنا. لم يرد أن نعاشر بعضنا بشكل كامل قبل الزواج، إنّما التريّث. لن أخجل من إخبارك إذا ما كنّا فعلناها حقًّا، لكننا لم نفعل. بالنسبة لي لا غبار على أي شيء نفعله. ما عليّ ذنب ولا بخجل من أي شي. من وجهة نظري، كثير من المشاكل التي يواجهها الشباب في مجتمعنا متعلقة بحقيقة مفادها أنهم محبطون ومقموعون في هذا الجانب. مجتمعنا مريض بسبب هالموضوع، مريض كتير. هيك شايفاه.

عرسنا كان جميلًا جدًّا. جرى وفقًا لعاداتنا هنا في المخيم، لكنه مميز. أقصد -أكيد بالنسبة لي مميز- لكنه مميز كذلك لكثير من الناس في المخيم أيضًا. فكلانا -أنا وعصام- من أبناء المخيم، وعائلتانا معروفتان فيه. وحقيقة كوننا ناشطين سياسيين دخلا المعتقل أعطت للناس سببًا إضافيًّا للاحتفال. جرت الزّفة داخل المخيم -هيك العادات- حيث يجوب العريس مع العروس أرجاء المخيم مع جميع الضيوف، وكان عددهم مهولًا. جاء الضيوف من جميع أرجاء الضفة الغربية، والمئات من المخيم طبعًا. العديد من أصدقائنا مثلنا -كانوا في الأسر- وهكذا فقد كان موكبًا كبيرًا من الناشطين السياسيين. وهذا ما أعطى العرس انطباعًا خاصًّا. ركبت السيارة بينما جاب عصام أرجاء المخيم محمولًا على أكتاف أصدقائه. أحد أصدقائنا كان يملك كاميرا فيديو جلبها للتّو من أمريكا، لكنه لم يكن يعرف كيف يستخدمها، لذا لم نخرج بأي مقاطع مصورة. كل ما لدي بعض الصور، ها هي [تتجه سميرة إلى ألبوم الصور وتحضر بعض الصور المؤطّرة لها ولعصام

t.me/yasmeenbook

وهما يقفان جنبًا إلى جنب، وهي في كامل زينتها في ثوب زفاف طويل الذيل، وهو في سترة سوداء وربطة عنق] أشكالنا حلوة، مش هيك؟ خسارة إن الفيديو ما زبط!

المهم، بعدما لفينا المخيم شوي، رحنا لبيت عصام وتعشينا عشا العرس. في المخيم بتمشي الأمور ببساطة، لا ضيوف بيشاركوا في العشا ولا أهل العروس حتى. أبو العريس وأمه بس، وأحيانًا إخوته وخواته كمان. الضيوف بيتوزع عليهم حلويات ومشاريب خفيفة، بس. العادة بالمخيم هي إن جيران عيلة العريس بيحضروا عشا للعروس والعريس. يعرضُ عدد من الجيران استعدادهم لإعداد هذه الوجبة. والجارة الأكثر حماسًا، أو اللي راح تحس إنها رح تنهان لو انرفضلها الطلب بجد، هي اللي بيختاروها بالعادة. أم العريس اللي بتختار. بالنسبة لنا، جيران كثر أبدوا رغبتهم في طبخ الوليمة لنا، لكن أم عصام اختارت الشخص المناسب.

كانت الوليمة التي جلبتها هذه الجارة مُعدّة بشكلٍ جميل، كما أن الطريقة التي أحضرتها فيها لنا كانت جميلة؛ وضعت كل الطعام والسلطة واللحم بالأرز على صينية واسعة زيّنتها بالشموع والورود الحمراء. ووضعت هذه الصينية على رأسها وجاءتنا ترقص حتى بلغت بيت عصام راقصةً مغنّيةً مزغردة. كان تقديمها مميزًا وطعامها لذيذًا. كفّت ووفّت. هديّة صادقة طالعة من القلب.

يا ريت لو رحنا عملنا شهر عسل برّه، لكن بالنسبة لنا كان الموضوع محسوم. لا مال، وسلطات الاحتلال تمنعنا من مغادرة المخيم؛ فما زال علينا الذهاب للإقرار بوجودنا كل صباح في شرطة بيت لحم، وهذا قادنا لموقف غريب. متل ما إنتي شايفه، في عاداتنا ما بتطلع العروس للناس بعد العرس كذا يوم، لأن المفروض تبقى بالبيت. لكن، كان لازم أروح للشرطة

مكتبة ياسمين

كل صبح، ولهيك حاولت أتخفّى. لبست الجينز، وبلوزة بسيطة، ورفعت شعري الطويل ودعيت الله ما حدا من الناس يعرفني. غادرت البيت في الساعة السابعة والنصف صباحًا، ورغم ذلك فقد لاحظني بعض الجيران. سمعتهم يحدثون بعضهم بعضًا: «مش هاي العروس الجديدة؟ شو صاير؟» ما تناهى إلى أذنيّ كان غريبًا، فالموقف برمته غير مألوف. ما كان شهر عسل عادي، مش هيك؟

لنا أنا وعصام بيتنا الذي يقع خلف المخيّم تمامًا. استأجرناه وانتقلنا إليه بعد الزفاف. فيه غرفة نوم ومطبخ وحمام. أنيق جدًّا ويعدّ رفاهية بالنسبة لنا. حينها كنت أذهب للجامعة في بيت لحم لدراسة العمل الاجتماعي. أما عصام فقد تخرّج للتو في تخصص الأدب واللغة العربية. لم يكن قد وجد عملًا بعد، لكن ماشي الحال. كنا مبسوطين، مبسوطين إننا صرنا في الأخير مع بعض في بيت لإلنا لحالنا.

لكنهم اعتقلوا عصام مجدّدًا. كان ذلك مع بداية اندلاع الانتفاضة، وقد اعتقل اليهود العديد من الناس هنا. ألقوا بهم في عتليت، معتقل عسكري. قضى فيه عصام تسعة أيام ثم أطلقوا سراحة، ثم بعد أسبوع جاؤوا واعتقلوه مرةً أخرى تحت ما سمّوه الحجز الإداري. لم يتّهم عصام بأي تهمة رسميًّا، لكنهم أبقوه في المعتقل ستّة أشهر. أثناء تلك الفترة اعتقلوا آخرين من منطقة بيت لحم -جماعة عسكرية- حيث قال أحد أفراد هذه المجموعة إن عصام كان يزوّدهم بالتعليمات. ولذا حاكموا عصام وحكموا عليه بالسجن خمس سنوات. ولم يخرج من المعتقل حتى سنة 1993. كان ذلك فظيعًا بالنسبة لي؛ فقد كنت حاملًا عندما زجّوا بعصام في السجن. حاملًا في شهرين ونصف، شي متل هيك. لم أرغب في البقاء وحدي في البيت المستأجر. والمكان الوحيد الذي بإمكاني الذهاب إليه هو بيت والديّ. شعور رهيب اجتاحني، لكن

t.me/yasmeenbook

اتضح أن لا خيار أمامي، لذا عدت. وفي نهاية السنة ولدت ابني علي. أنجبته في مستشفى المقاصد في القدس الشرقية، حيث رافقتني أمي. كانت ولادة صعبة تألمت فيها كثيرًا، لكن الأقسى هو غياب عصام عنّي. ما كنت بعرف متى حشوفه مرّة تانية، أو إذا حنجتمع سوا.

بمجرد ما ولدت -بعد عشرة أيام من ولادتي- رحت زرته بالمعتقل. ذهبت من دون علي؛ لم أكن مستعدة لإحضاره بعد، إذ أردت رؤيته وحدي. بعد مرور شهرين أحضرت علي معي. نحن ثلاثتنا معًا. كان عصام ينظر إليه بلوعة؛ عيناه حمراوان، ووجهه غير حليق، ونحيل، وثيابه رثّة. واضح عليه كم عذبوه. بعدين عرفت كيف كان تعذيبهم فظيع. شوي ويقتلوه من هالتعذيب اللي عذبوه ياه. حافظ عصام على صمته محاولًا حماية أصحابه. فظيع اللي حصل.

لكن إنجابي لعلي كان دافعًا حسنًا لعصام ولي، فقد كان الحبل الذي ربطه بالحياة. بعرف هالشي؛ لأن الواحد بس يكون بالأسر فهاي الزيارات هي كل اللي بيملكه، بيعدّ الأيام بين الزيارة والزيارة عشان تشحنه بالصمود. ولهذا فقد داومت على إحضار علي. وكلما كبر تطلّع لزيارة أبيه بشوق. حتى لو كان مريضًا فإنني أحضره دومًا معي. مدّة الزيارة أربع وخمسون دقيقة فحسب، وعلينا محادثة بعضنا بعضًا من خلال حاجز حديد شبكّي. لا معانقات، كل اللي بنقدر عليه هو إننا نشبك أصابعنا من بين فتحات الشّبك. لكننا كنا نذهب كل أسبوعين. وداوم علي على سؤالي عن سبب وجود والده في المعتقل، وشرحت له. وهو يعرف الآن أن «الإسرائيليين» سجنونا -أنا وأبوه وأخواله- لأننا نقاوم من أجل وطننا. فاهم ومستوعب، ويخاف من الجنود «الإسرائيليين»، وعندما يراهم ببنادقهم وقذائف الغاز المسيل للدموع يركض إلى البيت فزعًا. إنه يخاف من أصحابنا الشباب الذين

مكتبة ياسمين

يغطّون وجوههم بالكوفية. أمضى علي أوقاتًا عصيبة. عمره ست سنين وأنا خايفه عليه كتير، لكن.. شو بقدر أعمل؟ هاي حياتنا.

بينما عصام في السجن، داومت على الذهاب لجامعة بيت لحم لأحصل على درجتي الجامعية. تطلّب تخرجي الدراسة حتى سنة 1991 لأن الجامعة أغلقت أبوابها لسنتين مع اندلاع الانتفاضة. تلقينا دروسنا في بيوت الناس. وغالبًا لم نكن نتمكن من الدراسة بالمطلق. لكني انشغلت حتى النخاع في تلك السنوات بالعمل السياسي، وكان عندي الكثير لأنجزه. نشطت في جماعة طلاب فتح، باعتباري إحدى المنظِّمات فيها. خطّطنا للإضرابات والمظاهرات، وحافظنا على جذوة الانتفاضة. لا، لم ألقِ أي قنبلة مولتوف أثناء تلك الفترة. شوية حجار هنا وهناك بس مش أكتر. بجد، عملي الأساسي كان كمنظّمةٍ في الغالب، حيث شعرت أني أكثر فاعلية وتأثيرًا.

كما أصبحت على علاقة في تلك الفترة باللجنة النسائية للعمل الاجتماعي، فعملتُ منظّمةً للنسوة في القرى ومخيمات اللاجئين في منطقة بيت لحم[1]. وهو نوعٌ جديدٌ من العمل السياسي بالنسبة لي. حتى ذلك الحين كانت علاقتي بالعمل السياسي كطالبةٍ جنبًا إلى جنب مع الرجال. لم أعمل من قبل مع النساء. لكن مع الانتفاضة أصبح النضال الفلسطيني حركةً جماعيّةً حقيقية، وصارت الحاجة إلى مشاركة النساء مشاركة فاعلة مهمّة. إنني أتحدث عن نسوة القرى ومخيمات اللاجئين، النسوة اللواتي لم يخضن في حياتهن يومًا مجال النشاط السياسي أو الاجتماعي، نسوة مثل أمي.

1. اللجنة النسائية للعمل الاجتماعي تابعة لحركة فتح، وهي إحدى أربع منظمات نسائية عاملة في المناطق الخاضعة لسيطرة منظمة التحرير الفلسطينية وتمثل فصائل مختلفة داخل المنظمة.

t.me/yasmeenbook

الطريقة التي اتبعناها تتلخص في الذهاب إلى القرى والمخيمات، حيث نشكّل لجنةً مؤلّفةً من مجموعةٍ صغيرةٍ من النساء. فيما يتعلق بهذه النقطة بالذات، فإن كل القرى والمخيمات تقريبًا باتت فيها هذه اللجان النسائية. إن طبيعة العمل الذي نؤديه مرتبطٌ في معظمه بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية، لكن له تأثيرٌ سياسيٌّ أيضًا. سأضرب لكما مثالًا؛ كل هذه الأماكن تقريبًا لم تكن فيها مدارس تمريض أو رياض أطفال. الأطفال فيها مهملون، قابعون في بيوتهم مع أمهاتهم إلى أن يبلغو السادسة من العمر. ولهذا جلبنا محاضرًا يتكلّم عن الحاجة لوجود مَرافِق، ثم بدأنا في توجيه الناس لفتح حضانة أو رياض أطفال. كنّا ننجح أحيانًا نجاحًا باهرًا، ونفشل أخرى. أو، راح أضربلك مثال تاني. حاولنا أن نوفر للنسوة عملًا يدرّ عليهن مالًا -فلوس مش محتاجات يطلبنها من أزواجهم. ساعدناهن على إنتاج أشياء تُباع مثل الخياطة والتطريز أو تحضير الطعام كالمربّيات والمخللات. وساعدناهن على تسويق هذه المنتجات، وبهذه الطريقة جَنَت النسوة المال. حتى وإن لم يكن ما يجنينه وفيرًا إلا أنه أعطاهن إحساسًا بالإنجاز. كل هذا له نتائجه السياسية طبعًا؛ فنسوة القرى والمخيمات اللاتي لم يجرؤن من قبل إطلاقًا على القيام بأي عمل سياسي أصبحن مستعدات للمشاركة في المظاهرات والإضرابات، وبهذا أصبحن جزءًا من المقاومة الوطنية.

بالنسبة لي فهذه التجربة برمّتها من العمل مع النسوة ذات فائدة كبيرة لي. إنني الآن منخرطة في العمل الاجتماعي في لجنة القيادة للجاننا النسائية. لكني ما زلت أذهب للقرى أحيانًا. إن ذلك سهل بالنسبة لي -عكس مساعداتي المدنيّات -فأنا شكلي مألوف لنسوان القرية. عيلاتهم متل عيلتي، وأمهاتهم متل أمي. لما بروح هناك بقدر أشوف التغيير الكبير اللي حصل في السنوات القليلة الماضية. رهيب. لا أقول إن لجاننا هي المسؤولة عن إحداث

مكتبة ياسمين

هذه التغييرات، لا. مش هيك قصدي، إنها بقصد إن العملية الاجتماعية عملت اللي عليها هان، وكثير من اللي عملته صار وقت الانتفاضة، وشغلنا جزء منه كلّه.

النسوة في القرى والمخيمات -متل أمي بالضبط -بدأن بتحرير أنفسهن من سلطة أزواجهن. إذا أردت أن تعرفي ما يجري فانظري إلى أمي. إنها ما تزال واقعة تحت سيطرة أبي تمامًا، لكنها الآن لم تعد كذلك -فيما يتعلق بالخروج- فهي لم تعد تطلب الإذن منه. شوفي، كيف بتتكلم معك عن الكتاب، وما بتحكيله إنكم جايين معظم الأوقات. بتعمل هيك لأنها بدها. ما كانت حرّة في تصرفاتها من قبل متل هالأيام. قبلها بعمرها ما تجرأت تفتح تمّها قدّامه، لكن هسّه صارت. فهمت إن لرأيها قيمة، وإن عندها اللي تقوله وتعطيه للمجتمع، مو بس لعيلتها.

هذا هو التغيير الكبير الذي حصل منذ الانتفاضة. بطريقةٍ ما قدّمَت الانتفاضة للنساء أكثر مما قدّمن لها. بتقدري تقولي إن في ظل المقاومة الوطنية استطاعت النساء مغادرة مكانهن التقليدي -أو حصارهنّ- داخل بيوتهن. في كثير من الحالات، لما يكون الأزواج في المعتقل، لازم على المرأة تشتغل لإعالة العائلة. عندما أغلق «الإسرائيليون» المدارس في القرى والمخيمات والمدن، نظّمت النسوة صفوفًا في بيوتهن. وعندما زُجّ بأزواجهن وأبنائهن في السجن، تظاهرن وأضربن عن الطعام لصالح الأسرى. لقد شاركن وجهًا لوجه في اشتباك مع الجنود -بإلقاء الحجارة أو ما شابه. عندما حدث كل ذلك للمرة الأولى وقف الرجال ضدّه، لكن تدريجيًّا صار واضحًا للرجال أن الانتفاضة حربٌ شعبية، وأصبحت مشاركة المرأة فيها مقبولة. قبلها كان الرجال ينظرون للمرأة على أنها ضعيفة، أما الآن فهم يرون أن بإمكانها التصدي للجنود، وبإمكانها تحمّل الإصابة أو الاستشهاد. أثبتت النسوة

t.me/yasmeenbook

قدرتهن على تحمّل المعاناة حتى بدرجة أكبر من الرجال، لو سألتني رأيي. كل هذا آتى ثماره، ونالت النساء حريةً أكثر من ذي قبل.

السؤال اللي لازم نسأله لحالنا هسّه، أنا والنسوان المشاركات في المقاومة الوطنية، هو: لوين بدو يوصلنا كل هذا؟ شفنا الجزائر وشفنا اللي اللي حصل معهم. النسوة الجزائريات أخذن حصّة كبيرة من المقاومة الوطنية لتحرير بلدهم من الفرنسيين، ثم عدن أدراجهن لأعرافهن التقليدية. والآن تحاول الحركات الإسلامية أن تحكم البلد. هذا هو مستقبلنا؟ هذا اللي سألناه لحالنا. وأحكيلك الصحيح، هالموضوع شاغلني. إن منظمة التحرير الفلسطينية تحظى حتى الآن بتأييد غالبية الفلسطينيين. لكن إذا لم ينجح عرفات في تغيير ظروف حياة الناس الحقيقية، وإذا استمر الاحتلال رغم كل هذه المفاوضات فسوف يتحوّل الناس إلى الحركات الإسلامية، إلى حماس. الحكاية ماشية على هيك من فترة. لما الناس بتفقد الأمل فبتنشد الخلاص في الدين. شخصيًّا، ما بقدر أستوعب التطرف الديني -لا من اليهودي أو المسيحي أو المسلم. الدين بالنسبة لي مسألة شخصية، وبحترمها. إن لي أصدقاء متديّنين في ملبسهم، ولبسهم بيخصّهم متل ما لِبسي بيخصّني. أنا بصوم رمضان، وهذا شي بيخصني. لكن ما لا أحتمله هو العيش في دولة يجبرونني فيها على ارتداء ملابس معيّنة أو الصلاة بطريقة معيّنة. باعتباري امرأة فلا يمكنني احتمال العيش في دولة تحكمها حركات إسلامية. لو حصل هالشي فراح أترك البلد، خلاص. ما بعرف وين حروح، لكن راح أرحل. ما قاومت كل هالسنين وما دخلت المعتقل عشان تخلص على دولة تحكمها حركات إسلامية. بحلف بالله إني راح أرحل.

مكتبة ياسمين

مع إني اشتغلت كذا شغله تنظيمية سياسية بين النساء والطلبة بعد ما بلّشت الانتفاضة إلّا إني حاولت جهدي أبقى بعيده عن المعتقل. اعتقلوا بعض أخوتي أثناء تلك الفترة وعصام ما زال يقضي حكمًا بالسجن لخمس سنوات، لكن «الإسرائيليين» تركوني في حالي. مشت الأمور على خير لحد سنة 1991، بعدها دخلت المعتقل من جديد لمدّة شهر، وهالمرّة ما كان لي أي علاقة بأيا شي نهائيًّا.

سبب اعتقالي كان التالي؛ استشهدت زوجة أخي، فاطمة. هاي صورتها اللي على الحيط. كنت بحبها كتير. كانت ناشطة جدًّا باعتبارها مناضلة. ما فعلته هو أنها أخذت قنبلة إلى سوق يهودي -محانيه يهودا- بنيّةِ زرعها في حمام المتجر على ما أعتقد، لكن يبدو أن خللًا ما أصاب المؤقّت فانفجرت فيها القنبلة وقتلتها حيث هي. اختبأ أخي فورًا بعدها عالـمًا أنهم سيأتون في إثره، ولم يدرِ أيّ منا بمكانه. فرض «الإسرائيليون» حظر تجوّل على المخيم بأكمله، وسلّموا جثة فاطمة الممزقة للمقبرة في كيس بلاستيكي. ولم يسمح لنا بإقامة جنازة تليق بها. سمح «الإسرائيليون» بحضور عدد قليل من أفراد العائلة. وكنت بدّي أحضرها، ورحت. لما شفت وجه فاطمة جوا الكيس البلاستيكي -وجهها مليان حُفر بسبب الشظايا- كان راح يغمى عليّ. منظر صعب. وأنا واقفة بتطلّع عليها إجا «إسرائيلي» من رجال الشّاباك[1] وقبض عليّ واعتقلني.

كان اسم هذا «الإسرائيلي» جاد، هيك مسمّي حاله اسم عربي. لا أدري لم يستخدمون كلهم أسماء عربية، لكنهم بيسمّوا حالهم هيك عمومًا. أخذني لسجن المسكوبية، وكمان أخذ أختي سارة. يا للفظاعة! هي ممرضة وليست سياسيّة بأي شكل، لكنهم اعتقلوها أيضًا. بكل الأحوال، هذا الـجاد

1. الشاباك هو اختصار لشيروت بيتاحون كلالي؛ أي جهاز الأمن الداخلي «الإسرائيلي».

t.me/yasmeenbook

أخذني للمعتقل نفسه الذي كنت فيه مرّتين من قبل. بمجرد وصولنا أخذني للساحة -مكان معروف جدًّا- وكان فيه العديد من الرفاق الفلسطينيين، كلهم مكبلوا الأيادي أو مقيّدون بالسلاسل، وأيديهم خلف ظهورهم أو إلى الكرسي، وبعضهم يئنّ ويصيح. أمسك بي جاد من ذراعي وقال مشيرًا: «اطّلعي، هذا صار له خمسة وعشرين يوم، وهذاك عشرة أيام، وهذاك شهر. إذا ما بدك تتعاوني معنا فنهايتك راح تكون متل نهايتهم.» كنا في يناير، والجو بارد جدًّا. في ذلك اليوم وضعوني أنا الأخرى في الساحة خارجًا. وبقيت على هذا الحال أربعة أيام بلياليها، يداي مقيّدتان خلف ظهري، واحدة أسفل عنقي من الخلف والأخرى فوقها. هذه الوضعية تؤلم بشدّة بعد فترة من الزمن. ما خلوني أنام ولا دقيقة، ولا يغمض لي جفن. وما أعطوني شي آكله لتلات أيام. المرة الوحيدة اللي شالوا فيها عني السلاسل كانت لما ودوني التحقيق، سألوني عن أشياء ما بعرفها. كانوا عارفين إني دخلت المعتقل من قبل وإني ما زلت ناشطة سياسيًّا، ففكّروا إني بعرف إشي. لكن أقسم بالله، ما كنت بعرف أيا إشي عن اللي سألوني ياه، ولا إشي بالمرّة.

بعد أربعة أيام أخذوني من الساحة ووضعوني في غرفة. ليست غرفة بالمعنى الحرفي، إنما حجرة ضيّقة. هذه الحجرة شديدة العتمة ليل نهار، وغير واسعة بما يكفي للقعود فيها، كما أن الجو قارس البرودة؛ فهناك جهاز تبريد في الأعلى يجعل الهواء البارد ينزل عليك. يطلق الأسرى على هذه الغرفة «الثلاجة». وتسميّها شرطة الاحتلال «الخزانة». في هذه الغرفة الأشبه بأسطوانة يوجد كرسيٌّ مصنوعٌ من الحجر، ولكن ضيق الغرفة لا يسمح للمرء بالجلوس عليه. لذا يظل الواحد منّا واقفًا طوال الوقت أو يضع إحدى رجليه أو كليهما على الكرسي الحجري. يستحيل الشعور بالراحة. ولا يسمح لك بالخروج إلّا للتحقيق. إن الفكرة تتمثل في كسر عزيمتك

مكتبة ياسمين

فتعترفين بسهولة. بالنسبة لي فقد شتموني وهدّدوني مرارًا أثناء التحقيقات. قالوا لي: «ما رح تطلعي من هون عايشه.» وظلّوا يهددوني بتجريدي من ثيابي وتعريتي أمامهم. لم يفعلوا ذلك بي أبدًا، رغم أني سمعت قصصا أن في المعتقل نساءٌ عُذّبنَ جنسيًّا. ورأيت رجالا أصابهم الخَبَل، وعرفت عمّن حاولوا الانتحار.

لكن عندما دخلت المعتقل في تلك الفترة -سنة 1991- فالتعذيب الذي استخدموه معي لم يتعدّ الجسديّ والنفسيّ. في بداية الاحتلال -أعرف ذلك حقيقةً واقعةً- كانوا يأخذون النساء ويضربونهن كالحيوانات المتوحّشة. يحرقونهنّ بأعقاب السجائر، ويسحبونهن من شعورهن، ويعذّبونهن جنسيًّا. مش راح أحكي إنهم اغتصبوا هالنسوان، مع إني سمعت قصص عن هيك، لكن بما إني مش متأكدة فما رح أحكي إنهم عملوها. كانوا يضربون المرأة في مناطق حساسة -هذا بعرفه على الأكيد- لكن الشاباك كانوا قد توجّهوا حينذاك إلى أنماط تعذيب نفسية بشكل أكبر. لقد أكسبتهم الأساليب الجسدية الوحشية سمعةً سيئةً في الخارج. صار كل شخصٍ يعرف أن «الإسرائيليين» يقتلون الناس في المعتقل، ويضربونهم حتى الموت. لكن بالإضافة إلى ذلك، أدرك الشاباك أن الأسلوب النفسي أجدى تأثيرًا غالبًا. منعُ الناس من النوم، وإلقاؤهم خارجًا في البرد أو في «الثلاجة»، وفتح تسجيل لأصوات أناس يصرخون ويبكون -كل هذه الألعاب على أعصاب الشخص يمكنها أن تدمره أكثر من الأسلوب الجسدي الوحشي. يمكن للجسم أن يتعافى أحيانًا، لكن الأسلوب النفسي يحطّم عقل المرء في النهاية، وبيوخدوا الشاباك اللي بدهم ياه في الأخير.

بدّي أحكيلك شغله، أنا بفهم إننا في حالة مقاومة وطنية ضد «الإسرائيليين»، لكن اللي بدي أحكيلك ياه هو إن اللي بعملوا هذا التعذيب

t.me/yasmeenbook

-هدولا المحققين «الإسرائيليين»- ما بعملوه لأسباب قومية. ما بصدّق هالشّي. محققوا الشاباك يعذبون الآخرين لأنهم يتلذذون بالتعذيب. لا أصدق أن معظم «الإسرائيليين» -الناس منهم بأي مكان -يمكن لهم تخيّل تعذيب الآخرين بهذه الطرق. لكن المحققين ساديّون، ويتلذذون بعملهم. عرفتهم عن قرب، للأسف، وأنا متأكدة من اللي بحكيه.

أنا، صمدت. وقدرت أبقى قوية لأني عارفة إنّو ما عندي معلومات أعطيهم ياها، ما عندي شي أخبّيه. عشت عشان ابني علي. طوال الوقت فكّرت أنّ عليّ البقاء قوية لكي أعود إليه. كان طفلي الوحيد -حتى ذلك الحين- وحبّي له كبير، وصمّمت ألّا أُهزم عاطفيًّا. ما صعّب الأمور عليّ خاصّة هو أن تلك الفترة التي قضيتها في المعتقل تزامنت مع حرب الخليج، يناير وفبراير 1991. ساءلتُ نفسي باستمرار: «شو راح يصير لو صدّام ضرب «إسرائيل» بالكيماوي؟» ابني المسكين لحاله من غيري ومن غير أبوه حتّى. عصام كان في المعتقل هو الآخر، وأمي هي التي ترعى علي. طوال ذلك الشهر، لثمانية وعشرين يومًا، لم أتوقّف عن التفكير في علي. وعندما أنام تقضّ مضجعي الكوابيس. فأحلم أن علي يجري على السطح وفجأة يقع ويختفي. فأستيقظ على بردٍ قارس مرتجفة. لكن التفكير فيه جعلني أصمد فلا أهزم.

أمرٌ آخر ساعدني؛ وهو أنه كانت لي محامية رائعة. أحب هذه المرأة، اسمها ليئا تسيميل، وهي يهودية. كانت الوحيدة المسموح لها بزيارتي. لم يسمح لأيٍّ من أفراد عائلتي بذلك. لا تجد ليئا تسيميل في الغالب وقتًا لزيارة الأسرى، لكن بسبب حرف الخليج صار لديها متّسعٌ من الوقت. لم يسمحوا لها في البداية بالزيارة هي الأخرى، لكنها اشتكت للمحكمة وربحت الشكوى. زارتني عدّة مراتٍ، ومرّرت لي رسائل من أمي، وطلبت منّي باستمرار أن

مكتبة ياسمين

أحافظ على قوّتي ووعدتني بإخراجي. وقد أوفت بكلمتها. فقد أصبحت حرّةً طليقةً بعد مرور خمسة وعشرين يومًا. كما أطلقوا سراح أختي سارة معي أيضًا. عذّبوها هي الأخرى. لـمّا طلعنا شكلنا ما بتعرفيه، كنا مبهدلين، ما سمحولنا نتحمم طول ما إحنا بالمعتقل. منظرنا كان بيخوّف. ركبنا حافلةً إلى المخيم، ولمّا وصلنا لم يسمح لنا الجنود «الإسرائيليون» بالدخول بادئ الأمر؛ فقد كانت حظر التجوّل مطبقًا على المخيم في ذلك اليوم. لكنهم تركونا نعود لبيوتنا، وعندما دخلنا تفاجأ الجميع؛ فلم يعرف أحدٌ أننا سنخرج في ذلك اليوم.

❧

عاهدت نفسي عندما كنت في المعتقل تحت التعذيب أنّي إن عشت فسأعتزل العمل السياسي وسأكرس نفسي لابني وعائلتي. خلاص، مفيش سياسة تاني. صدقيني، هذا اللي كنت بدّي أعمله، قبل ما أدخل المعتقل اشتريت هالبيت. كان عندي شوية مصاري حوشتهن من شغلي الجديد، وجماعة عصام السياسية أعطتني شوية مصاري وهو في المعتقل، واستدنت 2000 دينار من واحد بيداين الناس بعرفه في بيت لحم. كل اللي كنت بدّي ياه هو إنو يكون لعيلتي بيت ملك.

لـمّا خرجت من المعتقل، تابعت صيانتي للبيت وتعديله. رويدًا رويدًا، اشتغلت على ذلك بالتدريج، فجهّزت غرفَتَي النوم، وجدّدتُ المطبخ والحمام، واشتريت بعض الأثاث. انتقلنا إليه أنا وعلي قبل سنة من خروج عصام من السجن، كما أن أختي سارة مكثت فيه معنا قبل زواجها، وواحدٌ من أخوتي أيضًا. أنا فخورة بهذا البيت. لكن العهد الذي قطعته على نفسي بالبقاء بعيدًا عن السياسة وتكريس نفسي لأسرتي، طيّب، ما قدرت أحافظ

t.me/yasmeenbook

عليه. ما قدرت؛ الوضع السياسي بالبلد ما تغيّر، والمقاومة استمرّت، حتى بعد ما طلع عصام من السجن، أخوي عصام بيقضي محكوميته، ولسّاته عنّا صحاب بالمعتقل كمان. لهيك تابعت العمل السياسي، خاصّةً اللجنة النسائية للعمل الاجتماعي. شو بتقدري تعملي؟

لكن بخروج عصام من المعتقل الآن -منذ سنة ونصف- فإننا نعيش حياةً أسريّةً طبيعية. رزقنا بطفلٍ جديد، متل ما إنتي شايفه، بنت اسمها ليلى. كنت بتمنّى دايمًا بنت. أردت أن أربّيها بطريقة تختلف عن التي رُبّيت بها. أريدها حرّةً، حرّةً في كل شيء. بحاول بس المهمّة صعبة. تربية الأولاد مش بالسّاهل. حتى الآن لم أرزق بطفل آخر، إنني أستعمل الموانع بالطبع. ليس بإمكاني تربية طفل آخر في الوقت الحالي. من يدري مستقبلًا، ربما سأرغب في طفل جديد آخر. لكن مش أكتر من تلاته. وأكيد مش إحدَعشَر ولد متل أمي! يا ويلي! لا! مستحيل أعملها. ما بقدر أدبر حالي مع أكتر من تلات ولاد، بالمرّة. رغم أن -لازم أحكي يعني- عصام يقدّم لي مساعدةً كبيرة؛ فهو يساعدني على الاعتناء بالأطفال والقيام بالكثير من الأعمال المنزلية أيضًا. إنه ديموقراطي جدًّا من هذه الناحية، حتى إذا مرّ أصدقاؤه وهو مشغول، فلنقل؛ يغسل الصحون، فإنه يخرج إليهم ويقابلهم هكذا. يعدّ الكثير من الناس هذا النوع من مساعدة الزوج لزوجته أمرًا غير مألوف، كإن السّت هي اللي متحكّمه في جوزها، لكن عصام ما بيهمّه. رغم أني أعطيته في إحدى المرات غسيلًا لينشره على السطح -حيث يوجد حبل الغسيل هناك- فإذا به يركض نازلًا بسرعة حاملًا الغسيل على يديه، قائلًا إن هناك العديد من العجائز اللاتي كنّ يراقبنه من شرفاتهن، ولم يستطع فعلًا الاستمرار في نشر الغسيل. لكنه عمومًا لا يُحرج أمام أصدقائه مثلما تحرجه هؤلاء النسوة! الموضوع ضحّكني بجد.

مكتبة ياسمين

عمومًا، الشخص الذي أعتمد عليه فعلًا لمساعدتي بالذات مع طفلتي هي أمي. عدت مؤخّرًا لشغلي بعد إجازة الأمومة. تهتمّ أمي بليلى طوال اليوم. فضّلت استئجار إحداهن، لكن ليس بإمكاننا تحمل نفقاتها. وقد أصرّت أمي على رعايتها. وهكذا فإنها تهتم بابنتي طوال اليوم، وكذلك بابني بعد عودته من المدرسة إذا لم أعد أنا أو عصام من العمل. ما بقدر أحكي إني بوافق على كل شيء بتعمله أمي مع بنتي. عندها أساليب قديمة وارثاها من القرية. مثلًا، كانت بدها تدلّك ليلى -بعد ولادتها- بالمي المالحة والزيت، وتلفها متل العود لكذا شهر. رفضتُ، ما سمحتلها تجرّب حتى. أمي تجنح لحماية ليلى وإطعامها فوق الحد أحيانًا، هالبنت المسكينة سمينة متل الطّابة.. هالقدّ. لكن ليلى بتموت في أمي، وأمي بتموت فيها. وحتى رغم إحساسي بالذنب حيال الموضوع برمّته فإنها تمكنني من الذهاب للعمل، وهذا ما أحبه، أو على الأقل اعتدت على حبّ عملي، ومؤخّرًا أفكر بالبحث عن عمل جديد.

❧

الوظيفة اللي أنا فيها صرلي بشتغلها من حوالي أربع سنين، وهالسنة بكمّل الخامسة. أنا أخصائية اجتماعية في مركز إعادة تأهيل[1]. بدأت شغلي لمّا كنت في سنتي الدراسية الأخيرة في جامعة بيت لحم سنة 1995. إن مدير المركز شخصٌ أعرفه في الجامعة. توسّط لي، هيك بتمشي الأمور عنّا، الواحد بيحتاج واسطة. عيّن ناس من معارفه -أصحابه- وكنت وحده منهم.

عندما بدأت عملي هنا لأول مرة استمتعت فعلًا. كنت أتطلّع للذهاب إلى العمل كل صباح لأكون مع المراجعين. إن حقيقة كوني أستطيع التحدث

1. طلبت سميرة منّا عدم ذكر اسم المركز، وبناء عليه لم نذكره.

t.me/yasmeenbook

معهم ومساعدتهم عنت لي الكثير، وما زالت، لكن بطريقةٍ ما أحسّ بأنني أصبحتُ مُستهلَكَة، وأنني انغمرت حتى النخاع وليس بإمكاني التوقف عن التفكير في مراجعيّ حتى بعد العودة للبيت. بحتاج لراحة من هالشّغلانة.

شوفي، غالبية مراجعي المركز من ضحايا ما حصل في الانتفاضة. ولدينا أيضًا معاقين بسبب عيوب خلقية أو أمراض مثل شلل الأطفال، لكن معظم الحالات لها علاقة بالانتفاضة. لدينا برنامج للعلاج الداخلي والخارجي للمرضى، وأنا أعمل في برنامج العلاج الداخلي، ولديّ حوالي عشر حالات، أراهم مرّةً أو مرّتين في الأسبوع. جميعهم من الشباب الذين خضعوا للتعذيب بقسوة في المعتقلات، أو تم إيذاؤهم بطريقةٍ أخرى. إن من يحضر إلينا هم أولئك الذين لا يستطيعون التغلّب على الصدمة وينهارون. عادةً تنبذهم عائلاتهم، وأصدقاؤهم كذلك، ويشعرون بالانعزال واليأس. مهمّتنا هي تمكينهم من الوقوف على أقدامهم مجدّدًا. إننا نقدم لهم الإرشاد الوظيفي والنفسي. وإذا ما نظرت للأمر بموضوعية، فبإمكاني القول إننا أبلينا حسنًا؛ لقد تمكنا من مساعدة العديد منهم.

بالنسبة لي فالمشكلة هي -على الأقل هذا ما تعتقد مرشدتي وأنا أتفق معها -أنني أتفاعل فوق الحد مع بعض المراجعين، عندما أجلس منصتةً لقصصهم أجدني أبكي أحيانًا. بيصير معي هيك وما بقدر أتحكّم بحالي. مثلًا؛ عندي مراجع من غزة، شاب أصيب في رأسه، أثّرت الإصابة على نطقه وذاكرته وشلّت ساقه وذراعه. لمّا حدثني عن رفض عائلته له وجدتني مضطربةً جدًّا، وسالت الدموع على خدّي وصعب عليّ متابعة الاستماع إليه. أردت التوقّف عن رؤيته لكن مرشدتي شجّعتني على البقاء، لهيك بقيت.

أحيانًا يأتيني مراجعون مرّوا بمثل ما مررتُ به -أقصد التعذيب. واحد من الشباب، مرّ بنفس اللي مريت فيه تقريبًا في نفس المعتقل ونفس الفترة، آه،

مكتبة ياسمين

كان هناك لمّا كنت أنا. عادةً لا أخبر مراجعيّ أنني كنت في المعتقل. قد أقول إن أحد أفراد أسرتي كان في المعتقل، لكنّي ما بحكي عن حالي. بظن هذا مش شغل احترافي، وراح يخلي علاقتي بالمريض شخصيّة جدًّا. لكن بالنسبة لهذا الزميل، فهو كان يعرف إني هناك، وسألني، فما أنكرت، لكني ما خضت في التفاصيل. مجرد الإقرار بذلك كان صعبًا عليّ؛ فلا أود تذكّر ما حصل، رغم أن حقيقة كوني في المعتقل بَنَت بيننا صلةً مميزة مكنتني من مساعدته. وما زال إلى الآن يمرّ بنا للتحيّة أو للدردشة معي، رغم أنه لم يعد من رواد المركز. ينتابني شعور جيد تجاه ما فعلته له، بالتأكيد.

بس شغلانتي ما بتخلص على خير دايمًا. في حالات صعبة كتير ما حسّيت إني ساعدتها منيح. خاصة بالنسبة لشاب يتردد عليّ هذه الأيام. في الحقيقة هذه الحالة بالذات هي التي أودت بي للتفكير في إيجاد وظيفةٍ جديدة، وعدم العودة لهناك. ما حصل هو أن هذا المراجع حاول قتلي منذ أسبوعين مضيا ليس إلّا، فأوقفه آخرون وأخذوا السكّين من يده، لكن لو ما كانوا أخدوها منه فالله أعلم شو كان عمل. لم يعد مراجعًا في المركز الآن. كان كذلك لكن الإدارة قررت إرساله للبيت. تسبّب في الكثير من المشكلات، وأوشك على حرق المركز. فكّرت في أننا طردناه على عجل، وآذيناه. إنه شخصٌ عانى أصلًا من صدماتٍ كثيرةٍ ورفضٍ شديد، وأسيئت معاملته طفلًا، وعذّبه زميله في السجن. اتّهموه بالعمالة -رغم أني لا أعتقد ذلك -وعذّبوه. والآن، ترفضه عائلته رفضًا تامًّا. فجاء إلينا، وشو عملنا؟ إحنا كمان رفضناه. لهيك راح ينجنّ. ظلّ يتّصل بي دوريًّا لعدّة أشهر بعدما أرسلناه للبيت، ليهدّدني. جاء مرّتين وهدّدني شخصيًّا. خفت، لكن شو أعمل؟ ما عنّا حرس أو حماية من الشرطة. شو نعمل؟ نتصل بالجيش «الإسرائيلي»؟ ما راح يهتمّوا للموضوع شو ما كان. لهذا استمر الوضع على ما هو عليه

t.me/yasmeenbook

حتى مرور أسبوعين جاء بعدهما إلى المركز حاملًا سكّينًا محاولًا الوصول إليّ. أوقفه الحاجب وقد أوشك على تلقّي طعنةٍ منه. كان موقفًا مثيرًا للرعب. ما زالت فرائصي ترتعد لذكره. لم أعد أشعر بالأمان عند ذهابي لعملي من يومها. بفكّر جدّيًّا أستقيل، يمكن.

متل ما بتعرفي، بعد الحادث بقيت في البيت كام يوم. حكتلي مرشدتي ما أروح الشغل، وأرتاح. بقيت في البيت مع الولدين، وانبسطت. قدرت أرتاح. أثناء وجودي في البيت قالت لي أمي إنه ليس علي العودة لهذه الوظيفة، وعليّ إيجاد غيرها إذا رغبت في العمل. حكت لي أنها رأت حلمًا عن عودتي للمركز -كابوسًا. استنتجت أنه قد حصل لي شيءٌ ما في هذا الحلم -الكابوس- لعلّي قُتلت. سألتها لكنها لم تخبرني؛ فهي تؤمن بأن رؤيا المرء تتحول لحقيقة. وما زالت ترفض إخباري حتى هذه اللحظة. وتظل تلحّ عليّ بأن أترك المركز وأبحث عن عملٍ آخر. صدقيني، بدّي هيك. يمكن بيناسبني الشغل مع المراهقات، بعتقد راح أحب هالشغلة. كنت حستفيد كتير لو لقيت حدا أحكي معه لما كنت بمرحلة المراهقة. بعتقد إني بنفع لهاي الشغلانة. لكنّي علقانه في هالمكان. ما بقدر أسيب الشغل. لهيك بروح كل يوم الصبح للمركز خايفة، وإمّي بتضل تحكيلي سيبي الشغل في أقرب فرصة. بتحكيلي كلما أسرعتِ كان أحسن.

مكتبة ياسمين

أم عبدالله

الخبرة التي مرّت بها في حرب 1948، ووضعها اللاحق لاجئةً ترك أثرًا لا يُمحى في وعي أم عبدالله السياسي، رغم حداثة عهدها بدورها السياسيّ الذي اضطلعت به. نسوةٌ لم يتصرّفن مطلقًا وفقًا لمعتقداتهن السياسية من قبل -من بينهن العديد من ربّات البيوت الأميّات مثل أم عبدالله -وجدن أنفسهنّ في أتون السياسة عقب الانتفاضة. وباعتبارهنّ أمهاتٍ شاهدن أبناءهن يدخلون المعركة ويعانون تبِعاتها، شعرن بأنهن مجبراتٍ على مشاركتهم بطريقةٍ ما، أما بالنسبة لأم عبدالله فقد كان اعتقال سميرة -الذي حدث عام 1982 قبل الانتفاضة بخمس سنوات- الشرارة التي أشعلت فتيل إرادتها وتصميمها لتحدّي الجنود «الإسرائيليين».

سميرة كانت الأولى من بين أبنائها التي تتعرض للسجن، إذ سجن بعدها أربعةٌ آخرون، معظمهم أثناء الانتفاضة. ويقضي ابنها حاتم حاليًّا حكمًا بالسجن مدى الحياة في معتقلٍ شديد الحراسة. سيّج الجيش «الإسرائيلي» بيت حاتم الذي يقع مقابل منزل أم عبدالله، وأغلق الباب باللحام. كل يومٍ حينما تمشي أم عبدالله خارج بيتها يقابلها هذا الذي يذكّرها بمصيرها السياسي، إذ تعبّر عن ذلك بقولها: «في كل يوم بيغلي دمي في عروقي وقلبي بيبكي عليه.»

تسترجع أم عبدالله في هذا الجزء تجربتها -السياسية بالذات- في السنوات الأخيرة، كما تتذكر عودتها إلى القبو لعدة زيارات في الثمانينيات،

t.me/yasmeenbook

وتأثير ذلك عليها.

بعد اعتقال سميرة دمّروا البيت، فعشنا في خيمة لعشرة أشهر. خيمة كبيرة حاولنا جعلها مريحةً قدر الإمكان، لكنها كانت فترة عصيبةً بالنسبة لنا؛ فالشتاء قارس البرودة، وفي الليل ننام جميعًا في صفّ واحدٍ على الأرض. حاولنا الحفاظ على الدفء. إلا أننا مررنا بلياليٍ قاسية، حيث يهطل المطر متسرّبًا للداخل فيترك الجميع مبتلًّا. شو نعمل؟ هذا نصيبنا، وارضينا فيه.

داوم الجنود «الإسرائيليون» على المجيء للتحقق منّا. ما صدّقوا إننا دبّرنا حالنا. أحيانا بيحكوا معنا بقلة أدب وسفاله. بتذكر مرّة كيف هذا الضابط اليهودي اللي اسمه حاييم على ما أظن سأل زوجي: «كم فالاد عندك؟» فأجاب زوجي: «أحد عشر.» فسأل: «كل هادول من مَرَه واحد؟» فهزّ زوجي رأسه بالإيجاب، فتدخّلتُ أنا: «ولسّه بدي أجيب كمان!» اطّلع عليّ حاييم تطليعه سافله، فعِدت كلامي: «بحلف غير أجيب كمان!» راح حكالي اليهودي: «أوه.. ماشي.. جيبي كمان.» اطلّعت في عينيه وصرخت: «راح أعملها، أكيد راح أعملها»، ولعنته. طلب منّي زوجي أسكت بس كمّلت ولعنته ولعنت أبوه وسيادُه كمان. أي والله هيك صار. بعدها حسّيت إني أحسن، آه، بجد.

على العموم، هذا ما كانت عليه ظروفنا لعشرة أشهر. ثم حصلنا على تصريح بإعادة البناء، لم يكن التصريح من «الإسرائيليين» فهم لم يعطونا تصريحًا. حصلنا عليه من نائب محافظ بيت لحم الذي سمح لنا بالمضيّ قدمًا في البناء. لم يدوّن أي شيء لكنه وعد بتحمّل المسؤولية. لاحقًا سبّب لنا «الإسرائيليون» مشكلات جمّة لأننا لم نستخرج تصريحًا منهم. هدّدونا عدة

مكتبة ياسمين

مرات بهدم المنزل الجديد. لكنهم مؤخرًا لم يضايقونا. الحمد لله. دبرنا فلوس إعادة البناء من ولادي في السعودية، بيقدروا يساعدونا. جاء الناس من جميع الأنحاء لمساعدتنا في إعادة البناء. يا ريتك شفتيهم وهمّا بيشتغلوا هون. طبخت لهم كلهم. في أربعة أيام انتصبت أربعة جدران، غرفة بعد غرفة. وفي أقل من شهر كنا في بيتنا. مر الوقت وطلعت سميرة من السجن في سنة 1985، وكان صارلنا ساكنين ببيتنا الجديد سنتين.

هل بتذكّر رجعتها على البيت سنة 1985؟ طبعا بتذكّر. ما كنّا عارفين متى حتطلع، ما كان واضح. وفجأة في يوم من هالأيام لقيناها واقفة هناك! زوجها عصام -ما كان زوجها وقتها- هو اللي جابها مع صاحبه. انبسطنا، انبسطنا كتير. بدينا نغنّي بأعلى صوت، والناس من المخيم إجو، ومن بيت جالا ومن مخيم الدهيشة. الفرحة ما كانت سايعانا برجعتها، آه، أي والله قَدّ ما فرحنا!

بعد عودتها للبيت عادت للجامعة. أعادت دراستها من جديد لتصبح أخصائية اجتماعية. وكان عصام يدرس في جامعة بيت لحم هو الآخر. وبعدها سريعًا قرّرا الزواج. هل وافقت؟ طبعًا، كنت مبسوطة كثير. بعرف إنهم بيحبوا بعض. ما حكتلي سميرة بس عرفت. حكالي الناس إنهم بيشوفوهم سوا. ومرة كنت في بيت لحم وشفتهم مع بعض من بعيد. عملت حالي مش شايفاهم، وما حكيت لزوجي أبدًا. هو لليوم ما بيعرف إنهم كانوا بيتمشوا سوا قبل العرس. لكن، آه، أنا مبسوطة لزواجهم. عصام زوجٌ مناسبٌ لها. علاقتهم ببعض حلوة، الأحسن. هما الاثنين متعلمين ووطنيين وبيشتغلوا بالسياسة. هي بطلة وهو بطل. عاد عصام للسجن مرّةً أخرى بعد زواجهما مباشرة، وظل فيه خمس سنوات أخرى. وعادت سميرة للسجن بعد استشهاد زوجة حاتم. شو أحكيلك كمان؟ زواجهم منيح؛ كل واحد

t.me/yasmeenbook

منهم بيساند التاني، وإنت بتعرفي سميرة بنفسك. فعلًا، ما في حدا بيشبهها. شوفي، الأم بتحب بنتها، والبنت بتحب أمها. لما بمرض فسميرة هي اللي بتوديني للدكتور. بتجبرني أروح. لما رحت مع زوجي للحج من سنة ونص، سميرة هي اللي كانت قلقانه علينا وكيف بدنا ندبّر حالنا في الحر. سميرة قلبها دافي. أنا فخورة فيها وباللي عملته. ما بقدر أعمل اللي عملته، لكن لو قدرت لعملته. صحيح، كنت راح أعيش حياتي متل ما هي عايشاها. آه، أنا فخورة فيها كتير.

أنا فخورة بكل أبنائي. وبمن دخلوا السجن لإيمانهم ووطنيتهم. أنا فخورة فيهم كتير. متل ما إنتي شايفه، غالبية اللي في المخيم شاركوا من أول ما بلّشت الانتفاضة. لو ما شاركوا ولادي هم كمان كان بيّنوا غير عنهم. هيك الوضع. اشتهرت عيلتنا بوطنيتها ونشاطها لأن ولادنا -سميرة وحاتم وإسماعيل ومحمود وسارة- دخلوا السجن. زوجي كمان فخور فيهم، بيحكي: «اللي عملوه إشي بيشرّف.» متل ما بتعرفي، زوجي رجل له احترامه في المخيم بسبب ولادي. الناس بيعاملوه متل القاضي، وبيرجعلوه ليحلّوا مشاكلهم. صار عامل متل أبوه في القبو؛ مختار.

٨

منذ اندلاع الانتفاضة كان لنا في السجن واحدٌ من أبنائنا على الدوام. دخله محمود تسعة أشهر، وإسماعيل أربع سنوات، وحاتم يقضي حكمًا بالمؤبد الآن، وسارة قضت حوالي شهرًا مع سميرة، وسميرة دخلته ثلاث مرات، إحداها لأكثر من ثلاث سنوات دفعةً واحدة.

يعرف الجنود «الإسرائيليون» عائلتنا الآن، ويعجبهم إلقاء القبض علينا. يعلمون تمام العلم بأننا وطنيّون، ولذلك يلاحقوننا. اعتقلوا سارة على حكي

مكتبة ياسمين

فاضي. أخذوها للتحقيق مع سميرة في الفترة اللي كانوا فيها «الإسرائيليين» بيدوروا على حاتم. عذبوهن من غير ما يعملن إشي. والفترة اللي اعتقلوا فيها محمود ورموه بالمعتقل تسع شهور ما كان عامل فيها إشي بالمرّة. وقت اعتقال محمود حاولت منع الجنود «الإسرائيليين» من أخذه. حدث ذلك منذ حوالي أربع سنوات مضت. كان بعض أولاد المخيم يلقي الحجارة على سيارات المستوطنين على الشارع الرئيسي. ودخل الجنود للمخيم لمطاردتهم فأمسكوا بمحمود. لم تكن له علاقة، لكن مش مهم، مسكوه وخلصت. ركضت وراهم من غير جزمتي، كنت حافية، وصار الناس يصيّحوا عليّ: «ارجعي، راح يطخّوك!» لكني ما خفت. تبعتهم حتى الشارع الرئيسي حيث توجد النقطة العسكرية. كانوا يلعنونني فألعنهم. ضابط مسمّي حاله كريم قال لي: «اطلعي من هون!» فجاوبته: «اطلع إنتا من هون!» لم يضربني لكني ضربته ودفعته. كان دمي يغلي ولم أهتم بما قد يحدث لي. لم أرد أن يأخذوا محمود. لكني ما استطعتُ إيقافهم؛ كانوا كتار. أخذوه ورموه في المعتقل وما طلع غير بعد تسع شهور.

حدث هذا قبل أن يُلقى القبض على حاتم مرةً ثانية بفترة وجيزة، ويُحكم عليه بالسجن المؤبد. حكموا عليه بتسع وتسعين سنة، ما بتفرق. هذا اللي فاطر قلبي. قلبي وقلب أبو عبدالله كمان. انكسرنا من وراها. بشوف صورة حاتم على حيط بيت سميرة، صورته هو ومرته، بتكسرني. ببكي وببكي وببكي. يا ربي، ليش؟ قول لي ليش؟

كسروا عزيمة حاتم هسّه. كسروه في الأخير. في هالمرّة الأخيرة اللي دخل فيها المعتقل «الإسرائيليين» خلّصوا عليه. يبلغ حاتم من العمر ثمانية وعشرين عامًا، وهو يدخل ويخرج من وإلى المعتقل مذ كان في السادسة عشرة. ست مرات. خلينا نشوف؛ أول مرة لثلاث سنوات، والثانية لأربعين يومًا، والثالثة لثلاثين يومًا، والرابعة لستة أشهر، والخامسة لسنتين، والآن

t.me/yasmeenbook

مؤبّد. وفي آخر مرة ما عمل شي فعلًا. كان ناوي يعمل شي، آه، كان بيخطط يهجم على باص مستوطنين، لكنهم مسكوه قبل ما يعملها. رموه في السجن للي عملته فاطمة مرته، بدهم يخلّصوا عليهم هما الاثنين.

فاطمة استشهدت. أكيد سميرة حكت لكم، مش هيك؟ تزوجت وحاتم لسبعين يومًا فحسب. لم يتسنّ لهما الوقت حتى ليهنأى بزواجهما. الصورة الموجودة على حائط بيت سميرة التقطت لهما في يوم الزفاف. كانت حلوة، بنت حلوة ومناضلة! فاطمة كانت مناضلة حقيقية. في مستهل تلك السنة شاركت في عملية حيث قتلت شخصًا وأصابت تسعة. هذا الكلام قبل عرسهم. وبعدها اشتركت في هذه العملية التي أدت لقتلها. كانت ستزرع قنبلة في سوق يهودي وانفجرت فيها. استشهدت.

بمجرد حدوث ذلك جاء «الإسرائيليون» بحثًا عن حاتم. جاء الشاباك إلينا وقلبوا بيتنا رأسًا على عقب وكسروا كل ما طالته أيديهم. جاؤوا مرّات عديدة، خمسة عشر أو عشرين رجلًا في كل مرة. هددوا بتدمير منزلنا. قال زوجي لهم مديرًا ظهره: «يالله، اعملوا اللي بدكم ياه!» بحكيلك ما كنّا خايفين. خفنا بس ليمسكوا حاتم ويقتلوه. هو اتخبّى، وما كنّا عارفين وينه. ولا حدا منّا كان عارف.

لكن الشاباك اعتقلوا سميرة وسارة للتحقيق. وضعوهما في زنزانتين منفصلتين وعذبوهما في محاولة للحصول منهما على معلومات. كنت بفكّر طول الوقت: «هالمرّة راح يقتلوا سميرة وسارة كمان.» هالكلام حصل وقت حرب الخليج. طول الوقت كنت خايفه، وخايفه كمان من صواريخ سكود والغاز الكيماوي اللي قال صدّام إنه حيستعمله. كنت بدير بالي على ابن سميرة لأن زوجها هو الآخر كان في السجن. خفت ننقتل كلنا وقتها، بإيد صدام أو بإيد «الإسرائيليين» أو أي حدا تاني.

مكتبة ياسمين

أفرجوا عن سميرة وسارة بعد شهر. لم تكونا تعرفان شيئًا لذا أفرجوا عنهما. وبعد أربعين يومًا ألقوا القبض على حاتم. لا بدّ أن العملاء وشَوا به. ها كيف عرفوا يلاقوه؟ رموه في المعتقل ودمروا إرادته. أرَوه صورًا لأشلاء جسد فاطمة الذي انفجرت فيه القنبلة فانهار. حكى كل اللي بيعرفه. خلّوه يحكي شو ما بدهم، وحكموا عليه بالسجن لتسعة وتسعين سنة. زرته وأبو عبدالله هالأيام في المعتقل. بيسمحولنا بزيارة قصيرة كل أربعة عشر يوم، وبنروح في كلّ مرة. ما تخلّفنا عن زيارته ولا مرّة، لازم حد من عيلتنا يروح. طول ما أنا عايشه حروح أزوره. آه، أكيد حروح أزوره. إن فرصتنا الوحيدة لخروج حاتم هي أن يعمّ السلام وأن تعمل الحكومة الفلسطينية الجديدة على إطلاق سراحه. مين عارف؟ العلم بيد الله.

أراد الجيش «الإسرائيلي» تدمير بيتنا مرّةً أخرى بعد اعتقال حاتم ورميه في السجن. لكن هذه المرة وكّلنا محامية منيحة. محامية يهودية اسمها ليئا تسيميل. امرأة طيبة، ساعدت سميرة وسارة في الخروج من المعتقل. لم أتمكّن من زيارتها لأن «الإسرائيليين» منعونا، لكن ليئا تسيميل زارتها ونقلت بيننا الرسائل. ثم ساعدتنا على حماية بيتنا. أقنعت القاضي بأن حاتم يسكن في بيت مستقل عنّا -لا بيتنا- وعليه فلا يجب أن يُسمح للجيش بتدمير بيتنا مرّةً ثانية. ولهذا طوّق الجيش بيت حاتم وأقفلوا الباب باللحام. يقع بيت حاتم مقابل بيتنا. كلّما خرجت من باب بيتي يوميًّا أراه. كل يوم بيغلي الدم في عروقي وببكي قلبي عليه.

عادت الانتفاضة على النساء بتغييرات كبيرة؛ فقد حرّكتنا وغيرت حياتنا. عندما نرى الجنود يضربون أبناءنا فإن النار تضطرم في أعماقنا. علينا القيام بشيء للدفاع عن أبنائنا. إننا نفعل ما علينا فعله دون تفكير وخوف.

t.me/yasmeenbook

المرأة التي تتصرّف هكذا تحترمها النسوة الأخريات، ويقُلن عنها إنها بطلة. ليست النسوة من يقلن ذلك فحسب، حتى الرجال. يقولون: «إنتن يا النسوان أقوى منّا. شجاعات، إنتن بطلات حقيقيات.» صحيح، الرجال صاروا يحكوا عنّا هيك هالأيام.

بتذكّر في وحده من المرات لحق الجنود «الإسرائيليين» شوية ولاد. كان الجنود بيلعنوا ويشتموا ديننا. طلعتلهم وبديت أصيّح عليهم: «إيش بتعملوا في هالولاد؟ عندهم حجارة وسكاكين؟ هدول بيلعبوا». أخذ الجنود الأولاد الذين أمسكوا بهم وشرعوا بضربهم. كانوا يضربونهم بالهراوات، أبرحوهم ضربًا لدرجة تكسير الهراوات عليهم. بحلف إني نطّيت أحمي الأولاد. انضمّت لي بعض النسوة الأخريات، فأمسك بي جندي ودفعني للحائط. قال جندي آخر: «طُخها!» صوّب أحدهم بندقيته إلى رأسي لكنه لم يطلق النار. صحتُ فيه: «مش خايفه منكم، الدنيا دوّاره وحييجي يوم وتدور عليكم.» لعنني فلعنته. ومتل ما بتعرفي، منعناهم ياخدوا الأولاد، تركوهم هناك. لكن بعضهم أصيب إصابات بليغة فجاءت سيارة إسعاف ونقلت بعضهم. لما رجعت للبيت بعدين قال لي زوجي: «احكيلي، ما خفتِ؟» بقي هو في البيت لأنه رجل؛ فلو خرج لضربوه واعتقلوه. لكني بحلف لك ما خفت.

من هم الجنود «الإسرائيليون»؟ جبناء، لا أكثر. شايلين أسلحة بتخوّف، بس. إنهم دون أسلحتهم لا يساوون شيئًا. وقفت في مواجهتهم عدّة مرات. عندما يُلقي الشباب الحجارة على سيارات المستوطنين على الشارع الرئيسي ثم يعودون راكضين للمخيم فإنني أتوجّه إليهم وأدلّهم إلى أين يركضون: «ما تروح من هالطريق، الجنود جايين من هناك! روح من هالطريق!» أحيانًا بيتخبّى الشباب ببيتي. أخرج لأتأكد أن المكان آمن لمغادرتهم. آخذ

مكتبة ياسمين

ملابسهم وأعطيهم ملابس جديدة لكيلا يلاحظوهم، وأقول لهم: «اهدا، هدّي، عشان ما يبيّن عليك إنك كنت تركض.» هاي الشغلات اللي بقدر أعملها، وهيك بساعد، وبكون جزء من المقاومة الوطنية. ما عندي وقت للمشاركة في اللجان النسائية هنا في المخيم. سميرة تقوم بهذا النوع من العمل -العمل السياسي -وأنا أقدّرها. لكن عليّ الاهتمام بزوجي وأبنائي، وأحيانًا بأطفال سميرة أيضًا. أخرجُ أحيانًا في مظاهرات أو اعتصامات عند مكتب الصليب الأحمر أو المعتقل حيث عصام. ذهبت ولوّحت بشعارات تحمل صورة عرفات. لكن الانضمام لمجموعة نسائية كل أسبوع أو شهر، هذا شغل سميرة، مش شغلي.

مع بعض، جيل سميرة وجيلي، بنقدّم لوطنّا إشي، أكيد، إحنا صامدين. تعلمنا نصمد شو ما عمل اليهود إلنا. هاي كلمة جديدة، بتعرفي، صمود. أخذنا الكلمة من منظمة التحرير الفلسطينية، كما أن هناك أغنية عنها، لكن ما تطلبي منّي أغنيها. أطلق بعضهم اسم صامد على أولاده. لازم نصمد مهما كان عدد شهدائنا، ومهما كان عدد من دخلوا المعتقل، لازم نظل أقوياء. لازم نصمد!

وإحنا أقوياء! إحنا الفلسطينيين شعب قوي. الأقوى! ما في حدا متلنا في العالم كلّه. وين ما لفّيتي بالعالم في فلسطينيّين. في الوطن العربي، في أوروبا، في أمريكا، إحنا بكل مكان. ووين ما في فلسطيني، بيظلّ فلسطيني. ما بيعرفوا يدبّروا حالهم من غيرنا في الأردن والكويت. الأردن كانت صحرا قبل ما ينزلوا فيها الفلسطينيين. رحت عمّان. مين بنى كل هالبيوت والمصانع هناك؟ إحنا. في الكويت، بعد حرب الخليج، طردوا الفلسطينيين. هسّه بيطلبوا منهم يرجعوا. ما بيقدروا يدبّروا حالهم بلانا. وبتعتقدي «إسرائيل» بتقدر تدبّر حالها من غير العمال الفلسطينيين؟ ما بيقدروا. عمّالنا هم الأقوى،

t.me/yasmeenbook

والشّداد، وبيشتغلوا براتب قليل. يمكن الحكومة «الإسرائيلية» ما بدها يانا، لكن صحاب الشغل من اليهود بيحتاجونا.

أوه، أيوا إحنا الفلسطينية ناس فينا قوّة. ما بدها كلام. راح ننتصر في مقاومتنا ضد اليهود. لازم نصمد بس. جاء غرباء كثر إلى بلدنا ثم رحلوا عنها جميعًا. الأتراك كانوا هنا لمئات السنوات ثم رحلوا. وجاء الإنجليز بعدهم ورحلوا. والآن يسيطر اليهود على فلسطين، لكنهم سيرحلون عنها أيضًا. ستكون فلسطين للفلسطينيين في نهاية المطاف. كم حياخد وقت ليصير؟ ما بعرف. مش خبيرة بالسياسة، لكن عاجلًا أم آجلًا -إن شاء الله- راح يصير.

إذا سألتيني عن الحركة اللي أدعمها في السياسة فراح أخبرك؛ أنا مع منظمة التحرير الفلسطينية وعرفات. بدي ياهم يتسلموا قيادة الدولة الفلسطينية. هذا اللي بفضّله. لكن بتعرفي من مين بيخاف اليهود أكتر؟ من حماس؛ اليهود بيخافوا من المسلمين المتدينين أكتر من أي حدا تاني. حماس بدها اللاجئين الفلسطينيين من 1948 يرجعوا لبلادهم. ما بدهم تسوية، وهذا مرعب اليهود. أنا كمان بدّي اللاجئين يعودوا لبلادهم. أكيد بدّي. أنا متدينة ومؤمنة. بصلّي وبصوم رمضان وأدّيت فريضة الحج. هيك علّمت ولادي. لكنني لا أدعم الحزب السياسي المسلم، وأفضّل منظمة التحرير الفلسطينية مثل سميرة. أعتقد أن لديهم فرصة أفضل لإقامة دولة فلسطينية لنا. والفرصة الأفضل لإزالة اليهود من حولنا. هذا اللي بدّي ياه. كل ما صار الموضوع بسرعة كان أحسن. طفح كيلنا من اليهود، وهم كمان كيلهم طفح منّا. سمعت اليهود يتحدّثون على التلفزيون، ما بدهم يكونوا حوالينا. خلّي كل واحد يروح من طريق إذا هيك، هذا أحسن للجميع، وبعدها بنشوف شو بيصير.

مكتبة ياسمين

لا أدري إن كنت سأرجع للعيش في القبو البقية الباقية من حياتي. إذا ما تحدّثتِ إلى سميرة فإنها لا تعتقد ألّا سبيل للعودة أبدًا. هي بتحكي إنّه خلاص. لكن أولادي، بعض أولادي يفكرون تفكيرًا مختلفًا. يعتقدون أن الأمر سيتطلب قتالًا ضاريًا وحربًا حقيقيّة نعود بعدها إليها. يقولون إننا سنعيش يومًا ما في القبو، في حوالي عشرين سنة أو مدّة متل هيك. أنا، ما بعرف حيصير هالشّي، لكني مؤمنة بإنّه حيصير. يمكن ما أعيش لهذا اليوم لكن -إن شاء الله -أحفادي يعيشوا فيها. هذا اللي بفكّر فيه.

اعتدت أن أحدّث أبنائي في صغرهم عن القبو. أخبرتهم كيف كانت حياتنا فيها صحيّة ونظيفة وأفضل. أردتهم أن يعرفوا أنهم ينتمون إليها، وأين تقع قريتهم. أبنائي -خاصة أصغرهم- أبدى اهتمامًا كبيرًا. سميرة؟ مش كتير. ما بعرف ليش، دايمًا كانت مشغولة كتير أو في راسها شغلات ثانية شاغلاها. ما كان باين عليها إنها مهتمة.

بتعرفي، ما زال عندنا خراف من القبو. لمّا رحلنا سنة 1948 أحضر رجل بعض الخراف معه. والآن -بعد أكثر من أربعين سنة- لديه من سلالة هذه الخراف. حافظ عليها ولم يرغب في التخلي عنها أبدًا. قال بعض المسنّين في المخيم إنهم إذا فقدوا هذه الخراف فسيمرضون. على الرجل الاحتفاظ بها، وقد فعل. لم يتاجر بهم خارجًا مهما كان الأمر.

عدت لزيارة القبو أربع مرات. بعد حرب 1967، عندما اغتصب «الإسرائيليون» الضفة الغربية، حيث لم تعد هناك حدود تفصلنا عن القبو. بإمكانك العودة وإلقاء نظرة عليها إن شئت. ذهب بعض الناس فورًا، لكنها لم تكن آمنة. من الممكن أن يطلق عليك الجنود «الإسرائيليون» والمستوطنون

t.me/yasmeenbook

النار. بجدّ، اتصاوب شوية ناس رجعوا يشوفوا القبو وهمّا فيها. انقتل شوي منهم. كان الوضع خطير. وما زال لليوم؛ فمنذ اندلاع الانتفاضة لم يعد الذهاب إليها آمنًا. المشكلة لم تعد في الجنود «الإسرائيليين» بل في المستوطنين. بنى اليهود مستوطنات في تلك المساحة، وهؤلاء المستوطنون خطرون. قد تتعرضين لإطلاق النار بسهولة هذه الأيام. ولهذا لم نعد نذهب إلى هناك.

لكن عائلتنا ذهبت قبل الانتفاضة إليها. كانت المرة الأولى منذ اثنتي عشرة سنة. كانت تلك اللحظة الأقسى. مرّت أكثر من ثلاثين سنة منذ كنت في القبو آخر مرّة. لما ذهبت إليها رأيت الدمار الذي لحق بالمكان. فُجّرت البيوت. ذهبت إلى حيث كان بيتنا ونظرت إلى الداخل. استطعت رؤية البقعة التي كنت أنام فيها، والبقعة التي ولدت فيها أمي أحد أخوتي، والبقعة التي اعتادت جدّتي الجلوس فيها، والبقعة التي كان فيها الطابون. ما زال الطابون هناك. أذكر أمي وهي تخبز وتطهو عليه. ناديت أخي وقلت له: «تعال شوف، الزعتر اللي إنتا زرعته لسّاته هون!» وبعدها رأينا في إحدى جوانب البيت شجرة الخروب التي زرعتها، وأجهشنا بالبكاء، بكينا كتير. قال: «يا الله، ليش كتبت علينا ننزح عن قريتنا؟ إحنا وكل هالناس من قراهم، ليش؟»

ذهبت إلى البئر القديمة التي كانت لدينا في القبو، وجاء معي أحد أبنائي. حيث تمرّ من تحته عين ماء تصبّ فيه، بإمكانك النزول درجات لأسفل إليها. قبل أن نعود للقبو نذرت أني إذا ما عدت إليها فسأغتسل من ماء هذه العين. وقد فعلت. تحلّق حولي أبنائي مثل الحراس. متل ما إنتي شايفه، الجنود «الإسرائيليين» كانوا قريبين، وبتقدري تشوفيهم لما كانوا يغتسلوا من العين هم كمان. لهيك ولادي حرسوني ونزلت وغسلت حالي مرّة تانية في العين. بحلف ما في مَيّه متلها بالعالم، حلوه وعذبه متل البوظة.

مكتبة ياسمين

بقية أفراد عائلتي وزوجي ارتاحوا تحت بعض الأشجار عند العين، وبعض الأطفال لعبوا. جلبنا معنا طعامًا للنزهة -دجاج وكوسا محشي. لكن شو هالفسحة اللي الواحد بتفسّحها هناك؟ قدّامك على طول جنود وسياح يهود بيتفسّحوا هم كمان. كانوا بيطبخوا على النار جمب العين القديمة. حوّل اليهود المنطقة المحيطة بالعين لمنتزه. زرعوا شجرًا حول المكان. ما قدرت أبقى بمكاني، أخذت لفّه في المكان. زوجي حكى لأولادي: «أمكم غرقت في ذكرياتها.» تجوّلت وحدي. ذهبت إلى موقع أرضنا. رحت للبيدر. لكل قطعة أرض عندنا اسم. قدرت أشوف شوية من شجرنا لسه موجود بمطرحه. شجرات اللوز، ودواليات العنب، وشجرات التين كلها لساتها هناك. شجرة التين تبعتي -القروي -لساتها موجودة كمان، بتثمر. بحلف إنها كانت مثمّرة. لكن باقي الشجر مات، الأجاص والمشمش. ما حدا اهتم فيها فماتت. شجر الزيتون كمان راح. قلعوه. اليهود قلعوه، وزرعوا شجر تاني مكانه.

كنت أمشي وأنظر وأحدّث نفسي. صدّعت، راسي ذبحني من كل اللي شفته. بحلف إن أي واحد بيرجع لقريته راح يوجعه راسه. سمعت عن ناس ماتوا في المكان. بالنسبة لي، كنت أفكر وأسأل حالي: «ليش؟ ليش؟» حتى لو ما كان عنّا غير الملحة ناكلها، ما كان المفروض نطلع من القبو. إحنا اللي اتهجّرنا من قرانا. أحكيلك الصحيح، ما بنقدر نسامح حالنا على طلعتنا منها.

بعد تلك الزيارة الأولى للقبو، عدنا ثلاث مرات أخرى. لم يذهب جميع أفراد العائلة معًا في كلّ مرة. أحيانًا نذهب مع الجيران ونزور القرى الأخرى أيضًا. رأس أبو عمار، ودير الهوا، والقرى المجاورة فُقِدت أيضًا. جلبنا معنا طعامًا لنطبخه على النار مرّةً أو اثنتين. كنا نصل الكرم ونتنزه بعيدًا عن الآخرين.

t.me/yasmeenbook

في كل مرة نذهب فيها إلى القبو نعود بشيء من هناك. أحضر معي بعض الماء من العين ليتمكن أولئك الذين لم يذهبوا من شربه، وأحضر بعض الرمل. في إحدى المرات طلب مني أخي الذي يعيش في الأردن أن أحضر له بعض الرمل، ففعلت. كما جلبت أيضًا أي شيء يمكن أن ينبت؛ كفاكهة الصبّار، واللوز، والتين. في إحدى المرات جلبت غصينين من شجرة التين التي زرعتها، وزرعتهما مقابل منزلنا في المخيم فنمتا جيّدًا، لكن ماعز الجيران وصلت إليها وأكلتها.

في كل مرة أعود فيها للقبو أصاب بصداع. لكن، ما زال الذهاب إليها أمرًا مستحبًّا. أريد لأبنائي أن يروها. أريدهم أن يعرفوا أنها ما زالت هناك. حتى لو صارت مدمّرةً الآن. إن شاء الله بيجي اليوم اللي نرحل فيه من المخيم ونعود لها. إلنا أرض هناك. كان أبو زوجي المختار، ونص أرض القبو كانت لعيلته. آه، إن شاء الله، راح نبيع بيتنا هون ونبني بيت جديد هناك. هذا اللي بتمناه. إن شاء الله، هاليوم جاي.

مكتبة ياسمين

أم خالد وليلى

(قرية أبو غوش)

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

أم خالد

تبعد قرية أبو غوش إثني عشر كيلو مترًا غرب القدس، حيث تحتضنها تلال البحر الميت. إنها منطقة جذابة وغير مزدحمة، يقطن فيها خمسة آلاف من أهلها -معظمهم من المسلمين- في بيوتٍ حجرية فسيحة مكوّنة من طابق وطابقين، ممتدة على طول القرية صعودًا إلى التلال. توجد أسفل القرية عين ماء عذبة، في تنظيمٍ معماريّ مميز، حيث بني كلٌّ من مسجد القرية والكنسية المجاورة التي يبلغ عمرها اثني عشر قرنًا من الزمان ليطلّا على العين. لعبت هذه الكنيسة ورهبانها الذين يعيشون في صوامع مجاورة دورًا حاسمًا في تاريخ قرية أبو غوش الحديث. وهم مسؤولون مسؤولية كبيرة عن سمة مميزة أخرى للقرية؛ ألا وهي أنها القرية العربية الوحيدة الناجية من احتلال اليهود للأرض في حرب 1948.

أم خالد (أمينة)، امرأة تبلغ من العمر اثنين وسبعين عامًا. عاصرت هذه الفترة المضطربة من التاريخ الحديث لأبو غوش. وهي فيها الآن -كمواطنةٍ «إسرائيلية»- حيث ربّت أبناءها الستة عشر. تعيش أم خالد وقد أصبحت أرملةً الآن مع كبرى بناتها في بيتٍ يقع على رأس التلة. امرأةٌ نحيلةٌ هزيلة الصحّة إلى حدٍّ ما. تقضي معظم وقتها في البيت هذه الأيام، حيث يزورها مرارًا أبناؤها والمئات -أو ما قارب ذلك- من أحفادها. وليس ببعيدٍ عن أم خالد، يعيش أحد كاتبي هذه الدراسة -رفيقة عثمان- رغم أن رفيقة لم تزر أم

t.me/yasmeenbook

خالد مطلقًا قبل شروعنا في العمل على هذا الكتاب، لكن كل واحدةٍ منهما تعرف شيئًا عن الأخرى. لذا كان سهلًا نسبيًّا أن نرتّب لقاءًا أوليًّا معها في ديسمبر من عام 1994م. وكما بدا لنا، فإن أم خالد كانت الأكثر تقبّلًا لإجراء مقابلة معها من أجل كتابٍ يتناول النساء الفلسطينيات -تقبّلًا يمكن له أن يتلاشى إن لم تذهب رفيقة وحدها. (إذ في واقع الأمر عندما اقترحت رفيقة أن يزور زميلها في إعداد الكتاب زيارةً لأم خالد من باب المجاملة في ختام المقابلات أبدت أم خالد عدم ارتياحها لوجود «رجل غريب» في بيتها، إذ لم يعد زوجها حيًّا الآن). كانت أم خالد قريبةً من القلب ومضيافة مع رفيقة، أمطرتها بالقصص والطعام معًا. تحدّثت دون كللٍ أو ملل وهما جالستان في غرفة جلوسها المتخمة بالورود، وصورة أبو خالد معلقةٌ على الحائط أمامها مباشرة، رغم إصابتها بالربو وحلقها الجاف. أحيانًا تدخل ابنتها الكبرى -نفوز- لتستمع إلى ذكريات أمها. لكن في معظم المقابلات التي أجريت كانت أم خالد وحدها.

كما هو الحال مع النسوة الأخريات الكبيرات في السن في دراستنا هذه، فإن أسلوب أم خالد في السرد استطراديّ في بعض الأحيان وميّالٌ للتكرار. وقد حافظنا على شيء من هذه السجية لكننا لجأنا لتقليص استطراداتٍ عديدة لها لصالح مقروئية النص. فيما يلي إذن، شذراتٌ من ذكريات طفولة أم خالد التي قضتها في القدس في العشرينيات، وعودتها إلى قرية أبو غوش للزواج في منتصف الثلاثينيات، ونضال عائلتها للبقاء في القرية أثناء حرب 1948.

٨

اطّلعي حواليك، إحنا القرية العربية الوحيدة اللي نجت سنة 1948. كل القرى العربية التانية في هاي المنطقة انمسحت عن الوجود. القسطل والصوبا وقالونيا اتدمّرت. إحنا بس اللي نجينا. بتفكري هاظا حصل

مكتبة ياسمين

صدفة؟ لا ما كان صدفة. نجونا لأن لقريتنا دائمًا قدرٌ مختلف. قرية أبو غوش قرية مبروكة. وهالكلام من زمان. من يوم ما طلعت هالقرية، من زمان كتير.

ليس بإمكاني القول إني أعرف تاريخها كله، فغيري يعرف أكثر مني. ما أعرفه سمعته من جدتي وأمي وعماتي وحماتي. أخبرنني كيف أنشئت أبو غوش. لقد أنشئت منذ زمنٍ بعيد -هيك حكولي- قبل زمان الأتراك. في يوم من الأيام مرّ رجلٌ مباركٌ كان على سفرٍ بهذه المنطقة. تعب فتوقف وربط حماره واستلقى. كان معه بعض الخبز والعنب فوضعهما إلى جانبه. وقبل أن يغلبه النعاس دعى ربه أن يجعل هذا المكان البديع يومًا ما قريةً خصبة يؤمها العديد من الناس. نام الرجل المبارك -لأربعين سنة- وعندما استيقظ وجد خبزه وعنبه وحماره إلى جانبه، وكل ما حوله قرية خصبة بكرومها. كان اسم هذه القرية «قرية العنب».

هذا كان اسم القرية لسنواتٍ عديدة، ربما مئات السنين. بعض الناس هنا -متل ما إنتي عارفه- ما زالوا يفضّلون الاسم ويطلقون عليها قرية العنب. لكنها لأغلبنا قرية أبو غوش. هذا الاسم يعود لزمن الأتراك. وجاء الاسم كالتالي: جاء شيخ قويّ من مكان بعيد جدًّا -من شراكسة القفقاس- إلى هنا وأصبح الحاكم. كان له صوت جهوري -صوتٌ مدوٍّ- يتردّد صداه عندما يخطبُ في المحاكم الدينية. ولهذا أطلقوا عليه أبو غوش؛ لصوته العالي[1]. اعتاد ارتداء الملابس الأنيقة -الأرواب الحريرية والعمامة- ويمشي مع خيزرانة مزيّنة جميلة. كان رجلًا مهمًّا وحاكم أبو غوش والمتحكم بكل القرى، من القدس إلى البحر. وله أعداء أيضًا -أناسٌ من قرى أخرى لا يريدون لهذه القوة أن تكون تحت يده. وفي أحد الأيام جاء هؤلاء الرجال من القرى الأخرى بقوتهم العسكرية لشن حربٍ على أبو غوش. قامت معركةٌ عظيمة

---

1. أصل كلمة غوش يعود إلى الفعل «يغوّش» باللهجة المحلية؛ أي يتجادل بصوتٍ عالٍ.

t.me/yasmeenbook

سقط فيها العديد من الرجال، لكن شيخ أبو غوش نجا، وكذلك أبناؤه الثلاثة نجوا عن طريق زوجته التي أرسلت اثنين من أبنائها بعيدًا -واحدٌ إلى مصر، والثاني إلى سوريا، والثالث خبأته في القرية عند رجلٍ مبارك- وكان اسم الابن الثالث عيسى، وقد أمضى حياته عند الرجل المبارك.

عندما اشتد ساعد عيسى، بحثوا له عن عروس مناسبة، امرأة طيبة. فرزقهم القدر بوفاء. كانت وفاء ابنة امرأة مميزة -امرأة مبروكة. فقبل سنوات عندما كانت وفاء صبيّةً دعت أمها الله في ليلة القدر وهي تتلو القرآن، ففتحت لها أبواب السماء، وطلبت من الله أن يمنح ابنتها أفضل ما في الدنيا، فيكرمها بالصحة والأبناء الصالحين الأقوياء الكرماء. والله استجاب لدعوتها. من يوم ما سمعت هالحكاية وأنا بداوم على الدعاء في ليلة القدر لعل أبواب السما تنفتح لي وأطلب من الله إنه يدخلني وعيلتي الجنة يوم القيامة. لكن لليوم ما انفتحت لي. على العموم، فتحت أبواب السماء لأم وفاء وبارك الله وفاء فتزوجت عيسى -الابن الصالح التّقي من أبناء أبو غوش. ورزقهم الله أربعة أبناء؛ عثمان وإبراهيم وعبدالرحمن وجابر. ورزق كل واحد منهم بنسل، وهكذا. وإلى اليوم فقرية أبو غوش أربع عشائر، كل عشيرة مسمّاة على اسم واحد من أبناء عيسى ووفاء الأربعة. قريتنا طيبة وأهلها كرماء، متل ما إنتي عارفه. ولهيك الله نجّانا بينما القرى اللي حوالينا تدمّرت. إحنا بس اللي نجينا في حرب سنة 1948. ليش؟ لأن أبواب السما انفتحت في ليلة القدر لأم وفاء، ولأن الله استجاب لدعواتها. هذا اللي بآمن فيه.

٨

وُلدتُ في أبو غوش، ترتيبي الثالثة بين عشرة أبناء. أخبرني أبي باستمرار أن مولدي كان مميزًا؛ فبعد ولادتي مباشرةً حصل أبي على وظيفة رجل شرطة مع الإنجليز. آمن دومًا بأني من أجلب له الحظ. هذا اللي

مكتبة ياسمين

حكالي ياه، وبسبب وظيفته هذه لم أنشأ في أبو غوش. رجعت إليها عندما تزوجت وكان عمري أربع عشرة سنة. قضيت معظم طفولتي في القدس، حيث انتقلنا إليها بعدما أصبح أبي شرطيًّا. في طفولتي ما كنت فلّاحة، كنت مدنيّة، وهذا بيختلف كثير.

في القدس عشنا حياة رغيدة. انبسطت فيها. أبي يتقاضى أجرًا عاليًا؛ خمسة جنيهات في الشهر. بهذا المرتب يمكنك تناول اللحم يوميًّا، وارتداء الثياب الجميلة، والذهاب للحمام التركي. عشنا حياة رغيدة فعلًا. عشنا داخل أسوار المدينة القديمة -في حارة السعدية- تأجرنا هناك بيتًا. مكان جميل. وكان أبي يجوب مسافرًا مع الشرطة، وتبقى أمي مع الأطفال في البيت. ذهب أخواي الكبيران -محمد وعامر- للمدرسة، أفضل المدارس. لم يبخل أبي عليهما في الإنفاق ليعلّمهما، فتعلم محمد القراءة والكتابة بالعربية والإنجليزية، وكان ذكيًّا. وكذلك عامر، كان بارعًا في الخط العربي. بالنسبة لأخوتي فأبي كان مستعدًّا للإنفاق على تعليمهم. أما بالنسبة لي ولأخواتي، فلا. ذهبت لسنة واحدةٍ إلى مدرسة قرب المسجد الأقصى. تعلمت شوي القراءة، لكني ما بتذكرها هسّه. بقدر أقرأ كلمتين: رأس ورؤوس. بس. أخرجني أبي من المدرسة بعد الصف الأول، واشترى لي ماكينة خياطة. كيف حسّيت؟ ماشي، ما كان مكتوب لي أتعلم. زمان ما كانوا يشجعوا البنات على العَلام، مِش مثل اليوم. قال أبوي إن الخياطة أحسن لي. وهذا اللي سَوّيته. معلش، مكنتش بعرِف أي بنت راحت عالمدرسة، ولهيك كان منيح أظل في البيت مع أخواتي وإخوتي الأصغر منّي.

باعتباري البنت الكبرى فقد أوكلت إليّ العديد من المسؤوليات. كان والدي يثق بي ثقةً عمياء. منذ كنت في الثامنة من عمري كان والدي يعطيني جزءًا من راتبه كل شهر لأتبضّع به من السوق. قال صاحب الدكان مرّة

t.me/yasmeenbook

لأبي: «بنتك هذي بتسوى عشر ولاد.» كنت أتبضّع لعائلتنا، تحكيلي أمي اللي لازم أشتريه، وبروح من مكان لمكان وبجيبه. فيما مضى كان يمكنك ملء سلّتين بالخضار بقليل من المال. والحصول على أربعة كيلوات من اللحم بأقلّ من أغورة[1]! كنا نوكل أكل ملوك. وأمي تحضّر أكلات زاكية. إذا احتاجت تخبزها بالفرن -متل صحون اللحم والكعك- فكنت أروح بالصينية للخباز، قريب من بيتنا، يخبزها في فرنه اللي بيشتغل على الحطب. أو أحيانًا -لما تكون أمي تعبانه كثير من الطبخ- كنّا نجيب أكل من المطعم القريب منا. حمّص وكباب وباذنجان مقلي وسلطة. وكمان تسقيّه -هذي المفضلة عندي- وهي قطع صغيرة من الخبز المنقوع في الحمس مع البهارات والصنوبر. آه، ما أزكاها! كنا ناكل منيح زمان.

لكن كنا نشتغل أيضًا، هذا أكيد. لم يكن عندنا ماء في البيوت، لذا ننزل إلى العين خارج أسوار المدينة القديمة لإحضاره. هذا بالنسبة لماء الشرب، أما ماء غسيل الملابس فقد كنا نحضره من بئر قريبة من البيت. اعتادت أمي إحضار امرأة لتساعدها في الغسيل، وكنت وأختي نساعد طبعًا. أنا أتحمّل المسؤولية الأعظم -باعتباري الأكبر سنًّا. أذكر أن أبي عاد في إحدى المرات للبيت بزيّ متّسخ وقال إن لديهم تفتيشًا غدًا. قال: «لازم ندبّر إشي بسرعة» والتفت لي فقلت له: «ما يهمّكش، أنا بدبرها يابا.» أخذت البنطلون ونظّفته منيح، لكن بما إن ما عندنا كوّايه فبسطته على ألواح وحطّيتها تحت فراشي في هذيك الليلة، مشان تضغط عليه. ونظّفت البدلة ولمّعت الأزرار لصارت تبرق برق، وكمان لمعت الجزمة. لما رجع تاني يوم للبيت قال إن المأمور مدح مظهره. قال لي أبوي: «بيّضت وجهي يا بنتي!» انبسطت كتير وقتها. عرفت

---

1. الأغورة: هي الفئة الأصغر من العملة «الإسرائيلية»، إذ ينقسم الشيكل إلى مائة أغورة. استخدمت أم خالد هذا التشبيه لتوضيح فكرتها بالعملة المستخدمة لديهم حاليًّا، فقد كانت العملة قبل الاحتلال «الإسرائيلي» هي الدينار الفلسطيني. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

إن أبوي فخور فيّ كتير. أعتقد كان عمري عشر سنين وقتها.

كنّا نذهب للحمام التركي مرّةً في الشهر -عندما يقبض أبي راتبه. يذهب أبي بمفرده، وأخوتي الكبار يذهبون معًا؛ فهو مفتوح للرجال بعد الظهر وفي المساء، وللنساء صباحًا. أذهب مع أمي وكل الأطفال. إنه مكان فسيح يطلق عليه حمّام العين، بعيدٌ عن بيتنا. تأخذ أمي صابونًا ومناشف وملابس جديدة للتبديل لكلٍّ منّا. تضعنا تحت المزراب الذي يخرج منه الماء الحار، وتظل تفرك وتفرك وتفرك حتى تتقشر جلودنا، فتصبح وجوهنا حمراء عندما تنتهي منّا. بعد ذلك نذهب لركن في الحمام حيث أستطيع الحصول على بعض الانتعاش وشرب الصودا الباردة وتناول البرتقال. كنا نجلس هناك لساعات أحيانًا. بتقدري تقعدي قد ما بدك، ما حدا بيضايقك. أحيانًا بتلاقي عرايس مع أهاليهن قبل العرس. مشوار الحمام بالنسبة لي كان حلو. بشتاق له. كان كخروج العائلة في نزهة.

بالإضافة لذلك، كنا نخرج أيضًا في آخر الأسبوع، بالذات يوم الأحد؛ لأنه يوم إجازة أبي. تحضّر أمي سلّة النزهة ونخرج للعين في سلوان، أو للساحة القريبة من المسجد الأقصى. فأقفز الحبل أنا وأخواتي أو نلعب الخمس حصوات. قضينا وقتًا طيّبًا في تلك الأيام، بتذكّرها كلّها. وأحيانًا أيضًا أثناء العيدين الكبيرين، نذهب إلى أبو غوش. نستقلّ الحافلة من القدس ونذهب بضعة أيام، فنمكث في بيت عمتي. آه، عمتي خديجة، اللّي صارت حماتي بعدين لما تزوّجت ابنها. مات زوجها، وربّت ولادها الثلاثة لحالها، ولهيك كنّا نقعد عندهم. كان والدي المقرّب لها، بيسندها وبيعطيهم اللّي بيلزمهم، وكان بيتهم كبير بيسَعنا كلنا.

أحببت زيارة أبو غوش في هذه النزهات؛ فهي تعدّ نقلة كبيرة عن المدينة. تتنفسين الهواء النقي، لا هواءً مكتومًا كهواء القدس. يمكنك الجلوس تحت

t.me/yasmeenbook

شجرة التين طوال اليوم للاستجمام وتزجية الوقت. لا، ما كان في تصوّري إني راح أرجع أعيش في القرية. ابن عمتي؟ آه، لا. مكانش عندي أدنى فكرة إنه راح يصير زوجي بيوم من الأيام. بحلف، لا! بعمري ما تكلّمتش معه، ولا كلمة وحده؛ عيب! كان أكبر مني بثمان سنين، وأنا يا دوب طفلة، أمّا هو فشاب كبير. بيطلع كل يوم الصبح على شغله في الدّير. كان بيشتغل في الأرض. ما بيخصنيش فيه. بظَلّ مع أخواتي وأخواته لما نروح نزورهم. لما قرّر أبي موضوع زواجي من ابن عمتي فيما بعد، تفاجأت، ما توقّعتش الموضوع كلّه.

الطريقة اللي حصل فيها الزواج كانت هيك؛ زوجي -ما كنتش بعرف الحاصل وقتها، عرفت بعدين -كان بده يتزوج بنت ثانية، غريبة[1]. أمه ما كانت بدها ياها، كانت بدها بنت ثانية غريبة. رفَض، واختلفوا، فتدخّل عمّي -أكبر أخوة أبي- في الموضوع. عمي كان رجلًا قويًّا في عائلتنا ومسموع الكلمة. قال لعمتي وزوجي إن عليه الزواج بي. قال له: «خذ أمينة وانسَ الغريبة، خذ بنت أخوي، هي اللي من ثوبك». كلمة عمّي لها وزنها. وهو من قرّر زواجنا.

في أحد الأيام أخبروني أن عمتي وابن عمتي قادمَين لزيارتنا في القدس لخطبتي. عندما سمعت ذلك ركضت خارجة من المنزل. ركضت وصولًا لبيت عمي. ما كنتش بدي شغلة الخطبة كلها. زواج، شو هاظا؟ ما كنتش بدّي ياه بالمرّه. دوبني كنت بنت ثلاثة عشرة سنة هداك الوقت. بعمري ما قعدت مع ضيوف زاروا قبلها. إذا جاء الناس للبيت فليس مسموحًا

1. باستخدامها وصف «غريبة»، تعني أم خالد أنها امرأة من خارج عشيرتها، بما فيها جميع أحفاد الجد الأكبر.

مكتبة ياسمين

للبنات بالجلوس مع الكبار؛ فالفتاة العزباء لا تجالس المتزوجات. تضيّفهم القهوة ثم تغادر المجلس. لم أرغب في التواجد هناك عندما يأتي ابن عمتي، آه، لا! ما كنتش بدي أعيش برّا بيتنا. اتعوّدت على أهلي، وكنت بديّ أظلّ معهم. لكن زوجة عمي أقنعتني بالرجوع للبيت. فرجعت. وكان ما كان. خبّروني إني راح أتزوّج ابن عمتي.

مع هذا فالعرس لم يُجرَ فورًا؛ بسبب حدثٍ مأساوي حصل في عائلتنا. مات شقيقيّ في ذلك الوقت، أحدهما تلو الآخر. ولم يعد أحدٌ يفكّر حينها في موضوع الزواج بالمرّة. كان محمود في الثامنة عشرة من عمره، بالكاد بدأ مهنته شرطيًّا، مثل أبي. أصيب بحمى التيفوئيد، فذهب للمستشفى وتوفي بعد ثمانية عشر يومًا. ثم أدخل أبي أخي عامرًا إلى سلك الشرطة، وتوفي بعدها بطلقةٍ اخترقت صدره مباشرة. كان عامر يعبئ البارودة عندما انطلقت رصاصة بالخطأ. أصيب بطلقة اخترقت صدره مباشرة. فقدت عائلتي -أبي وأمي- وجميعنا صوابنا. كنا مصدومين. لسنا وحدنا فحسب بل كل أهلنا في أبو غوش. كل واحد منهم. جميعنا في حِداد. من وراها ما حدّش اتزوج، ما كان في طعم للفرح. استمر الحال على ما هو عليه لسنة ونصف. ما كانت هناك زيجات في أبو غوش. لا في أهلنا ولا أهالي الآخرين حتّى؛ فالعشائر الأخرى احترمت حزن عائلتنا. مش متل هالأيام، الحداد بيخلص بعد أربعين يوم، وكل واحد حُرّ يعمل شو ما بدّه. زمان كان للموت معنى حقيقي. الناس تحدّ فترة طويلة. لهذا أوقفت العديد من الفتيات المخطوبات في القرية في تلك الفترة إجراءات زفافهن لسنة أو ما شابه. وأنا أيضًا بالطبع. ثم قال أبي أخيرًا إن علينا البدء بإجراءات زفافي. ومع إنه لا كان في رغبة ولا طعم للعرس في عيلتنا، لكن أبوي حكى: «لازم نبدأ حتى الناس الثانية تصير حرّة تعمل متلنا». وهيك عملنا. نشرنا خبر استعدادنا لإجراء الزفاف، فشعر الآخرون بحرية إجراء حفلات زفافهم أيضًا.

t.me/yasmeenbook

لكن عرسي لم يكن بالمعنى الحقيقي. أقيمت للفتيات الأخريات في القرية حفلات زفاف كما المعتاد، فلبسن ثياب العروس البيضاء، وزفّوهن، مع موسيقى ورقص. ما انعملي ولا إشي من هاظا كلّه. ما كان في حفلة عرس، وبدال الفستان الأبيض قرّروا ألبس فستان أسود. زوجي كان طيّب. وافق أن يجعل مهري ضعف المهر المعتاد لشعوره بالأسف حيالي. لكن رغم ذلك اصطبغت كل ملابسي الجديدة التي تعدّ جزءًا من هدايا الزفاف بطابع القتامة -الأزرق النيلي، والبني، والأخضر الغامق. لم أشترِ أي ثوبٍ ذي لونٍ زاهٍ أو برّاق -لا أحمر ولا زهري ولا أصفر. حتى زوجي ارتدى ملابس سوداء ليوم الزفاف -جلابية وسترة سوداوين. لما جاءت عائلته لاصطحابي من بيت والدي إلى أبو غوش كانت أمي حزينة إلى درجة أنها غصّت بالكلام. كل ما قاله أبي هو: «بنتي طالعه من بيتي، وهاي متلها متل فقدان ولادي الاثنين، كلهم راحوا». وهذا اللي صار. تركت أهلي في القدس الشرقية وانتقلت للعيشه مع زوجي وأهله في أبو غوش.

العيشة في القرية مش سهلة أبدًا. وقتها كنت بنت مدنيّة، مش فلّاحه. أزور القرية، ماشي. لكن العيشة فيها شي ثاني. ما راح أكذب عليك. احتجت وقت حتى أتعوّد على العيشه في أبو غوش. اشتغلت أكثر بكثير مقارنة بالقدس. ما كانش في بوابير كاز نطبخ عليها، ولا خبّاز نشتري منه الخبز. وبتفكّريني حبّيت جمع الحطب لنشعّل النار؟ أو غسل الهدوم بالرماد بدال الصابون؟ لا، لا. معجبنيش. حياة المدينة انسرقت مني. كنت معتادة على تناول وجبةٍ في المطعم مرّةً في الأسبوع، وتناول اللحم كل يوم تقريبًا. شو عن اللحمة في أبو غوش؟ صعب تلاقيها. حماتي بتحطّ بيض بدل اللحمه في الطبخة. بنوكل خضار، خضار بس، بجيبها زوجي من الدير، لأنه بيشتغل فلاح في أرض الدير. كانت الخضار طازجة ولذيذة، لكني افتقدتُ طعام المدينة، وطبخ أمي.

مكتبة ياسمين

علم والدي كم صعب عليّ العودة لقرية أبو غوش. كنت ابنته المدللة، وهو يحبني حبًّا جمًّا. لذا اعتاد المرور مرّة كل بضعة أسابيع لزيارتي حاملًا معه هدية لي -بعض الحلوى من القدس، والفستق والفول السوداني، وغيرها من أشياء يعرف أني أحبها. وفيما بعد -كان قد مضى على زواجي ثلاث سنوات- قرر الانتقال والعودة إلى قرية أبو غوش مع العائلة كلها. شيئًا فشيئًا بنى بيتًا جديدًا هنا. كان يقبض معاشًا جيّدًا لأنه شرطي. وبهذا المبلغ استأجر بعض الفلاحين ليبنوا له البيت. كان للإنجليز مركز شرطة خارج القرية، وما زال هنا إلى اليوم -فقد استولى عليه اليهود سنة 1948 - تعيّن فيه أبي. أعطاه الإنجليز فرسًا جميلًا. اعتاد امتطاءها في دورية يجوب بها أنحاء المنطقة، من قرية إلى قرية. آه، بتذكّر هالفرس! عينك ما حتشوف أحلى منها، فرس لونها بنّي محمر منقّطة نقط بيضا. كان أبوي بيهتم بأكلها وتمشيطها متل لو إنها عروس. وإذا في عرس بالقرية كانوا بيستعيروا منّه الفرس للزفّة. الناس بالقرية حبّت الفرس. وقعدت مع أبوي وقت طويل لحد سنة 1948. لما ولّعت الحرب راح أبوي للأردن وباعها. آه، فرس مَفِش متلها. لليوم لما بشوف الحصن على التلفزيون بدوّر على وحده بتشبهها. لكن ما شفتش متلها، ولا على التلفزيون.

٨

وهيك، كنت بحكيلك كيف العيشه في بيت حماتي. ماشي، اتعوّدت عليها شوي شوي. حماتي تعيش وحدها في البيت ولها غرفتها ولنا غرفتنا. لزوجي أختين تزوجتا كلتاهما قبل زواجنا بيومين فحسب. ولهذا تركتا المنزل. أنا وحماتي توالفنا منيح، واللي ساعد إنها عمتي. اللي كانوا بيحتدّوا في الجدال همّا زوجي وحماتي، فعلًا. أنا باخذ جنب. عمي -اللي قرّر زواجنا- حكالي: «لما يتخانقوا الاثنين سوا، ما تتدخلي بينهم. خليهم يحلّوها بمعرفتهم.» وعملت بنصيحته، نصيحة من ذهب.

t.me/yasmeenbook

مع هيكد زوجي وحماتي كانوا قريبين من بعض، قراب كتير. مات أبو زوجي لما كان في السابعة من عمره، إنه يتيم الأب. ذهب إلى المدرسة -ليست مدرسة بالمعنى الحقيقي- مجرّد شيخ يذهب إليه الأولاد لتعلّم القراءة والكتابة. توقّف عن الذهاب إليها ليعيل عائلته. أخبره أحدهم أن أمه ستتزوج ثانيةً فجنّ جنونه، صار يصرخ ويبكي، وينط ويفطّ. أصر على العمل. وجد عملًا في الدير، أخذوه ليعمل في الحقول التابعة لهم. عمل بجدّ، والكهنة أحبوه. عندما كانوا يصلّون يذهب هو للصلاة في المسجد المجاور. كان الكهنة فخورين به؛ فهو جادّ وشبيه بطباعهم ومتديّن. يقرأ القرآن في غدوه ورواحه من العمل وإليه. تعلّم قراءة الحروف الأبجدية في المدرسة، وأمه علمته قراءة القرآن. هي نفسها ما كانتش بتقرأ، لكنها حفظت القرآن عن غيب من أبوها. بهذه الطريقة، تعلّم زوجي بالأول قراءة القرآن، كانت تصلّح له وبعدها صار يعرف يقراه كلّه لحاله. وهيكد، رايح جاي على الشغل يقرأ القرآن مع حاله. هيكد كان، متديّن ورزين وهادي. مش متلي، أنا اللي بتنرفز وبعصّب أحيانًا، وبحبّ أحكي. زوجي كان زَلَه قليل حَكي.

في بداية زواجنا نادرًا ما نتكلّم. بالكاد عندما نكون وحدنا ولا أحد من حولنا. أمام الناس -حتى أمام حماتي- لا نتبادل الكلمات إطلاقًا. فضّل زوجي هذا الحال. كما أن الدارج في ذلك الوقت ألّا يتبادل الأزواج وزوجاتهم أطراف الحديث أمام الناس. أقصد، إذا كانوا برّا البيت فما بحكوش مع بعض إشي. اليوم، مش بس بتحكي النسوان مع رجالها قدّام الناس، لا، بتجادلن معهم كمان على كيفهن. إليك بعض بناتي كمثال، ليلى إذا لم توافق زوجها على أمرٍ ما فإنها تحدّثه مباشرة. لا تستحي من ذلك أمام الرجال. إذا سألتيني عن رأيي، فبشوف هاظ الشي عاطل. نسوان اليوم -معظم بناتي، وليلى كمان، بطلعن من غير حجاب. بيصحّ هالحكي؟ يمكن ما بيعجبك تسمعيني أحكي هالكلام، لكني بشوفه غلط، ما بعملش هيكد أنا. لما كنت متزوجة -ومن

مكتبة ياسمين

خمسة وعشرين سنة فاتت- كنت بغطّي وجهي بمنديل لما بطلع من البيت للسوق أو للعيادة أو أي مكان. بتذكر في مرّة من المرات -بعد زواجنا بفترة قصيرة- مشيت قدّام زوجي في الشارع في أبو غوش. كنت بدّي أركب الباص اللي رايح للقدس، ووجهي مغطّى، فما عرفنيش. ولكن حتى لو كان عرفني، فمكانش راح يحكي كلمة. الواحد ما بيحكيش قدّام الناس هديك الأيام مع مرته. مش لو كنتي من الناس المحترمة، ما بتعمليها. آه، لا. يا رفيقة، الدنيا تغيرت هون في القرية عن هظاك الوقت، بحلف لك، الدنيا تغيّرت!

ﷺ

هيكد كانت الدنيا ماشية زمان يا حبيبتي في أبو غوش قبل ما تنولدي، قبل زمانك. شو أحكيلك كمان؟ أحكيلك عن ولادي وبناتي؟ ماشي. حملت واحد وعشرين بطن، إنتي بتعرفي عنهم، لا؟ ماشي، جبتهم. لكن، إنجابي لطفلي الأول استغرق وقتًا. كنت في الرابعة عشرة من عمري فحسب عندما تزوجت، ولم أنجب خولة حتى بلغت السادسة عشرة. قلقت حماتي طوال هاتين السنتين الأوليين؛ فزوجي هو ابنها الوحيد، وأرادت له ورثة. لكن إيش متوقعة مني أعمل؟ آخد لها ولد من بيت أهلي؟ بالأخير، فرّحتها وحملت. قالت لي كل النسوة اللاتي رأينني في القرية إنني سأرزق بولد. كنّ ينظرن إلى بطني، ويقلن لي إن شكله جميل وخفيف، ولا بد أنه ولد. ما كنتش واعية، وظنّيت إنهن فهمانات اللي بحكن عنّه. كنت متأكدة إني راح أجيب ولد. لما حانت ساعة ولادتي أخيرًا، قالت لي الممرضة: «ألف مبروك، إجتك بنت!» فرددت عليها: «لا، أنا جبت ولد!» حكت لي مجدّدًا أنها بنت، فأجبتها بأنه ولد. بين أخذ وردّ. لما جاءت أمي وعائلتي لزيارتي، سألت أمي: «إيش جبتي؟» فأجبت: «جبت ولد، بس السّستر بتحكيلي إنها بنت.» غِميَت أمي ع حالها من الضّحك.

t.me/yasmeenbook

بمجرد رؤيتي للطفلة غمرتني السعادة. كانت موفورة الصحة وحلوة التقاسيم، وهذا المهم. سعدت حماتي بها أيضًا، فعلًا. وبدا زوجي سعيدًا. وزّع الحلوى هاشًّا باشًّا في وجه الجميع. هكذا يبدو عندما تولد له بنت. أما مع الأولاد فيبدو جادّ المظهر ولا يبتسم. لم يكن رجلًا يظهر حقيقة مشاعره، وقد أقرّ بذلك فيما بعد. اعترف بأنه في كل مرة أحمل فيها كان يروح للمسجد ويدعي الله يرزقه ولد. لكن لما ييجي الولد بيخبي فرحته، ولما يرزقه بنت بيعمل حاله مبسوط أكتر مما هو مبسوط بالحقّ. هيكد كان أبو خالد، ما بخليش حدا يعرف حقيقة مشاعره.

وهيكد للبطن الثالث لقدرت أسعدُه بجدّ. جبت خالد. سمّاه زوجي على اسمه أبيه الذي مات بينما كان هو صبيًّا. رغم ملامح وجهه الجادّة، عرفت أنه مسرور بولادة خالد. بعد ذلك ولدت ثلاثة أولاد آخرين على التوالي؛ عيسى وإبراهيم ومحسن. وكانت حماتي راضيّةً عنّي كل الرضا؛ فقد ولدتُ لها ورثتها. ساعدتني على الاعتناء بهم جميعًا؛ في إطعامهم وتغسيلهم ولفّهم. إيدها على إيدي. ما كنتش بقدر أدبّر حالي من غيرها، الله يرحمها.

رغم هذا ففي البداية حذّرني الطبيب من الإكثار من الولادات، قائلًا إن ذلك سيؤثّر سلبًا على صحتي. إنني مصابة بالربو منذ السابعة أو الثامنة من عمري. أعطسُ كثيرًا ويلتهب حلقي دومًا. في شبابي أخذني والداي مرّةً إلى امرأةٍ في القدس عالجتني بكَيّ حلقي من الخارج بشوكةٍ ساخنة، لكنه لم يجدِ نفعًا. ما نفعنيش ولا إشي، لا أعشاب ولا أدوية ولا غيرها. لذا بقيت مريضةً بالحلق والربو طوال حياتي. لما بدأت في إنجاب الأطفال حذرني الطبيب وطلب مني التّريّث أربع سنوات بين حملٍ وآخر. كانت حماتي معي في ذلك اليوم وقالت للطبيب: «يا دكتور، اسمع، هذا ابني الوحيد، وإذا ما بتقدرش على خلفة الولاد فابني راح يوخذ الثانية عليها.» كانت بتحكي

مكتبة ياسمين

جدّ، نعم. بعدها حكتلي إنه بيصحّ لزوجي على الشّرع والدين يتجوّز أربع نسوان. ما كنتش بدّي يتجوّز عليّ أكيد. الضُّرّه مُرّه. بعمرك سمعتي بضُرّه منيحه؟ لهيك ظلّيت أجيب ولاد. إيش بقدر أعمل؟ مفيش طريقة ثانية.

أصعب ولادة، من غير شك كانت وقت ما جِبت محسن. اللي خلّاها صعبه هو إنه بعد ما حملت بهالبطن الحرب قامت. سنة 1948. كل من كان في القرية نزح عنها تقريبًا، حماتي وأمي وأخواتي، راحوا كلهم للجهة العربية. قليل منّا ظلّ بالقرية، واتحبّينا معظمنا في الدّير. الكهنة كانوا طيبين مع عيلتنا، يمكن لأن زوجي اشتغل طول هالسنين معهم. أعطونا غرفة الاستقبال نسكن فيها. لكن لما حان موعد ولادتي قال لي زوجي: «مش منيح تولدي هون، ارجعي على البيت.» وقتها كانت الأوضاع هديت في الحرب، لهيك رجعت لحالي. بيتنا وقتها كان قريب من الدير، وسط القرية. ما إجاش حدا معي. اللي عملته هو إنّي غلفت السرير بغلاف بلاستك حتى ما تتوسخ الشراشف بالدم، واتمددت عليه. لفّيت شرشف متل الحبل، وربطته على عمدان السرير الحديد، ومسكتها. كل ما يجيني الطّلق أمدد على ظهري وأشدّ الشرشف، ساعدني. كنت خايفه، ومرعوبة. دعيت الله أولد هالولد وأرجع لولادي الثانيين. والله استجاب لدعواتي. إجا الولد سليم. مع هيكد ما كان عندي شي أقص فيه حبل السّرة. بالآخر إجت بنتي مع هاي السِّت. ساعدتني أنظف حالي، لكنها رفضت تقطع حبل السرة. كانت بتآمن إنها إذا قطعت حبل السرة -هيك كانت بعض النسوان بتفكر وقتها -فما راح تقدر تخلّف بالمرّه. زوجي -اللي كان وصل وقتها- حكى لها: «اقطعيه، يالله! خلصينا!» لكنها رفضت. تركتني معلّقه بين السما والأرض مع ابني المسكين المربوط فيّا. بعد نص ساعة أو أكثر، أخيرًا لقى زوجي وحده ثانية وافقت تقطعه. مرّ كلّ شيء على خير. بقيت في البيت مع محسن، هذا ما أطلقناه عليه. عاد أطفالي الآخرين مع زوجي أيضًا. الحمدلله أنهم جميعًا بخير، رغم أن الحرب ما زالت

t.me/yasmeenbook

جارية. بقينا في بيتنا بعدها رغم أن اليهود شرعوا بالتعرض بالأذى والمشاكل لمن بقي. لكننا نجونا، لم نهاجر ولم نرجع. ظلّينا في بيتنا بس.

عندما أعود بذاكرتي لحرب 1948 فإنني أعتقد أن نجاتنا معجزة. الله حمانا وحمى أبو غوش. رغم أن معظم الناس هجّروا إلا أننا استطعنا المحافظة على قريتنا. إنها الوحيدة في المنطقة برمّتها التي لم تدمّر. الحمدلله. كنّا محظوظين جدًّا.

كنّا عارفين إن الحرب جايّه، بس ما حدا كان عارف متى. الناس صابهم الرعب. ما زال الإنجليز هنا، لكن القتال ظلّ مستمرًّا في القرى التي حولنا. قرّر العديد من الناس مغادرة أبو غوش، ذهبوا للجانب الأردني، وأخذوا معهم القليل من المتاع كأنهم ماضون في رحلة، آملين العودة في غضون أسابيع قليلة أو شهر. رحلت حماتي مع ابنتيها وعائلتيهما، وكذلك أختاي المتزوجتان وزوجيهما. إحدى أخواتي -جليلة -كانت متزوجة من مختار القرية -حمّاد. أعطاه الإنجليز عشر بنادق للدفاع عن القرية بأكملها. متخيّلة؟ عشر بنادق إلنا كلنا؟ أدرك حمّاد أن لا أمل يُرجى لنا بالصمود، وفعلًا. ما حدث هو أن اليهود انقضّوا على القرية من فورهم بسهولة حالما رحل الإنجليز. رحل والديّ مع أختيّ غير المتزوجتين قبل أن يحصل ذلك. ذهب أبي إلى القدس ليقبض راتبه، لكن طريق العودة كان مقفلًا، ولهذا بات عليهم أن يظلّوا في الجانب الأردني. أراد زوجي مني الخروج مع والديّ وأخذ أطفالي معي. أعطاني مائة جنيه وقال لي: «بعت البقرة. خذي هذي الفلوس وروحي مع أهلك.» فجاوبته: «الفلوس ما بتكفيش، وما حيبقى منها إشي. أنا قاعده هون، مهما حصل. إذا متنا بنموت سوا. وإذا عشنا بنعيش سوا.» لم يجادلني زوجي، وسمح لي بالبقاء.

مكتبة ياسمين

اختبأنا في الدير. لم يكن هناك كثيرٌ ممن بقي في القرية، لكن أولئك الذين ظلّوا هنا اختبؤوا عند الكهنة. كنا جميعًا هناك في اليوم الذي رحل فيه الإنجليز عن المنطقة. انقضّ اليهود علينا، كان هناك إطلاق نارٍ شديدٍ لفترة من الزمن -مثل فرقعة الحمّص بالمقلا- وبعدها ساد الهدوء. جاء اليهود إلى الدير وجعلونا نخرج إلى قلب القرية. اعتقدنا بأنه سيطلقون النار علينا جميعًا. سمعنا بعض جنودهم يقولون: «خلونا نطخّهم». بقينا لساعات تحت الشمس لا ندري ما سيفعلونه بنا. وقف بعض الجنود للحراسة، فيما جال آخرون في القرية بيتًا بيتًا. بعدها تلقّوا تعليماتٍ بتركنا وشأننا، فرحلوا بالسرعة نفسها التي جاؤوا فيها. كنّا نعرف بأنهم سيعودون والرعب تملّكنا.

بعدما راحوا ذهبت وزوجي للبيت. كان مقلوبًا رأسًا على عقب. فتحوا الخزانة وألقوا كل ما فيها خارجًا. توجّهت فورًا إلى المرآة التي على باب الخزانة؛ فخلفها -بين الزجاج وظهرها الخشبي- كنت أخبئ المائة جنيه التي أعاطنيها زوجي عندما باع البقرة. كان يعلم أن المال هناك أيضًا، كنا الوحيدين اللذين يعلمان بذلك. لكني لمّا فتحت المرآة لم أجد المال. اتهمني زوجي فورًا قائلًا: «إيش عملت بالمصاري؟ أعطيتيها لأهلك؟ ما هيك؟» صدمت لمّا سمعته يتكلم معي بتلك اللهجة، وفوق ذلك فأنا أعرف أن اتهامه باطل. جعلني كلامه أتوقف لأفكر، ثم قلت له: «أمك صارت بالناحية الثانية هناك، وجاي تسألني إيش عملت بالمصاري؟» جن جنونه. دخلنا في جدال حَمِيَ وطيسه أكثر فأكثر. كلّ منّا يدّعي أن الآخر كاذب، مما حفر بيننا شعورًا أليمًا.

لم ينقضِ الأمر برمته إلا بعد مرور عدة أشهر. بعد ولادة محسن وعودتنا لبيتنا. ما زال اليهود يأتون في دوريات في الليل أو أثناء النهار، ما حدا بيعرف متى بالضبط. تسمعين وقع أحذيتهم وخطواتهم. أقسم بالله إن هذا كان

t.me/yasmeenbook

يخليني أرتجف من خوفي. حتى يومنا هذا تسري في جسدي قشعريرة إذا ما رأيت جنديًّا يهوديًّا أو شرطيًّا -ولو عن بعد. عندما يأتون في دورياتهم تلك لا نعرف ما الذي سيحدث أبدًا؛ فهم دومًا إما يبحثون عن أحدٍ أو شيءٍ ما. في إحدى المرات قرعوا الباب آمرين بأن نفتح لهم. كنت برتعش من خوفي. دخلوا وصاروا يقلبوا كل شي فوق تحت. قال لي واحد من الجنود: «وين مفتاح الخزانه؟» وقبل ما أحكي كلمه قام جندي ثاني -اسمه موشيه- من اللي بيكونوا دايمًا في الدوريات، وقلب الطاولة على ظهرها وطلّع المفتاح، وفتح الخزانه وراح على طول للمراية وفتحها. مَفِشّ فيها إشي هالمره، مكانش عنا إشي نخبيه وراها. لكني عرفت أنا وجوزي إيش اللي حصل للميت جنيه. لما روّحوا الجنود، إجالي جوزي وقال: «هلكيت عرفت كيف اختفت المصاري.» ارتاح قلبه، وأنا كمان. وأخيرًا غادرنا الشعور الأليم الذي استقرّ بيننا كل تلك الفترة. عرفنا من الذي أخذ المال.

لم يُسرق منّا غير ذلك لأننا عدنا للبيت. لكن كل الذين رحلوا عن القرية تعرّضت بيوتهم للجرد. جاء اليهود بشاحنات واقتحموا البيوت وأخذوا ما يشاؤون منها -البُسُط والخزائن والكراسي والطاولات والأطباق والأواني والأكواب الفضيّة والنحاسية، كل إشيء. جاؤوا في وضح النهار وحمّلوا ما شاؤوا ثم ذهبوا ثم عادوا وحمّلوا المزيد وذهبوا من جديد. مقدرناش نعمل إشي معهم. جاء اليهود بعدها بأحصنتهم وحميرهم للحقول وحمّلوا صناديق وصناديق من الخضار والفاكهة -كالطماطم والخيار واللوز والعنب -أخذوها كلّها. إيش بنقدر نعمل؟ مفيش بإيدينا إشي نعمله تا نوقّفهم.

لاحقًا -بعد الحرب- أخذوا الأرض أيضًا. صادرت الحكومة «الإسرائيلية» أرض هذا وذاك، من مين ما بدهم. كان عندنا ثلاث دونمات في القرية باسم زوجي ما أخذوها. لكننا كنا نملك أيضًا تسعين دونما باسم

مكتبة ياسمين

زوجي في قرية عمواس[1]. ما زالت بحوزتنا الأوراق التي تثبت ملكيتها لنا. تلك الأرض المنبسطة هناك مناسبة لزراعة القمح والذرة والسمسم. إن للعديد من أهالي أبو غوش أراضٍ هناك؛ فالذين يعملون فيها يعطوننا جزءًا من المحصول ويحتفظون بجزء لهم. في سنة 1948 انتزع الجيش «الإسرائيلي» تلك الأرض، ولم نستعدها بعدها. قلت لزوجي: «إحنا مهاجرناش، وهاي أرضنا، روح وطالب فيها.» فأجابني أبو خالد: «جيشهم قاعد فيها. أكتر إشي ممكن يعملوه هو إنهم يعطوني بدالها كمن قرش، انسيها، راحت خلص.» اليوم، فهمت، بعمري ما شفتها من قبل، زوجي راح لحاله وشافها، اليهود زرعوها. زرعوا فيها الجوافة، وحكى لي في مرّة من المرات عن اللي شافه. لكن عندي لليوم الأوراق اللي بتثبت ملكيتنا للأرض، وإنها إلنا.

بعد حرب 1948، أو أثناءها، استمرت رحى الحرب دائرة لمدة طويلة بعد أن دخل اليهود القرية لأول مرة. جاء اليهود في أحد الأيام معلنين بأنهم سيعطوننا بطاقات هوية. يستطيع أي شخص يعيش في القرية الحصول عليها. البطاقة تعني أننا مواطنون «إسرائيليون»، وأن بإمكاننا البقاء في القرية، ولن يرمونا خارجها. رحنا كلنا وطلعنا بطايق. واليهود عيّنوا لنا مختار جديد -مروان- اللي حلّ محلّ زوج أختي -حمّاد. لكن مين هالمختار الجديد؟ زلمه جاهل، مش أكتر. ما كان متعلم متل حمّاد. اليهود كان بدهم شخص يتحكموا فيه لهيكد حطّوه. ما بعرفش قدّيش ساعدهم في التحكم فينا أو كيف. بعرف إنه سرق الخضار عشانهم وقبض من ورا هالشغله مبلغ

---

1. عمواس، قرية فلسطينية تبعد حوالي خمسة عشر كيلو مترًا عن أبو غوش. بعد حرب 1948 صارت تتبع جانب الحدود الأردنية. لكن العديد من الحقول حول القرية -بما فيها تلك التي لزوج أم خالد- واقعة على الجانب «الإسرائيلي» من الحدود. قبل عام 1948 كان المزارعون في القرى الجبلية كقرية أبو غوش يمتلكون أراضٍ في السهول إما يعملون فيها بأنفسهم أو يؤجّرونها. في حرب 1967 استولت «إسرائيل» على قرية عمواس وسوّت القرية بالأرض.

t.me/yasmeenbook

منيح. ومبقدرش أحكي أكتر من هيكد.

أثناء هذه الفترة كان هناك العديد من أهالي أبو غوش الذين ذهبوا للأردن وصاروا يودّون العودة الآن. بعضهم عاد متسلّلًا فعلا قبل أن توزّع بطاقات الهوية، وتدبروا أمرهم للحصول على بطاقاتهم. لي بعض من أبناء عمومتي ممن نجحوا بتلك الطريقة. حاول آخرون العودة بعد إعطائنا البطاقات فواجهوا مشكلات. حاول أبي وأمي لكن بعد فوات الأوان، وكذلك أعمامي وعمّاتي. إذا كان عندك واسطة مع اليهود أو علاقات معهم فبتقدري تاخذي بطاقة هوية وتبقي. إذا ما عندك، فاليهود عاجلًا أم آجلًا راح يمسكوك في وحده من دورياتهم ويرموك برّا الحدود من جديد. بييجوا في شاحنات وبيحملوك ويحملوا اللي متلك ويرموك في الأردن. رموا والديّ مرّتين بهذه الطريقة. لا، أمسكوا بأبي مرّتين وبأمي مرّةً واحدة؛ فقد استطاعت أمي في المرة الثانية البقاء هنا فترةً من الزمن، لكنها سمعت بأن أبي يفكر في الزواج من ثانية فلم تبق في أبو غوش فترة أطول وعادت للجانب الآخر لتعيش مع أبي. مكثوا هناك حتى سنة 1965م إلى أن استطعنا استخراج لم شمل يمكنهم من العودة للقرية.

في البداية -بعد الحرب مباشرة- لم يكن من الصعب التسلل ذهابًا وإيابًا عبر الحدود. أقصد، ممكن تنصابي بطلقة رصاص وإنتِ بتحاولي، لكن غالبًا كانوا بيعبروا. في متسلّلين بيعرفوا طرق معينة وممكن تدفعيلهم حتى يساعدوك تمرقي. المتسلّلين كانوا غالبًا شبابًا من أبو غوش. كان لي بعضٌ من أبناء عمومتي ممن يشتغلون في هذه المصلحة. يذهبون ناحية الجبال ليلًا، ويختبؤون فيها عند الضرورة. ما كانوا يجلبون الناس فحسب، إنما المال والطعام والثياب أيضًا. بعض القرويين الذين نزحوا من هنا سنة 1948 أخذوا الكثير من المال معهم، فأرسلوه لأقاربهم الصامدين. كان من السهل

مكتبة ياسمين

إخفاء المال، لكن إذا أرسل لك قريبك طعامًا أو ثيابًا فمن السهل الإمساك بك. عندما كان اليهود يأتون في دورياتهم كانوا يبحثون عن هذه الأشياء.

في مرّة من المرات أرسلت أختي جليلة -المتزوجة من حمّاد- حذاءً ونعلًا لي ولزوجي، بالإضافة لأشياء أخرى. جاء اليهود إلينا في دورية فاستقبلهم زوجي عند الباب. نظروا إلى حذائه وقالوا: «المهربين جابولك ياه. هذا مش من هون. شو جابولك كمان؟» وبعدها قلبوا البيت فوق تحت، بس كل اللي لقيوه هو جزمتي. كان أجمل حذاء اقتنيته في حياتي. لكنهم أخذوه كما أخذوا نعل زوجي. جن جنوني. لكن ما عملونا شي ثاني. ما كنّا بنخبي المهربين، ومبنعملش إشي ضدهم، وعندنا هويّاتنا، لهيك تركونا في حالنا.

بعد أن وضعت الحرب أوزارها -بعد سنتين أو أكثر- صار التسلل صعبًا. لازم الواحد يكون عنده ورق تا يرجع وإلّا فالموضوع خطير من غيرها. دبّرت أختَيّ أمر عودتهما مع عائلتيهما بهذه الطريقة. في الحقيقة، اللي صار هو إن زوج أختي -حمّاد -هو اللي دبر موضوع عبور الحدود مع واحد من المتسللين، وهذا دبّر موضوع الورق لجليلة وزوجها المختار حمّاد كمان. وهكذا فكلتا العائلتين بأطفالهما عادتا إلى أبو غوش. كان ذلك بعد أن رزقت بليلى بوقتٍ قصير -لا بد أنه حصل بين عام 1953 و1954.

العودة إلى أبو غوش كانت صعبة جدًّا على جليلة وزوجها. كانت صعبة على المختار؛ فقد عاد خالي الوفاض، فكل ما أخذوه معهم في سنة 1948 قد نفد. قضوا سنواتهم تلك قاطنين في منطقة بيت لحم. عامل الأهالي حمّاد كخائن. لمّا وصل في سنة 1948 لعنوه وقالوا له: «كيف تركت قريتك لليهود؟» أهانوه بل إنهم اعتدوا عليه جسديًّا. عاش خمس سنوات في خزي، ثم دبر أمر عودته إلى هنا مع زوجته وأولاده. لكن إيش حصل له هون؟ الناس ما زالت بتحترمه، وما زلنا بنشوفه مختارنا الحقيقي، حتى

t.me/yasmeenbook

لو نصّب اليهود علينا غيره. لكن حمّاد رجع بخفّي حنين، لا فوقه ولا تحته. استولى اليهود على أرضه، وفرّغ اللصوص محتويات بيته. مكانش معه ولا قرش واحد يطعمي عيلته. لذا توجّب عليه العمل كعاملٍ عاديّ، مع شباب القرية. حمّاد اللي كان مختار المخاتير، وأكثر الرجال المحترمين في المنطقة، الزلمه اللي بيصلح بين الناس ويستقبل الضيوف ويذبح الذبايح، إيش صار من بعدها؟ ولا إشي. هيكد شاف حاله على كل حال. أحس بالمهانة لكل ذلك حتى أنه دعا الله أن يعجّل في موته. هذا ما حكته لي أختي. لم يرد حمّاد أن يعيش أكثر. وفي أحد الأيام استجاب الله لدعائه. عاد إلى بيته من عمله في ذلك اليوم حاملًا عدّته، مطرقته في يده. عندما نزل من الحافلة في قلب القرية كانت السماء تمطر وتبرق وترعد. ضربت صاعقة مطرقته فأصبح حمّاد كعود خشب محترق. وضع الله حدًّا لمهانته. كانت أختي ما تزال في عز شبابها عندها ولها أطفال صغار تولّت تربيتهم بنفسها. إيش هالحياة اللي عاشتها! ضيم. بظن إنك بتعرفي واحد من ولادها -وليد -متزوج من ليلى. هذا صحيح، وليد زوج ليلى هو ابن حمّاد. ووليد -متل ما بتعرفي- زلمه محترم في القرية هلكيت، سمعة أبوه الطيّبة ما زالت حيّة. عاشت أختي معهم وقت طويل لكنها ما زالت بتعيش في بيتها لحالها، بيت حمّاد. عجوز متلي، وإحنا الثنتين أرامل هلكيت. الوقت بيركض ركض، ولّلا إيش؟

مكتبة ياسمين

ليلى

ليلى هي ابنة أم خالد الثامنة، والرابعة في الترتيب بين أخواتها. ممتلئة الجسم ولطيفة المظهر بالنسبة لامرأة في الثانية والأربعين. هي كأمها تتكلم بعجالة ومنفتحة الآراء والعواطف. رغم ذلك فإن لها مظهرًا عصريًّا ومتماشيًا مع الموضة عكس أمها. فهي تضع الماكياج ولا تغطي شعرها البني الطويل بالمنديل، وتفضّل القمصان والفساتين التي تبتاعها من محلات «تل أبيب».

ليلى وزوجها -وليد- نشآ في أبو غوش، واختارا البقاء فيها ليربيا أطفالها السبعة. واليوم يعيشان في فيلا في القرية تبعد حوالي مائة متر عن المسجد والدير. وبما يعكس نجاح وليد مقاولًا فإنهم يعملون على تحويل بيتهم من بيتٍ متواضع مكوّنٍ من خمس غرف إلى مبنى فخم مكوّنٍ من طابقين به عشر غرف وشرفة فخمة، مما يجعلنا ميالين للقول إن بيتًا كهذا يلائم ابن مختارٍ سابق.

أجريت كل اللقاءات السبعة في بيت ليلى، إما في غرفة الجلوس أو المطبخ. في بعض الأحيان بالإمكان مقابلة ليلى وحدها، ولكن كما جرت العادة فقد يصدف تجوال شخصٍ ما قريبًا -كحماتها، وأختها المتزوجة، أو أحد أطفالها الصغار. نادرًا ما تواجد زوجها وليد هناك -رغم أن ليلى أعلمته بمشاركتها في المشروع.

قبل إجراء هذه الدراسة لم تكن ليلى ورفيقة عثمان تزوران بعضهما بعضًا،

t.me/yasmeenbook

لكن ليلى رحّبت بإجراء المقابلات معها لأنها -مثل أم خالد- على معرفة بعائلة رفيقة. في الحقيقة، لقد التحقت بالمدرسة مع أخت رفيقة الكبرى. وافقت ليلى بالإضافة إلى ذلك على مشاركة مايكل غوركن في المقابلات، لكن بما أننا أجرينا مقابلات أمها لوحدها فقد قررنا أن نجري مقابلاتنا مع الابنة بالطريقة نفسها، وقام مايكل[1] بزيارةٍ ذات طابع اجتماعي في نهاية المقابلات.

تعد ليلى -المولودة بعد قيام «إسرائيل» بأربع سنوات- إحدى النسوة المذكورات في الكتاب التي عاشت كل حياتها في ظل «دولة يهودية». خبرتها في المدرسة والعمل وأمًّا تربّي أطفالها، كلها تعكس هذه الحقيقة. بالإضافة إلى أنها -عندما سألناها كيف تصفُ نفسها -فإنها على نحوٍ مُخالفٍ للأخريات في الكتاب، لم تُشِر لنفسها باعتبارها فلسطينية، بل باعتبارها من عرب «إسرائيل». (بالمقارنة مع أم خالد التي قالت: «أنا فلسطينية أحمل الهوية «الإسرائيلية» -فلسطينية «إسرائيلية»).

إن المادة الواردة أدناه، مقتطفة من اللقاءات التي أجريت مع ليلى، حيث تستعيد فيها ذكريات حياتها برمّتها -طفولتها ودراستها وزواجها وخبرتها العملية- كما هي جليّة للعيان في قرية أبو غوش.

من وين أبدأ؟ ما بعرف كيف أعمل هيك. شو، بس أحكي عن حالي؟ ماشي، منيح. أول شي بدي أحكيه هو إني متلك.. من هون. عشت كل حياتي في أبو غوش، وأتوقع أن أظل فيها ما تبقى من حياتي. أحب هذه القرية؛ فهي مكانٌ جميلٌ وأهلها طيبون، مو هيك؟ كل أخواتي وإخوتي ما زالوا هنا، ما

1. كما سبق وأشرنا في المقدمة، كنا قلقين من معارضة أخوة ليلى لمشاركتها في الدراسة.

مكتبة ياسمين

عدا منى ونادية اللتان تقطنان في القدس الشرقية، وعائلة وليد أيضًا، فهم جميعًا هناك. هذا هو الحال في قريتنا. يبقى الناس هنا عادةً، ويتزوجون منها. إن أبو غوش منطقة جميلة للسكنى.

شو بتذكّر عن طفولتي؟ طيّب، ما بقدر أحكي إني بتذكّر شي هسّه. ما بتذكّر طفولتي قبل المدرسة عمومًا. ما كان عنّا شغلات كتير نعملها متل جيل اليوم، وما كان في حضانة في قريتنا وقتها. يا تبقي بالبيت يا تروحي لبيت عمك، أو الدكّان تشتري شي لأمك. بس. أيامنا مختلفة عن أيام ولادنا.

كان بيتنا يقع في قلب القرية، قريبًا من الدير حيث يعمل أبي، ويسكن فيه اليوم أخي محسن -الذي ولد أثناء حرب 1948، وتم تأجير جزءٍ منه الآن للقرية لحضانة. ما أذكره أننا أيام سكننا هناك كانت لنا ثلاث غرف نوم؛ واحدة لوالديّ اللذين يملكان سريرًا حقيقيًّا، وغرفة للأولاد، وأخرى للبنات. كنا ننام على فرشاتٍ على الأرض في سطر. كل واحدة تلي الأخرى على حسب العمر. أنام إلى جوار رنا -أختي الكبرى. يا الله! قد ما كنّا نتقاتل! تسحب شعري فأسحب شعرها، وننتهي فوق بعضنا بعضًا. هيك بيكونوا الرّوسِيَّة[1]، ما هيك؟ كل وحده بتحسد الثانية. اليوم صرنا صديقتين، اللي فات مات. صار عندها عشرة أبناء، ونحنا متفقات. ما في مشاكل.

أيامها، كنّا نصفّي شجاراتنا بأنفسنا، أو ربما تتدخل إحدى شقيقتيّ الأكبر سنًّا، خولة أو زاهرة، فهما تساعدان أمي. أمي نفسها -كانت مشغولة عنّا بأمور أهم من شجاراتنا؛ فهي دائمة العمل في التنظيف والغسيل والطبخ لخمسة عشر أو ستة عشر طفلًا. ليس لديها وقتٌ لتتدخل في شؤون إحدانا أو كلتانا. بقصد، ما كان الوضع زمان متل هالأيام بتقعدي مع تحكي مع الصّغير، ما كانوا يعملوا هيك وقتها.

---

1. الرّوسِيّة تشير إلى الأشقاء المقاربين في العمر؛ أي قولنا إن أحدهما ولد فوق رأس الآخر.

t.me/yasmeenbook

بتذكّر لما مات أخوي خالد، ما حدا إجا تا يحكي معي عن الموضوع. لا أمي ولا أبوي ولا حدا. عمري كان وقتها خمس سنين، بتذكّر كيف كان خالد ضعيف ووجهه باهت، لكن ما كنت بعرف إنه مريض. أكبر خواني كان، طويل ووسيم بشعر أشقر وعيون عسلية وبشرة شاحبة. عمّ البكاء والصياح البيت في أحد الأيام، وقال أحدهم إن خالد قد مات. الموت، شو يعني الموت؟ ما فهمت. ما حدا شرح لي. شرحت معناه من حالي لحالي، واستوعبت اللي صار لحالي. في الحقيقة لم أستوعب ذلك إلا في متأخرةً، عندما أصبحت طالبة في المدرسة، في الخامسة من عمري. مين اللي بيعرف شو الموت؟

ما أحببته حقًّا في مرحلة الطفولة هو الذهاب للمدرسة. كانت المدرسة تقع على مرمى حجر من بيتنا، في قلب القرية. التحقت بها من الصف الأول إلى الثامن. فهذه هي المراحل التي كانت موجودة في القرية وقتها. لم تكن هنالك مدرسة ثانوية. رغبتُ في الذهاب للمدرسة الثانوية كما فعلت شقيقتاكِ. أردت أن أدرس أكثر، وأن أصبح ممرّضةً ربما. لكن والديّ لم يوافقا على مغادرتي القرية والذهاب للقدس للالتحاق بالمدرسة الثانوية كما فعلَتْ شقيقتاكِ. وعليه، عندما وصلت المدرسة لآخر مرحلةٍ فيها هنا، توقفتُ أنا الأخرى عن الدراسة.

كنتُ فخورة بذهابي للمدرسة. أحببتُ الخروج كل صباح مع حقيبة كتبي. مرتدياتٍ الثياب والقمصان المدرسية؛ ثيابًا زرقاء فاتحة عليها شعار المدرسة -مدرسة أبو غوش- وعلى القميص تطريز لعنقودٍ من العنب. هيك لازم تلبسي. ممنوع تلبسي بنطلون إذا كنتِ بنت، الأولاد بس اللي بيلبسوا بنطلون. وإذا كنتِ في الرابعة عشرة أو أكبر، فالمتوقع منك ارتداء الحجاب. هيك كانت العادات وقتها، اتغيّرت بعدين.

مكتبة ياسمين

في الصفوف -كانوا ثمانية، صفٌّ لكل مرحلة- يجلس الطلاب والطالبات معًا، كلٌّ في ناحية. لكننا نتبادل الحديث والنكات، كنّا أصدقاء. مثل أخوةٍ لنا. لو سألتيني رأيي، ما في مشكلة إن الأولاد والبنات يكونوا بالصفّ سوا. شو المانع؟ لم نكن نلعب مع الأولاد بعد المدرسة، آه، لا! لا يسمح لنا والدانا بذلك. المدرسة شي، واللي بعد المدرسة شي تاني.

أنا حبّيت وجودي في المدرسة. حبيت أتعلم شغلات جديدة. شو المواد اللي حبيتها؟ اللغة الإنجليزية، كانت مادتي المفضلة على ما بظن. والعربية، تعلمناها كمان، من الصف الخامس. كنت بحكي عبري منيح، لكني نسيت معظمها هسّه. وليد اللي بيعرف يحكي فيها، بلبل فيها متل اليهود، مع إنه درس للصف الثامن بس. خلينا نشوف، شو تعلمنا كمان؟ آه، الرياضيات، كانت أصعب المواد بالنسبة لي بالتأكيد. وبعدها يأتي الدين والجغرافيا والتاريخ واللغة العربية. درسنا لغتنا أيضًا، من الصف الأول وما تلاه.

في العربي واجهتنا بعض المشكلات؛ فمعلماتي لم يكنّ عربيات -كنّ يهوديّات من دول عربية، غالبًا من العراق. شوفي، وقت ما كنت أروح عالمدرسة ما كان فيها مدرسات عربيات بالمرة. لحد الصف السابع، بعدها فجأة الوضع تغيّر. جاء إلينا مديرٌ جديد -رجل عربي- والعديد من المدرسات العربيات من الشمال من اللواتي أنهين دراستهن الجامعية. حتى ذلك الحين -سنة 1965 أو 1966 - فاليهوديات العراقيات هن من يدرسننا. هؤلاء العراقيات اليهوديات يتكلمن العربية بطلاقة، لكنها مختلفة عنّا؛ فهن يلفظن الظاء والقاف من أعماق الحلق، لا بسلاسة كما نلفظها نحن. لهيك صرنا نحكي متل معلماتنا اليهوديات العراقيات -أقلّها في المدرسة. لما جاء مدير المدرسة والمعلمات الجديدات استاؤوا منّا. أرادوا منّا التحدث بنطقٍ صحيح، لا مثلهن. بتذكر المدير إجا في يوم من الأيام لصفنا ليشوف كيف تحسّنا في

t.me/yasmeenbook

النطق، وكل بنت لسّاتها بتحكي على الطريقة العراقية انضربت على إيدها. أنا انضربت كمان. آه حصل. بتذكره ليومنا هذا.

تغيّرت أمورٌ أخرى في المدرسة بعد فترةٍ وجيزة من مجيء المدير الجديد. أعتقد أنه كان رجلًا قويًّا وصالحًا يهتمّ بشؤون الطلاب. لقد أحرز بعض التغييرات. فعلى سبيل المثال؛ بعد تسلّمه منصبه لم نعد نحتفل ببعض المناسبات اليهودية كما قبلًا. حتى ذلك الحين كنا نقيم احتفالًا كبيرًا في مايو، في يوم استقلال «إسرائيل». فالمعلمات والطالبات يزيّنَ الصفوف بالبالونات والأعلام «الإسرائيلية» البيضاء والزرقاء. وتذهب الصفوف الدراسية الثمانية إلى ساحة المدرسة لتلقي المديرة -عراقيّة يهودية- خطابًا طويلًا عن معنى يوم الاستقلال. ثم نغني تلك الأغاني بالعربية، مثل: «بعيد استقلال بلادي غرّد الطّير الشّادي.. عمّت الفرحة البلدان حتّى السّهل والوادي.» متل ما إنتي شايفه، لساتني بتذكّرها. لما بتذكّر أيام زمان، بحس إنّه ما كان لازم يجبرونا نغني هيك أشيا. أنا مبسوطة لأن المدير العربي غيرها. ولاد اليوم ما بيعملوا متل هيك بالمرّه، لا بيزينوا صفوف ولا بيغنوا أغاني. بيعلقوا علم «إسرائيلي» في المدرسة وخلصت على هيك. لكن على أيامي كنّا جاهلين، إذا طلبت المعلمة منّا نزيّن الصف زينّاه، وإذا طلبت منا نغني فبنغنّي.

إذا ما نظرتِ إلى الماضي الآن، آخذةً في عين الاعتبار ما نعرفه حاليًّا، فستدركين مقدار ما لم نتعلّمه. سألتني عما إذا درسنا في المدرسة عن حرب 1948. لا، لم ندرسها، ما بتذكّر شي عنها. لا في درس التاريخ، ولا في غيره. ما أذكره هو أننا درسنا عن التاريخ القديم؛ نابليون وهيرودت والرومانيين. ودرسنا عن هتلر وشخص آخر، موسو... فلان. أما ما يتعلق بحرب 1948، وكيف تقاتل العرب واليهود، ولماذا قامت الحرب أساسًا، فلا أذكر أننا درسنا شيئًا من هذا القبيل إطلاقًا. درستِ عنها في زمانك يا رفيقة؟ لا؟

مكتبة ياسمين

شُفتِ. إنها ليست ضمن ما يدرّسونه. الآن، أجل، تغيّرت المناهج. أطفال اليوم يتعلمون هذه الأمور. اليوم، كل معلمة تقريبًا في أبو غوش هي معلمة عربية. لكن في زماني ما كنّا نحكي عن هاي المواضيع -الحرب بين العرب واليهود- مش في المدرسة.

أكيد العيشه في أبو غوش بتخلينا كلنا عارفين عن بعض اللي حصل في حرب 1948. ليومنا هذا لا يمكنني القول إنني أعرف الكثير، لكنني على علم بما حدث هنا -بعض منه- رغم أني ولدتُ بعد الحرب. لجميع أهالي أبو غوش عائلةٌ في الطرف الآخر، في الأردن. أذكر أننا -عندما كنتُ في حوالي العاشرة من عمري- ذهبنا إلى بيت صفافا راجين أن نرى أقاربنا الذين يقطنون في الأردن[1]. رحتُ مع طفلٍ من مثل سنّي وبعض عماتي. لم أذهب مع والديّ -لم يذهبوا تلك المرّة. كان هناك العديد من الناس يهتفون عبر السياج محاولين التحدث مع أقاربهم. فجأة، قالت عمتي جليلة: «هيها ليلى، هناك!». بعمري ما قابلت خالتي ليلى، كل اللي بعرفه إن أمي سمـتّني على اسم أختها. صاحت منادية عليّ: «بنت مين إنتِ؟» فأجبت: «بنت أمينة، أنا ليلى!» بكت خالتي، وبكت.. بحلف بالله أنا كمان بكيت. بعدها أغمي على لبيبة -بنت عم أمي؛ فقد جاءت معنا آملةً أن ترى أخاها الذي يعمل شرطيًّا على الجانب الأردني. سرت إشاعة في القرية بأنه مات، لكنها لم تصدقها، فجاءت تبحث عنه. أرادت تجاوز السياج لتجده لكنهم لم يسمحوا

1. بعد حرب 1948 فإن الحدود بين الأردن و»إسرائيل» كانت تمرّ بقرية بيت صفافا، الواقعة جنوب القدس؛ قسمت الحدود القرية بسياجٍ إلى قسمين؛ «إسرائيلي» وأردني. كان العرب من قرية أبو غوش وغيرها من القرى داخل «إسرائيل» يأتون إلى بيت صفافة آملين رؤية عائلاتهم على الطرف الأردني والهتاف بالتحايا والسلامات.

t.me/yasmeenbook

لها. لم يسمح لها «الإسرائيليون»، فتملّكها الإحباط التام، وأغمي عليها. في النهاية أرسلوا أحدًا في محاولةٍ للعثور عليه، ومتل ما إنتي عارفه، كان عايش! إجا أخو لبيبة من الجانب الأردني للسياج وسمح له «الإسرائيليين» يعبر ليلاقيها. بتذكّر المشهد كإنه قدّام عيني. وقفنا هناك وهما حاضنين بعض، بكينا كلنا. ما بنساه أبدًا.

بطبيعة الحال، سمعنا قصصًا عديدة عن أولئك في الأردن، لم يجلس معنا أحدٌ ليشرح لنا كل ذلك -كيف نشبت حرب 1948 ولماذا؟- لكننا تعلمنا من هنا وهناك. جليلة -أخت أمي وحماتي الآن- تحدّثت كثيرًا عن الحرب. إنها تحب الحديث وفي جعبتها من القصص الكثير. كانت متزوجة من المختار حمّاد -بتعرفي، صحيح؟ عاشت في الأردن خمس سنوات ثم تدبّرت والمختار أمر العودة إلى هنا بأطفالها. ولد وليد هنا قبل أن يغادرا. كان في السادسة من عمره عندما توفي والده، لكنه ما زال يتذكره. وجليلة تتحدث دائمًا عن الأيام الخوالي. البارحة فحسب، كانت هنا تعاونني في طبخ المقلوبة، وتتحدث عن المختار.

بحلف بالله إن حماتي عاشت عيشه صعبة. آه، أي والله. تزوجت رجلًا قبل المختار، ابن عمها. لم يكن رجلًا صالحًا؛ يسترق النظر إلى النساء الأخريات دومًا، ولهذا فقد أعادها أبوها إلى البيت. لكن القدر ساقها إلى المختار. ماتت زوجة المختار فأصبح أرملًا مع طفلين. فجاء فورًا طالبًا يد جليلة. كان في الخمسين من عمره وهي في الثامنة عشرة. قالت لوالديها: «بدّي واحد يدير باله عليّ هسّه، ما بدّي شاب يخطبني، بدّي زلمه ختيار». وهكذا تزوجت المختار وأصبحت امرأةً غنيّة. لم تعد فقيرة كوالديها، لا. انشغلت طوال الوقت بضيوف المختار، لكن كان لديها خادمات يساعدنها، ومنزل جميل وأراضٍ كثيرة -خمسمائة دونم. ثم اندلعت الحرب سنة 1948

مكتبة ياسمين

وفقدوا كل شيء. لما ذهبوا للأردن سرق الناس كل ما في بيتهم؛ الأثاث والسجاد والأواني الفضية وكل ما فيه. شايفه صحن الفاكهة النحاسي اللي هناك؟ بسيط بس حلو، مو هيك؟ هذا واحد من الأغراض القليلة اللي لقيوها في بيتهم لما رجعوا. أما باقي الأشياء فاختفت. وكذلك الأرض، استولى «الإسرائيليون» على كل شيء ما عدا بضع دونمات قليلة في القرية. وبات على المختار أن يشتغل كأي عامل، وهذا ما قضى عليه. كان حمّاد يدعو ربه: «يا رب خذني لعندك، ما بدّي أعمّر أكتر من هيك». كان وليد في المدرسة لما صار له ما صار. جاؤوا إليه وأخبروه: «أبوك مات قبل شوي، ضربته صاعقة». الله استجاب لدعوات حمّاد. يا حرام على خالتي المسكينة وولادها! كانوا ست ولاد وجليلة ربّتهم بلا زوج. دبّرت حالها. أولادها رجالٌ صالحون وهم من الرجال المهمين في القرية الآن. ما زال يُنظر إليهم على أنهم أبناء المختار، أفضل مختار عرفته القرية. قبل سنة 1948 وبعدها. يُعرفُ والد وليد بأنه الأفضل من بينهم جميعًا.

٨

شو اللي بعرفه عن حرب 1948؟ سمعت كذا قصة حكاها لي الناس. ليومنا هذا ما زلت أسمع أمورًا أنا نفسي أجهلها. أظن أننا محظوظون جدًّا ببقائنا، أليس كذلك؟ ليس بإمكاني تخيّل ما ستكون عليه حياتنا لو غادر والداي القرية سنة 1948 مع جدي وجدتي، ونشأنا في الأردن. سبحان الله، بقينا فيها! اللي رحلوا عاشوا أيام صعبة. عرفنا لما رجعوا لزيارتنا بعد حرب 1967. ما قدروا يعيشوا في الأردن متل العالم، بالمرّة.

بتذكر كل شي منيح. شوفي، حرب 1967 حصلت لما كنت أكبر شوي، أعتقد ولعت الحرب لما كنت حوالي خمسة عشر سنة. صح، مزبوط، لما كنت بالصف الثامن. بتذكر أكيد. كان لدى والدي مذياع ينصتُ إليه

t.me/yasmeenbook

طوال الوقت. لذا عرفنا أن الحرب في طريقها إلينا. كنا نقطن في بيتنا الجديد -البيت الذي تسكن فيه أمي اليوم. بيتٌ متين البنيان. أراد والدي تحصينه بوضع أكياسٍ من الرمل حول النوافذ والأبواب فساعدناه. أراد أن يصبح البيت محميًّا في حال ألقيت قنبلة. الأطفال الأصغر سنًّا وضعوهم في المخزن لينامو هناك. أذكر أننا بالكاد انتهينا من وضع أكياس الرمل حول النوافذ حتى صاحت امرأة من الجيران: «حربَ! حرب! روحوا على الدير!» هرع العديد من الناس راكضين نحو الدير، اختبؤوا في حرب 1948 وكُتبت لهم النجاة. لم يذهب والداي هذه المرة. اعتقدا أن بيتنا آمنٌ بما يكفي. عمومًا، ما فرقت؛ كل أبو غوش كانت في أمان من الحرب. ما صار شي هون. يا دوب إطلاق نار خفيف حوالينا أول يوم، وأحيانًا كنّا بنقدر نشوف طيّارات بتمرّ من فوق روسنا وحده ورا التانية لو اطلعنا للسما. بس هذا اللي صار. أطلقوا عليها حرب الأيام الستة، مو هيك؟ خلصت في ستة أيام.

بالنسبة لنا -عرب «إسرائيل»- شكّلت لنا الحرب صدمة. كنا نستمع إلى الإذاعة عبر المذياع من الأردن ومصر، واثقين من انتصار الجيوش العربية. هذا اللي حكوه. ظلّوا يعلنون انتصارات العرب، الواحدة تلو الأخرى. كذب، كذب لا أكثر، هذا ما تكشّف لاحقًا. مخيّبٌ للآمال بالتأكيد. لن أكذب عليك وأقول إننا تمنينا أن تحقق «إسرائيل» النصر. أكيد أردنا النصر للعرب. كان ناصر بطلًا في القرية. أحبه الجميع، الكبير والصغير. عندما خسر ناصر والجيوش العربية تملّكنا جميعًا غضبٌ عارم. لم نصدّق أن ذلك يمكن أن يحدث، وفي ستة أيام، من كان ليصدق!

على العموم، هاي كانت حرب 1967. اندلعت وخمدت في أسبوع واحد. الأمر الوحيد الذي نتج عنها -على الأقل- حيث شعرنا في البداية بجدواها -هو أننا استطعنا رؤية عائلاتنا مجدّدًا؛ كل أهالي أبو غوش الذين

مكتبة ياسمين

رحلوا عنها سنة 1948، جدّتي وأخوات أبي وأمي وأعمامي. نصف أبو غوش كانوا في الأردن، وفجأةً عادوا إلى القرية. لم يستطيعوا المجيء للعيش -إلا قلّة منهم مثل جدتي. لم يسمح «الإسرائيليون» لهم بالبقاء. لكن سمح لهم بزيارتنا لفتراتٍ طويلة تمتد لأسابيع وشهور.

حسنًا، في البداية استمتعنا بذلك. خاصة والديّ. بالنسبة لي وجدتُ الأمر غريبًا. أصدقك القول؛ غالبية هؤلاء الأقرباء الذين يعيشون في الأردن بدَوا مختلفين عنّا. ما بعرف كيف أشرحلك ياها. كانوا غُرُب عنّا في كل شي، طريقة كلامهم، واللي بيحكوه. اتوقعت إني راح أحس إني قريبة منهم، دايما بنسمع عنهم. لكنهم بالنسبة لي كانوا متل الغُرُب بالمرّه. لديهم هذا الأسلوب الذي يُشعركَ -وبعرف إن أمي بتحسّ بنفس الإحساس- بأنهم يتوقعون منك منحهم هذا وذاك. بتعرفي، واحد منهم بيحكي: «ما عنّا من هالمنظّف، أو هاي الصابون هناك.» وواحد تاني بيحكي: «عصير البرتقال المركز هذا من وين جبتوه؟» تلميحات، شايفه. ومتوقّع منّا نروح نشتري هالشغلات مشانهم، وبنشتريها طبعًا. اشترينا لهم العديد من الهدايا، لكنهم كانوا دومًا يطالبوننا بالمزيد. ما حبّيت هيك. ما اتعودت على ناس يحكوا بهاي الطريقة. وهدول قرايبي! ما حسسوني إني بدي أتعرف عليهم وأقرّب منهم أكتر. بعتقد إنهم عاشوا حياة صعبة بالأردن، ويمكن بيحسدونا على عيشتنا. اللي بعرفه إنه بمجرد ما تنتهي هاي الزيارات فكلنا بنرتاح. فينا اللي مكفّينا.

بالنسبة لي، لمّا انتهت حرب 1967 وتوقفت كل الزيارات تطلّعت للقيام بشيءٍ ما. لكن، شو ممكن أعمل؟ ما كان بدي أتزوج؛ كنت لساتني صغيرة على الزواج -بالكاد ستة عشرة سنة لا أكثر- اللي بدي ياه هو إني أكمل دراستي. حسنًا، لقد ابتسم لي الحظ؛ فبعدها مباشرة فتحت في القرية

t.me/yasmeenbook

مدرسة تجارية لسنة واحدة للبنات ممن هنّ في مثل عمري تمامًا. تقدّم هذه المدرسة دروسًا في العبرية والعربية والرياضيات ويعلمون الخياطة. تلهّفت شوقًا للالتحاق بها. ذهبت إلى والديّ وأبلغتهما بذلك، لكنهما رفضا. قال أبي: «ليلى راحت على المدرسة لفترة كافية.» أسقط في يدي، ثم توصلت لفكرة الذهاب إلى مرجاليت. إنها ممرضة تعمل في عيادة تقع في القرية -امرأة يهودية تتكلم العربية. يحترمها كل من في القرية وكذلك أمي. ذهبتُ إليها، وخمّنت أنها إلى جانبي. وفي اليوم التالي عرفتُ أنها ذهبت إلى أبي فحصلتُ على موافقته.

التحقتْ أُختكِ معي في نفس السنة. اعتمدتُ عليها لمساعدتي على حل واجب الرياضيات؛ فهي أذكى مني فيها. آه، شو كانت سنة حلوة! انبسطت فيها. بعدها، أردتُ الالتحاق بالمدرسة الثانوية أيضًا، لكن والديّ وقفا ضد ذهابي للقدس الشرقية. خلاص، ما كان بإيدي شي أعمله.

في الحقيقة، اللي صار في السنة اللي درست فيها بالمدرسة التجارية -كنتُ أبلغ السادسة عشرة والنصف -هو إن وليد خطبني. تفاجأتُ من جهة، ومن جهة أخرى لا؛ فوليد ابن خالتي، ولهذا كنت أراه على مرّ السنين. لا، ما قعدنا لوحدنا سوا وتكلمنا أبدًا، لا طبعًا. كان أكبر مني بخمس سنوات، وهذا يعتبر فرق سنوات كبير بينكم لما تكوني لساتك صغيرة. كنا نتبادل الزيارات بين البيتين. وأحيانًا نخرجُ جميعًا معًا، لقطف الزيتون مثلًا معًا. لم نتبادل أنا ووليد حتى كلمة مرحبا إطلاقًا. مع هذا حسّيت بإشي. في المرة اللي رحنا فيها لقطف الزيتون -كنت بلغت الخامسة عشرة أو السادسة عشرة- شعرتُ أنه يلاحقني بنظراته. شعرتُ بذلك عن بعد. لم يقل أحدنا شيئًا للآخر. بعدها، في أحد الأيام جاءت أخته لزيارتي، وأخبرتني قائلة: «ليلى، أخوي بدّو ياك. كلنا في عليتنا بنحبك. وبنتمنى تقبلي.» قلت لها: «ليش اختارني وليد؟ ليش

مكتبة ياسمين

ما اختار أختي الأكبر منّي رنا؟» فأجابت: «لا، وليد بدّو ياكِ إنت، لأنه بيحبك.» ما كنت ضد الفكرة، وقتها ما كانت رنا وزاهرة متزوجات، وهمّي أكبر منّي. لم أرد التسبب في المشكلات، وبطبيعة الحال، سبّب ذلك وقوع مشكلات؛ فقد عارضت أمي زواجي قبلهما، ووقفت ضد الفكرة، وإذا حكّمت رأيها لكانت أبطلت الأمر برمّته. لكن وليد لم يستسلم. وفي نهاية الأمر وافق أبي وأمي. لم يأتِ أحد ليسألني عمّا أرغب فيه، لكنني ما كنتُ ضدّه. ولهذا تمت الموافقة على زواجي من وليد.

جاء لزيارتنا بصحبة عائلته في أحد الأيام وطلبوا يدي رسميًّا؛ حيث كانت الموافقة تمّت مسبقًا فعلًا، لكن العادة جرت بأن تتقدم العائلة بطلب يد العروس رسميًّا. أحضر وليد الـمَسكَه[1] معه، وهي سوار يوضع على المعصم. كنتُ أعلم بحدوث الأمر، لكنني رغمًا عنّي ركضتُ فجأةً إلى غرفةٍ أخرى عندما جاؤوا إلى بيتنا، لأني شعرتُ بالخجل. ما عرفت شو أعمل بحالي. بعدها جاء عمي خليل فأخذني من ذراعي وقادني عائدًا بي إلى غرفة الجلوس. أجلسوني إلى جانب وليد، وطلبوا يدي رسميًّا، وألبسني المسكة حول معصمي. كنتُ أبلغ السادسة عشرة ونصف، سنٌّ صغيرةٌ جدًّا على الزواج طبقًا للقانون؛ فعلى الفتاة أن تبلغ السابعة عشرة. عندما قمنا بإجراءات كتب الكتاب بعدها بعدة أسابيع، أخبرنا الشيخ بأنه سيتحمل شخصيًّا عقد الزواج على مسؤوليته إلى أن أبلغ السن القانونية؛ فهو لم يرد الوقوع في أي مشكلة. هذا ما فعله، وعندما بلغتُ السابعة عشرة أقمنا حفل الزفاف.

---

1. المَسكة، هي هدية تقدّم تعبيرًا عن الاتفاق الرسمي بين أهل العريس والعروس على كتب الكتاب. تعتبر مثل خاتم الزواج، حيث الهدف منها الإعلان للآخرين بأن هذه الفتاة أصبحت «محجوزة».

t.me/yasmeenbook

كانت أمامي عدّة أشهر بين كتب الكتاب والزفاف لأهيء نفسي. ذهبت إلى «تل أبيب» وتبضّعتُ كل ما اشتهيت. البضائع أرخص في الضفة الغربية، لكن الجودة أعلى في «تل أبيب». وقتها جرت العادة أن ترتدي العروس سبعة فساتين مختلفة الألوان؛ الأبيض والأسود والأحمر والوردي والأخضر والأزرق والأصفر. وكانوا يتمّمون الفستان الأسود والأحمر والأبيض كلٌّ بحذائه. أما عادة أيامنا هذه فهي مختلفة، أليس كذلك؟ فالعروس ترتدي ثوبًا واحدًا فحسب؛ الأبيض. ربما تعدّ هذه الطريقة الحديثة أنيقة أكثر. لكن اللي عملته وقتها كان مناسب إلي. في أيامنا هذه ما عادوا يمتطون الخيل أثناء الزفّة أيضًا. يا خسارة! كان تقليد حلو. مع إني ما ركبت على الحصان. خسارة! قد ما بزعل على هيك! إني أقعد على الحصان وأتطلّع على كل الناس من فوق شغله مميزة للعروس. كان نفسي أركبه، لكن أبوي زلمه متدين ومحافظ. ما استجريت أسأله يسمحلي بهيك، وهو أصلًا ما اقترح الفكرة. إلى اليوم، فهذا الشيء الوحيد الذي أتحسر عليه في العرس؛ فكل شيء ما عداه تم على خير ما يرام.

بعد حفلة العرس في بيت أهلي -حفلة للنساء- أحضرني رجال العائلة لبيت أهل وليد، حيث يقام حفل الرجال. اليوم، ما عادت الأعراس تقام بهذه الطريقة، لا حفلين مختلفين، إنما حفلٌ واحدٌ للجميع. لكن حينها، كانوا يفصلونهما. بأي حال، الحفل في بيت وليد كان ضخمًا. معظم أهل القرية تقريبًا جاؤوا لأن موعد العرس كان قبل انعقاد الانتخابات في القرية، وأراد كل الرجال أن يبرزوا فيه. وليد وأخوته مهمّون في القرية، كما كانوا من قبل أيضًا. لذا، كان حفلًا ضخمًا. بتعرفي، موسيقى، ورقص، الرجال دبكوا. كنت هناك مع شوية نسوان من العيلة، قعدنا منفصلين عنهم. وهيك، كمل الحفل وكمل طول المسا. لاحظت كيف وليد مبسوط وفرحان. أنا كمان

مكتبة ياسمين

انبسطت كتير، وأنا بتفرج من ناحيتي. فعلًا، انبسطت. الشغلة الوحيدة اللي بتحسّر عليها هي الحصان. كان خاطري أوصل لبيت وليد على الحصان، أقعد عليه وأتطلّع على الناس من فوق بفستاني الأبيض. غير هيك كل شي كان متل ما بدي. بجد، كان عرس مرتّب.

بعد العرس انتقلنا للسكن في بيت حماتي. لا، ما كان في شهر عسل على أيامنا. مو متل هالأيام. شوفي، ابنتي ليليان ذهبت إلى اليونان مع زوجها. هذا تقليد جديد. شهر العسل لأزواج هديك الأيام ما كان فيه شي. يا دوب كام يوم من الخصوصية في بيت حماتك مو أكتر.

بالنسبة لي، الانتقال لبيت حماتي شغله متوقعة. أنا بعرفها طبعا، ما هي خالتي. مع هيك، الحماه بتضلّ حماه حتى لو كانت خالتك. هذا اللي اكتشفته. خالتي تختلف عن أمي اختلاف السماء عن الأرض؛ أجرأ منها وبتحب تلف وتحوص وتلوص. بعد وفاة زوجها بدأت تدخّن. كم امرأة في أبو غوش تدخن؟ ولما كنا صغار تعودت تسمع التمثيليات العاطفية على الراديو. كانت أمي تحكيلنا إنها عيب، وراح تأثر علينا وتخلينا نسمعها كمان. طبعًا، كنا نسمعها في السر. آه، أيوا. جليلة طراز مختلف؛ أكثر انفتاحًا إن جاز لنا القول. لكن، شوفي، بمجرد ما انتقالي لهذا البيت مع وليد رأيت جانبًا آخر منها. بدأت خالتي تتحكم بنا، أصبحت مثل الزعيم، ولم أتوقع ذلك منها. فهي تتدخل في كل ما نفعله أنا ووليد. أين ولماذا نذهب لهنا أو هناك ومتى سنعود، عندها دائما ما تدلي به في هذا الخصوص. والمال! وليد لا يجني كثيرًا من المال هذه الأيام، ولهذا تنتقدنا دائما حول ما نفعله بمالنا. تريد أن تكون الآمر الناهي في البيت، ببساطة. الموضوع بيضايق فعلا في الأول، لكن ما تخانقت معها. قررت إن أحسن شي بسويّه هو إني أترك هالمواضيع لوليد،

t.me/yasmeenbook

هو يدبّر حاله معها. لكن بالأول الموضوع كان صعب عليّ. أقسم بالله، مع ليليان وكل ولادي، مستحيل أعمل هيك. بضل بعيده عن هالمواضيع، مو متل ما عملت حماتي.

مر على زواجنا ستة أشهر عندما حملت للمرة الأولى. كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما رزقتُ بليليان، إنها ابنتي البكر. كيف شعرت لأن مولودي الأول أنثى؟ شوفي، كل حدا بحكيلك إنها ما بتفرق معه بيكذب عليك. السِّت دايما بتتمنى يكون مولودها الأول ذكر، وحتى الثاني. المرأة تحصل على مصداقية أكبر إذا أنجبت الأولاد. هذا هو الحال في مجتمعنا العربي. الآن وقد أصبحت ليليان يافعة، فإني مسرورة بإنجابي لبنت؛ فالبنات يبقين إلى جوارك، بينما يبتعد الأولاد عنك. لكن المرء يتأثر بمن حوله، ولهذا فمن الطبيعي أنني شعرت بخيبة أمل عند ولادة ليليان، فقد رغبتُ في ولد.

أطلقنا عليها اسم ليليان عوضًا عن اسمٍ عربي بسبب أخ وليد -قاسم. فحينما ولدت ليليان قطع قاسم علاقته بفتاةٍ تدعى ليليان. أحبّ تلك الفتاة كثيرًا، لكنها كانت يهودية. في الواقع والدها عربي وأمها يهودية. وقفت حماتي ضد هذه العلاقة، وعندما قال قاسم إنه سيتزوج منها غلى الدم في عروقها، ونشبت معركة حامية الوطيس بينهما كان لحماتي الغلبة في نهايتها. وانفطر قلب قاسم. ولهذا رغب وليد في تسكين جراح قلب أخيه بعمل شيءٍ يحفظ ذلك الاسم في العائلة على الأقل. فكان أن أطلق على ابنتنا البكر اسم ليليان رغم أنه ليس اسمًا عربيًّا. فعلناها إكرامًا لقاسم.

حملتُ بعد ولادة ليليان مباشرة. ورزقتُ بابنةٍ أخرى مجدّدًا. لكن هذه الطفلة المسكينة ماتت. أصيبت بنوعٍ من الحمى الدماغية، وماتت في شهرها الأول. نصيبها، شو نعمل؟ مباشرةً بعدها حملتُ مرّةً أخرى، وهذه المرة رزقت بابن -سامر- إنه ابني البكر، وكُنيتي هي أم سامر. اخترتُ أنا الاسم.

مكتبة ياسمين

اخترت معظم الأسماء بعد ابنتنا الأولى. إذا سمعتُ اسمًا في الدراما التلفزيونية وأحببته، فإني ألتقطه فورًا. وليد لم يمانع على الإطلاق. إنه سهل المعشر. ولهذا اخترتُ أسماء الأولاد، حيث رزقتُ بأولادٍ فقط بعد ابنتي الثانية. ستّة أولاد واحدًا تلو الآخر، وجميعهم ولدوا في المستشفى. عادةً مستشفى هداسا في القدس. مكان منيح، ومستشفى مرتّب كتير. بمرور الوقت صرتُ في الثلاثين من عمري عندما أنجبتهم جميعًا. ليليان هي ابنتي الوحيدة، وبما أنها تزوجت، فلم يعد في البيت غير الأولاد. ستة أولاد ووليد وأنا.

أنجبتُ أول خمسة أطفال عندما كنا نعيش في بيت حماتي. أما آخر اثنين فأنجبتهم بعد انتقالنا إلى هنا، حيث نعيش اليوم. قدمت حماتي مساعدةً عظيمة لي في الاعتناء بالأطفال. لم أكن أعرف الكثير حيال الاعتناء بالرضع. حكتلي شو أعمل، وعملته. أول أربعة من أولادي كانت تدلكهم بزيت الزيتون وتلفّهم من راسهم لرجليهم بشريطة قماش. هيك الطريقة التقليدية. لم أكن واثقة فيما يتعلق بهذه الطريقة، لكن حماتي كلمتني عنها. قالت إنها مفيدة لعظام الطفل وبشرته، فوافقتها. أما مع آخر ثلاثة فما عملت هيك. مع إنها حكتلي لازم. دِرت بالي عليهم على طريقتي، بالحفاظات بس، مش أكتر. لم تتوافر حينها الحفاظات ذات الاستخدام الواحد، كالتي يستعملها اليهود. ما كنّا بنقدر نوفّرها. لهيك كان في شغل كتير تعمليه. بتضلّك مشغولة كل دقيقة من عمرك طول هاديك السنين. ما كانت الشّغله سهلة بالمرّة.

لكن، تبارك الله، كلهم كبروا بصحة وعافية، ليومنا هذا. كلهم ولاد مرضِيّين، كل واحد منهم. أما وليد فيمضي قدمًا في أعمال المقاولات، ولهذا فإننا نضيف للبيت. إننا نسكن فيه منذ اثنتي عشرة سنة أو ما شابه، والبيت فعلًا صغير علينا بعض الشيء. سيحصل الآن كل ولد على غرفته، أحسن، ما هيك؟ غير عن أيام طفولتي أنا، أكيد.

t.me/yasmeenbook

بجدّ، همّي ولاد مرضِيّين، بيستاهلوا أحسن شي. مو مدلّعين. مع إنهم أولاد، لكنهم بيساعدوني أحيانًا في البيت. إذا إجانا ضيف -متل ما إنتي جايه مثلًا -فواحد منهم بيحضر القهوة أحيانًا. همّي مناح من هالناحية. الشغلة الوحيدة اللي بتمناها لواحد أو اثنين منهم -أو كلّهم حتّى -هو إنّو يدخلوا الجامعة. أنا ووليد نشجعهم على ذلك، لكن للآن لم يلتحق أيّ منهم بها. وكذلك الأمر مع ليليان، أردنا لها أن تكمل تعليمها في الجامعة، لكنها لم تحصل على معدلٍ عالٍ في امتحان القبول. لم تستطع اجتياز القسم المرتبط باللغة الإنجليزية، ولهذا لم تدخل الجامعة. انتهت عاملةً في مصنعٍ للملابس في القدس؛ فقاسم هو المشرف هناك. بعض أخواتي الأصغر سنًّا يعملن هناك أيضًا. ليليان تكره شغلها، وأنا لا ألومها. تزوّجت منذ سنةٍ مضت أو ما شابه، وعندها طفلان الآن. تزوجت من ابن خالها حمزة.

❦

شو رأيي في زواج ولاد العم؟ شوفي، إذا بتسأليني أنا فراح أحكيلك الصدق. مو منيح. بقصد، أمي تزوجت هيك، وأنا، وكمان ليليان، لكن الأفضل ما تتزوجي من ولاد عمومتك. بقصد، عادةً هذا اللي بيحكوه الدكاترة، وهمّي صح. إذا تزوجتِ أحدًا من عائلتك فسيعود ذلك بمشكلات صحيّة على أبنائك، أو على شخصياتهم، أو ذكائهم. من المستحسن الزواج ممن هم خارج نطاق القرابة، مع إن الأمور ماشيه على هالحال لحد وقت قريب. فالآباء يزوجون بناتهم لأبناء العم أولًا. تبدّلت الأحوال هذه الأيام. من وجهة نظري، من الأفضل الزواج من خارج نطاق العائلة. لكن يجب أن يكون شخصًا من القرية. بهالطريقة بتعرفيه أحسن. لكن شوفي، ما عاد للآباء سيطرة على الموضوع كثير هالأيام؛ لأن ولادهم صاروا أحرار أكتر من قبل ليختاروا اللي بدهم ياه. حتى البنات صاروا أكتر حريّة من قبل.

مكتبة ياسمين

إذا لم توافق البنت على العريس فإنها تخبر والديها برفضها له، وينتهي الأمر. رفضت ليليان أول من تقدم لخطبتها، وإذا لم تكن راغبةً في الثاني -حتى لو كان ابن أخي- فسترفض أيضًا. البنت تتمتّع بقدر أكبر من الحرية الآن، وهذا أفضل بلا شك.

وهذه الأيام يعرف الأطفال أكثر بكثير. ما بيجهلوا عن الدنيا متل ما كنت أنا لما تزوجت. إنهم يتعلمون في المدرسة. في أيامنا هذه يدرّسونهم عى الحمل وأمور من هذا القبيل. كل أبنائي يعرفون عن هذا الموضوع، وليليان كانت تعرف قبل زواجها أيضًا. لا، ما حكيت معها، ما خبرتها أي شي. تعلمت من المدرسة، وتعلمت في مصنع الملابس حيث تعمل؛ فالنسوة دومًا يثرثرن، وبالتالي سمعت عن الجنس وكل هذه الأمور منهن. ما ناقشتها إطلاقًا، لكن بقدر أحكيلك إنها كانت بتعرف عن هالشغلات قبل ما تتزوج. أنا قريبة منها، كنت قريبة منها قبل زواجها وما زلت، ولهيك بقدر أحكيلك إنها مش جاهلة، مو متل ما كنت أنا. جيل اليوم مختلف، أوعى بكتير.

ليليان علمتني أمورًا أصلًا، فهي تعرفُ ما لا أعرف، وتدعمني. شوفي، هي بنتي الوحيدة، وفي أمور بتفهمها لأنها امرأة. كما حدث مؤخرًا، فقد كانت من دعمتني في أمرٍ ما، في المشكلة التالية: حدث لك منذ بضعة أشهر مضت. شوفي، حملتْ من جديد. استعملت الموانع لفترة لأمنع الحمل. وبعدها حكالي الدكتور لازم آخذ استراحة كذا شهر. فأخذت استراحة، وكانت النتيجة إني حملت مرة ثانية. زعلت كثير، ما بدي أجيب كمان. الخِلفه في الأربعين مو منيحه. شو؟ بدّك ياني أروح مع بنتي وصاحباتها على عيادة الأطفال؟ لا، لا، ما بناسبني هالوضع. أخبرتُ ابنتي وبعض أخواتي بذلك، واكتشفت أمي الأمر. علم الجميع بمن فيهم أولادي. طلبوا منّي تقبّل الأمر. قال أولادي: «أيوا، أيوا، جيبي كمان ولد.» وقالت أختي مثلما قالوا، وأمي قالت: «ليلى، تنزّلي الجنين حرام، الشّرع ما بيقبله.» الوحيدة التي

t.me/yasmeenbook

ساندتني كانت ليليان، إذ أخبرتني بضرورة رؤية طبيبها، والفحص بجهاز السونار -ذلك الذي يبدو كالتلفزيون. قال الطبيب إني قد لا أكون حاملًا فعلًا، ففي سنّي يمكن للحمل أن يكون «حملًا كاذبًا». ما كنت بعرف عن هالشغلات، لكن بعرف إني حامل. متأكدة من هيك. قالت ليليان: «طّيب، إذا كنتِ حامل، فبتقدري تنزّلي الحمل في المستشفى، عندك اللي بيكفيك من الولاد، اعملي اللي بدّك ياه!» كانت أكثر حدن تعاطف معي.

قررتُ عدم الإجهاض، لكني قمتُ بأمرٍ آخر عوضًا عن ذلك. صرت أقوم بأعمالٍ مضاعفة الجهد في البيت، فأركض صعودًا ونزولًا عن الدرج، أنطّ وأنطّ وأنطّ طول الوقت. وأضغط على بطني بإيدي بقوة. وليد عارف شو بعمل، لكنه حكى لي: «ليلى، راح تِئذي حالك.» وهيك، اللي صار هو إن الجنين نزل من حاله. أجهضت، ثم لففته بقطعة قماش، ودفنته في ساحتنا، تحت شجرة. بعدها ذهبت للمستشفى لتنظيف الرحم، وهذا اللي صار. ما حكى حدا شي عن الموضوع، لا ولادي ولا وليد. أمي فكّرت إني نزّلته لأني زعلانه من شغله، هيك بتشوف. ماشي، أنا كنت زعلانه، الحق ينقال. لكن الموضوع انتهى، خلاص. ما راح تتكرر هالشغلة. رحت للدكتور وأخذت مانع حمل بستعمله، مانع فعّال. لا أرغب في حصول حوادث مشابهة، لا، لا، لن أحمل مجدّدًا.

٨

لا تسيئي فهمي، أحب الأطفال. لا أريد فحسب إنجاب المزيد. لكن ما عندي مشكلة أدير بالي على ولاد غيري، وأشتغلها شغلانه يعني، بحب هيك. إنتي بتعرفي إنها شغلانتي، صحيح؟ أعمل هذا منذ خمس أو ست سنوات. كل الأطفال الذين أعتني بهم من أبو غوش. ثلاثة منهم أطفال أخي خليل؛ فأمهم مريضة، ولا تستطيع البقاء معهم حاليًّا. بصراحة، لا

مكتبة ياسمين

أحب هذا الموضوع، إنه يشكل نوعًا من الضغط عليّ، وأتمنى لو بإمكانها الاعتناء بهم بنفسها. لكن، شو أعمل؟ ما أحبه حقًّا هو الاعتناء بأطفال ليسوا من لاعائلة، أطفال أمهات يعملن وفي حاجة لمن تعتني بأطفالهن أثناء اليوم. هذا هو العمل الذي أحبه. وهو مدرٌّ للمال أيضًا.

الطريقة التي بدأت بها هذا العمل لم تكن مألوفة. بدأت العمل مع أطفال يهود. مو بالعادة، صح؟ راح أحكيلك؛ ما كنت بدّي هالشغلة، حصلت مصادفة. اللي صار هو إن وليد كان بيشتغل في مشروع مستوطنة يهودية -ناتاف -فوليد يتعامل مع الجميع سواء كانوا يهودًا أم عربًا، لا فرق. على العموم، جاءت امرأة من تلك العائلة التي ينفّذ لها وليد أعمال البناء، اسمها هيا، وقالت له: «ليس لدينا مربية أطفال في المستوطنة أستلطفها، ألا تعرف أي مربية جيّدة في أبو غوش؟» فأجابها وليد بأنه سيبحث في الأمر ويخبرها لاحقًا. وهكذا جاء إليّ في ذلك المساء وأخبرني. الحق يقال، حكى لجيراننا اللي كانوا قاعدين معنا وقتها، ومباشرةً حكوله إنهم مهتمين بالشغلانه. وبعدما راحوا عصّبت عليه وحكيتله: «ليش ما سألتني؟» شوفي، الفكرة اختمرت براسي باعتبارها شغله خاطري أعملها. كل أولادي في المدرسة في تلك الفترة ولديّ متّسع من الوقت. أردت فعلًا عمل هذا. قال وليد حينها بما أنه يعمل مقاولًا هناك فسيشعر بالحرج لاقتراح زوجته عليهم. لكنني لم أعطه مجالًا، ضغطت عليه وفي النهاية وافق. وهكذا بدأت، بدأت هيا بإحضار ابنتها -مريام- إليّ.

هيا امرأةٌ غير عادية، واحدة من جماعة السّلام الآن[1]. تدرسُ في الجامعة

---

1. السّلام الآن: منظمة «إسرائيلية» غير حكومية أنشئت في مارس 1978م تعتمد على الاحتجاجات الشعبية، هدفها إقناع الشعب الإسرائيلي وحكومته بأن احتلال الأراضي الفلسطينية غير مقبول إطلاقًا، وتدعو لحل الدولتين. (المترجمة).

t.me/yasmeenbook

العبرية، واعتادت أن تحضر مريام إليّ ثلاث مرات في الأسبوع. اعتنيت بها قرابة سنة. آه، يا لها من طفلة جميلة مريام! مثل القمر. كانت تبلغ حوالي سنة ونصف من عمرها حينذاك. أحممها وأطعمها وأعتني بها. أطعمها من طعامنا -طعام عربي -فتأكل كل شيء. أضعُ لها الطعام في طبقٍ صغيرٍ من أطباق الأطفال لدينا، وتحبه. أبنائي كانوا يلعبون معها أحيانًا. تحدثنا معها بالعربية، وقد رغبت هيا في ذلك؛ أرادت لابنتها أن تتعلم العربية. وقد تعلمت. أصبحتُ وهيا صديقتين أيضًا، فهي تأتي إلى هنا أحيانًا فتجلس وندردش وتأكل معنا. وأحيانًا بحنّيلها شعرها. بجدّ حبيتها.

أثناء تلك السنة أخبرت هيا صديقاتها في ناتاف عنّي. عملت لي حملة دعائية حقيقية. اللي صار بعديها إنه الناس صارت تيجي، واحد، اثنين... وصلت الشغلة إنو صار عندي سبع أو ثمان ولاد من ناتاف. كلهم صغار طيبين. بجدّ. كثروا مع الوقت لدرجة إني نسيت أساميهم. بعضهم كان يأتي لبضع ساعات فقط أثناء الأسبوع، وآخرون طوال اليوم. أحاسبهم على الساعة؛ 4 شيكل على الساعة، أو بالشهر؛ 550 شيكل في الشهر. شغلانه بتجيب مصاري فعلًا، ما بدها كلام. وليد ما مانع أبدًا! مع إنه ما طلب منّي ولا أغورة وحده. بيحكيلي: «هاي إلك، اعملي اللي بدك ياه فيها.» هو شخص منيح في هالأمور. وفوق هذا بيحب وجود الأطفال حواليه. هيك طَبعه.

رغم ذلك فقد استبد به الغضب في إحدى المرات، وذلك عندما ارتكبتُ خطأً فادحًا. شغلة من الشغلات اللي بتصير كتير، لكن بظن لأن البنت الصغيرة من ناتاف، ولهيك انزعج كتير. أنا كمان انزعجت. ما حدث هو أن إحدى الأطفال -واسمها سمادار- أصيبت بحرق في وجهها. كنتُ أخبز شيئًا في الفرن، وجاءت سمادار راكضةً إليّ وأنا بالكاد أفتحه، فلمس باب الفرن وجهها، وأصيبت بعلامة حرق كبيرة. تملّكني الفزع، وهرعت

مكتبة ياسمين

بسمادار للعيادة هنا، لكنها كانت مقفلة بسبب الإضراب، فأخذتها إلى عيادة طبيب خاص لكنه لم يكن فيها، صرت أرتجفُ من خوفي. وبمجرد أن عاد وليد صاح في وجهي: «ليش ما دِرتي بالك عليهم أكتر؟ كيف سمحتي يصير هيك؟» لمّا اتصلت أم الطفلة لتخبرني بأن أرسل ابنتها إلى البيت في ذلك اليوم مع إحدى جاراتها من ناتاف أخبرتها: «أنا جايه لهناك، وبجيبها معي.» كنت بدي أحكي معها شخصيًّا، وراح معي ابني الكبير. في الطريق انتابتني تلك الفكرة: سيقولون إني فعلتُ ذلك لأن الطفلة يهودية، وأنا عربية. لكن لما ذهبت إليها كانت ردة فعل الأم مختلفة تمامًا. تفهّمت الأمر، وبدا أنها رأت حرق الطفلة غير سيء، وقالت لي: «استرخي، هذه الأمور تحدث، وقد تحدث معي أيضًا.» كانت لطيفة جدًّا، لكني شعرتُ بالأسى.

في أيامنا هذه لم أعد أرعى أطفالًا من ناتاف. أعتقد أن لديهم بعض مربيات الأطفال اللواتي يستطيعون إرسال أطفالهم إليهن. ما زلت على اتصالٍ ببعض الأمهات وأطفالهن؛ فهنّ يأتين إلى الجوار من حين لآخر لإلقاء التحية. جاءت هيا إلى هنا منذ بضعة أشهر مضت مع مريام. لم أرها منذ سنوات، فأخبرتها هيا قائلة: «هذه ليلى، التي ربّتكِ». بدت مريام خجولة قليلًا في البداية، لكنها تجاوزت ذلك بعد فترة. حلو أشوفها مرّة ثانية. لسّاتها بنت حلوة متل القمر.

ما عاد عندي أطفالٌ من اليهود لأعتني بهم، بل أطفال عرب فحسب من القرية. شغله مو حلوة بالمرة. بدي أدير بالي على ولاد اليهود والعرب سوا، هيك أحسن. يمكن يحصل. متل ما حكيت، ما زال عندي علاقات منيحه مع بعض الناس من ناتاف. مع هيك، متل ما إنتي عارفه، من فترة حكى لي واحد من ولادي شغله خلتني أنصدم. يمكن كان محبط من شي صار معاه بهداك اليوم، ما بعرف. قال: «هالصغار اللي بتديري بالك عليهم -ولاد

t.me/yasmeenbook

اليهود -راح يصيروا في يوم من الأيام جنود». حكيتله: «طيب، والمعنى؟» لم أكن واثقةً مما يريد الوصول إليه، فتابع: «في يوم من الأيام، راح تمرّي من المعبر للتفتيش، ويوقفك واحد منهم ويسألك: «أعطيني بطاقة هويتك!» فأجبته: «اسمع، راح يكبروا مع الوقت، وراح يعم السلام هون. وكمان راح يعرفوني، وما حيصير شي متل هيك.» هذا ما قلته له، لكني أعترف بأني إذا ما فكّرت فيما قاله أصابُ بالإحباط. أقصد، إذا صار لي شي متل هيك فمشاعري حتنجرح على الأكيد. أيوا، أكيد. لم يغير هذا التفكير وجهة نظري ناحية الاعتناء بأطفال يهوديين، فأنا أحبهم، وبعض آبائهم رائعون فعلًا. ليس باستطاعتي تغيير السياسة هنا، أليس كذلك؟ رغم هذا فإنني أدرك أحيانًا كم هو مؤسف ما يحصل، من المؤسف أن نربي الأطفال -أطفالهم وأطفالنا- في وضعٍ مُزرٍ كهذا.

بالنسبة لي فالسياسة شأنٌ لا أفكّر فيه كثيرًا. حتى رغم كونها تؤثر فينا جميعًا، ما بتهمني. أيوا بروح بنتخب. دعمت حزب ميرتس[1] في الانتخابات الأخيرة أنا ووليد. بظن إنهم الأفضل؛ لأنهم اللي بيساعدوا العرب واليهود يكونوا سوا، ويعم السلام، وبعتقد إنهم عملوا إشي منيح لحد اليوم.

يبدو لي إن إن السلام راح يحل. إن صار، فالوضع راح يكون أفضل للعرب في «إسرائيل». نحنا -العرب «الإسرائيليين»- تعودنا نتعامل مع اليهود أفضل قبل سنة 1967. من وقتها -خاصة لما بلشت الانتفاضة- الأمور صارت سيئة بيننا وبين اليهود. كانت لنا علاقات معهم، فنزور

1. في انتخابات عام 1992 لاختيار 120 عضو للكنيست، فاز حزب ميرتس بـ12 مقعدًا (إحداها لنائب عربي). وهو الشريك الائتلافي الرئيس مع حزب العمل، لكنه يختلف عن حزب العمل في دعمه إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة.

مكتبة ياسمين

بعضنا بعضًا في الإجازات، والآن نادرًا ما يحصل هذا. اعتدنا الذهاب أينما نشاء دون أن يوقفنا أحد ليسألنا عن بطاقة هويتنا. همّه صاروا يوقّفونا، ويشكّوا فينا. هادا مو منيح لا لإلنا ولا لإلهم.

ما بحكي إني ضد الانتفاضة. الانتفاضة عادت لنا ببعض النتائج. أصبحت توشك على التحوّل إلى معاهدة. أعادوا فعلًا غزّة وأريحا، وقريبًا سيعيدون المزيد، على الأقل هذا ما يقولونه. شوفي، أنا مش سياسيّة، وما بعرف كيف لازم يقسّموا الأرض هون. لكن لازم يقسّموها بعدل. اليهود بيدّعوا إن الأرض لإلهم ولجدودهم. والعرب بحكوا إنها كلها إلهم ولجدودهم. لهيك لازم يصير فيه تقسيم وتسوية. فلتقم دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، ودولة يهودية هنا. عدل، مو هيك؟ وإحنا في أبو غوش نبقى في الدولة اليهودية. شو؟ لازم نغادر منها؟ لا، هاي قريتنا، وطننا. عايشين عيشة طيبة فيها، وراح نبقى فيها.

لكن، خلينا نخلص من هالموضوع، ونعمل صُلحه ونوقف القتل. الأم لو كانت يهودية أو فلسطينية فبتنفجع بنفس الطريقة، لهيك خلاص. خلي السلام يعم البلاد. هذا اللي بدّي ياه، ويبدو لهيك ماشيه الأمور، وهذا اللي راح يصير. إن شاء الله راح يصير. هيك بظنّ.

t.me/yasmeenbook

أم خالد

بينما نزح معظم سكان أبو غوش عن القرية سنة 1948 لينتهوا لاجئين في الأردن، فإن عائلة أم خالد بقيت في مكانها -في بيتهم المكون من أربعة غرف ويقع في قلب القرية إلى جوار الدير. كل القرى العربية الأخرى الواقعة في نطاق القدس تعرضت للتدمير. وأبو غوش الآن محاطة بمستوطنات يهودية. تابعت أم خالد وزوجها تنشئة أطفالهما في هذا الإطار -قدر ما أمكنهما- محاولين التماشي مع الوضع الجديد باعتبارهم عربًا يقيمون في دولة «إسرائيل».

في هذا القسم، تتحدث أم خالد عن حياتها في أبو غوش -من فترة ما بعد حرب 1948 إلى وقتنا الحاضر. أثناء تلك الفترة زاد عدد أفراد أسرتها من ستة إلى خمسة عشر (توفّي ابنها البكر)، معظمهم تزوّج وربّى أطفاله بنفسه في أبو غوش. يبدو جليًّا احترام أم خالد لعائلتها، مستذكرةً بعض النزاعات السياسية وغير السياسية التي جابهوها طوال السنوات الأربع والخمسين الماضية.

٨

عدنا إلى بيتنا بعدما انتهت حرب 1948 وتابع زوجي العمل في حقول الدير. لم نكن في حاجةٍ إلى طعام؛ فزوجي يعمل في هذه المهنة، ولدينا

مكتبة ياسمين

الملفوف والقرنبيط والخس والخوخ والمشمش والعنب. رمقنا الآخرون في القرية بنظرات الحسد؛ فليس لديهم وفرة الطعام ذاتها، وعليهم البحث عن عملٍ مع اليهود. كانت أيام صعبة، صدقيني.

بالنسبة لنا ما كانت الصعوبة في إحساسنا بالجوع؛ فعندنا ما يكفي من الطعام. لكننا عانينا من فقدان عائلاتنا وأقاربنا؛ أغلبهم نزحوا وما عرفوا يرجعوا متسللين من هالطريق أو غيره. حسّينا متل اللي انقطع من جسمه عضو وانرمى بعيد عنه. هلكيت أو من قبل، اللي بدّو يرجع لازم يحضّر الورق المطلوب. مثلما فعلت شقيقتيّ وعائلتيهما. رغم ذلك فلم يعد والديّ إلا قبل حرب 1967 بقليل. وحماتي رجعت بعد الحرب. كان مرّ وقت كتير ساعتها، أشياء كثيرة حصلت، لكن شوفي، كان لازم نكمّل بلاهم. هذا نصيبنا، إيش بدنا نعمل؟

أنا، خلّفت كمان. هذا نصيبي. حملت بطن ورا الثاني. جبت واحد وعشرين بطن. خلّفت محسن -ابني السادس- بالحرب سنة 1948. وبعده جبت البقية. لم تعد حماتي قريبةً منّي لتساعدني في الاعتناء بالصغار. ساعدتني ابنتيّ الكبيرتين -خولة وزاهرة -إلى أن تزوجتا. ومن ثم ساعدتني بناتي الأصغر منهن. هيك دبّرت حالي. لكني أقسم بالله، تربية الولاد هالأيام أصعب من قبل. بالتأكيد ما كان عندي غسالة فيها أزرار كثيرة، توجّب عليّ الغسيل بيدي في دلو. ولا وجود للمواقد كذلك. طهوت لعدة سنوات على نار الحطب. مع هذا ما زلت أقول إن الأمور أسهل فيما مضى؛ الصغار ما بيغلبوش متل ولاد هالأيام. عندما أطهو وجبة فالأطفال يتناولونها دون تذمّر. هذه الأيام إذا طهت الأم شيئًا يتذمر الأطفال: «لا، بدنا بيتزا، لا، بدنا هوت دوغ.» أيامها ما كان في أي نوع لحم، كنا فقراء لكن بشعور أفضل. وإذا سألتيني، ولادنا تربّوا تربايه أحسن. ما بيغلّبوش في التربايه زَي ولاد اليوم.

t.me/yasmeenbook

بعد إنجابي لطفلي العاشر -ما بعرف إذا سمعت باللي صار- حصلتُ على شهادة تقدير من الحكومة «الإسرائيلية». أرسل لي رئيس ا لحكومة -بن غوريون- شهادة تهنئة لإنجابي عشرة أطفال. كنت أنا وأم عيسى الوحيدتين اللتين حصلتا على مثل هذه الشهادة في أبو غوش، إذ أرفق معها شيك بقيمة مائة دينار، وهو مبلغٌ جيّدٌ في تلك الأيام. لا، ما علّقتش الشهادة على الحيط أبدًا. لسّاتها في الخزانة. لكن إني أستلم ميت دينار حلوين بوقتها. كان مفاجأة حلوة.

مع هيكد أحكيلك الصحيح، إنّو تخلف الوحده ولاد كتير، عشرة أو أكتر الصراحة كتير. تعب على المرأة، أصلا بعد ما تخلّف أربعة الشغلة بتتعّب. اطّلعي عليّ هلكيت، بحس بالتعب لما بدي حتى أقوم من مكاني تا أحضّر شغله إلي لحالي. الخِلفه الكثيرة مش منيحه للسّت. أراد أبو خالد -رحمه الله- عائلةً كبيرة. كان وحيد والديه، ولهذا أراد إنجاب المزيد من الأطفال، ولهذا أنجبنا العديد والعديد منهم. أخبرتني بعض النسوة أنني لن أحمل طالما أرضعُ رضاعةً طبيعية. وقد اعتدت الإرضاع فترة طويلة. ليلًا نهارًا. ربما أرضعت الفتيات سنة، والأولاد سنتين. لكني حملت بعدها، ولهذا لا أؤمن أن الرضاعة الطبيعية توقف الحمل لفترة؛ الشغلة ما مشَتْش معي، وحملت بطن ورا الثاني.

أنجبت معظم أطفالي في البيت -لا في المستشفى- فبعد خولة ابنتي البكر أنجبتهم جميعًا في القرية. كان عندنا داية، وهي امرأة لم ترزق بأي أطفال. لم تكن مُدرّبَة، لكنها تتقن عملها. تقوم بذلك لأنها كريمة وأرادت مساعدة الأخريات. ما كنتش بدفع إلها أبدًا. من بعد ليلى ما رحت للمستشفى، كن من بعد محسن صرت أروح للمستشفى. هالكلام كان حوالي سنة 1960، وصار سهل الواحد يوصل المستشفى بسرعة. لهيك خلّفت آخر خمسة أو ستة في المستشفى في القدس، بهالمستشفى أو غيره.

مكتبة ياسمين

لم أفقد أيًّا منهم أثناء الولادة، وهذا من حسن حظّي. ماتت إحدى بناتي -ميساء، ميساء الأولى- بعد أشهر قليلة من ولادتها. أطلقنا اسمها على أختها التي ولدت بعدها. أردتُ المحافظة على الاسم حتى لو فقدنا الطفلة. ووافق زوجي على ذلك. عادةً ما نقرّر الاسم معًا، وأحيانًا تكون فكرته أو فكرتي. وفي أغلب الأحيان نسمّي أبناءنا على اسم أحد أفراد العائلة -والده أو أمه أو أحد أفراد أسرتي. فخالد -ابننا الأكبر سُمّي على اسم والد زوجي. ابني المسكين -رحمه الله- مات عندما كان في الثامنة عشرة من عمره. كان قلبه تعبان، عنده مرض بصمامات القلب. أخذناه لطبيبة ألمانية في مستوطنة يهودية قريبة منّا، وأعطتنا دواء له، لكننا لم نستطع إنقاذه. مات. قرر زوجي تسمية ابننا الذي ولد بعده على اسمه. لكنني كنت حزينة جدًّا مما حدث. ولم أستطع تسمية ابني الجديد على اسم خالد. كنت حزنانه عليه كثير، لهيك سميناه خليل. هذا الاسم اللي سجّله أبو خالد للمولود الجديد.

بالإضافة إلى خالد وميساء -ميساء الأولى- فقدتُ أربعةً آخرين قبل ولادتهم. أجهضت أربع مرات، وهنّ جميعًا بنات كما أخبرتك. بتذكّرهن؟ آه، أيوا، كل وحده منهن بتذكّرها. كلهن نزّلتهن بين الشهر الثالث والخامس. ودايمًا بتصير شغله قبل ما أنزّل. مرّه كنت بخبز المطبّق، رايحه للفرن والعجين على راسي متل الفلّاحة، ما كنتش متعوده على هذا الشغل لهيك تعبت، وظهري تعب، وبدأت أنزف، وصار اللي صار.. طَرَحِت. في المرة الثانية طرحتُ بعد فترةٍ قصيرةٍ من تعرّض أمي لحادث. كنّا في الفناء، وأنا أغسل، فرأيتها تسقط فجأة ويرتطم رأسها بالأرض. صدمتني رؤيتها ممددةً في بركةٍ من الدماء، وبعدها أجهضتُ حالًا. المرة الثالثة حدثت بعد وفاة أبي مباشرة. امتنعت عن تناول الطعام ليومين متتاليين، وأخذت حبّتي أسبرين، ومع كل الجوع والحزن اللذين كنتُ فيهما، أجهضت. وقع الإجهاض الرابع بعد خطبة ابنتي خولة، لم أوافق على ذلك العريس. لم يشاورني زوجي في الأمر

t.me/yasmeenbook

ونحاني جانبًا. فتسبّبت موجة الغضب العارمة التي شعرت بها في إجهاضي، أنا متأكدة.

وهذا اللي حصل، أربع طَرحات. وبالإضافة لخالد وميساء بصير راح منّي ست ولاد، وباقي خمسة عشر. سبحان الله. كلهم كبار هلكيت، ولكل واحد منهم ولاد. ما بعرف كم عدد أحفادي، يمكن ميّه أو أكتر، ويمكن ثلاثين من ولاد أحفادي. الله بارك في قِسمِتنا. أبو خالد كان وحيد عيلته، وشوفي هلكيت! سبحان الله.

اعتُقِل زوجي -حسن- بعد ولادة ليلى بفترة وجيزة. كان هذا سنة 1955. قُبض عليه بسبب أمرٍ لم تكن له يدٌ فيه. لكنهم أخذوه كيفما اتفق. ما حدث كان التالي: زرع أحدهم قنبلة في مدرسة يهودية قريبة منّا. لا بدّ أن من فعلها واحدٌ من القرية التي تتعاون مع الشرطة اليهودية. كانوا راغبين في التخلص من بعض رجالات القرية المهمّين. زوجي لم يكن رجل سياسة، لكنه ينحدر من عشيرة مهمة وله سمعة طيبة. بمجرد انفجار القنبلة هرع رجال الشرطة إلى القرية، وطوّقوا بيتنا واقتحموه وشرعوا بالبحث عن دليل هنا وهناك. أخذوا أشياء تافهة واختلقوا منها اتهامات. لكن إيش بيقدروا يثبتوا عليه؟ زوجي متدين، بيصلي ويصوم. ما كان في شغله بالعالم كله بتخليه يعمل هيك. طيّب، حاكموا زوجي وثلاثة ثانيين من رجال السياسة المهمين بالقرية. ما ثبتت إدانتهم بالأدلة القاطعة، فما خلّوهم في السجن، لكن غرّبوهم عن القرية ست شهور[1]. أرسلوهم كلهم تا يعيشوا في قرية

1. التغريب -مؤقتٌ أو دائمٌ -هو عقابٌ ينزل على العرب الذين يرتكبون جرائم سياسية، أو يمثّلون إشكالية سياسية للحكومة «الإسرائيلية».

مكتبة ياسمين

عربية غير، كل واحد لقرية شكل. أُرسِل زوجي شمالًا إلى البقاع الغربي.

بقي هناك لأربعة أشهر لا ستّة. لكنها كانت بالنسبة لي كأربع سنوات. توجّهتُ مباشرةً بعد حدوث ذلك لزوجة رئيس «إسرائيل» لأطلب منها فعل شيء. نصحني زوج خولة بذلك. ذهب إلى محامٍ وكتب له المحامي رسالةً أحضرها فورًا إليّ. جلبتُ معي أبنائي أيضًا. لم تكن زوجة الرئيس تتحدث العربية إطلاقًا، ولهذا لم أتمكن من التحدث معها، فأعطيتها الرسالة. قالت إنها لا تستطيع إعادة زوجي، لكنها تحدّثت عما يتعلق بمحاولة مساعدتنا ماديًّا. وهذا ما لم أردهُ فعلًا. وأصلًا مساعدتناش في هالموضوع كمان. سمعت إنها أرسلت واحد يتحرّى عنّا بالقرية. فتوجه للبقال ليرى إن كانت علينا أي ديون. لكننا كنّا قد سددنا الحساب قبلها بيومين فحسب. ولهذا قالوا للمتحرّي: «عيلة أبو خالد ما فِشّ عليها أي دين إلنا.» ما أخذت ولا أغورة وحده من مرت الرئيس، ولا إشي بالمرّه.

رحت شفت زوجي بالبقاع الغربي، زُرته مرّتين. عليك الحصول على تصريح خاص من الشرطة للذهاب إلى هناك. فيما مضى لم يكن يسمح للعرب بالسفر حول «إسرائيل» متى شاؤوا. بحتاج الواحد تصريح[1] خروج من المنطقة اللي ساكنها. رحتُ مرّتين مع أحد رجالات العائلة ومكثت بضعة أيام. زوجي دبّر حاله هناك. اكتشف أهل القرية أنه ليس رجلًا شريرًا أبدًا وأنه طيب، ومتدين. في كل يوم ضيّفوه في بيت واحدٍ منهم باعتباره ضيفًا عليهم. عاش في غرفة في بيت أرملة لها ابن واحد. هذه المرأة المسكينة كانت

1. بعد حرب 1948 وحتى سنة 166 خضعت كل المناطق التي يسكنها الفلسطينيون إلى سلطة حكومة الجيش «الإسرائيلي»، فالسفر بين القطاعات المختلفة داخل «إسرائيل» احتاج إلى تصريح خاص. طُبّقت هذه الإجراءات بصرامة على الأغلبية العربية من السكان في السنوات الأولى بعد الحرب.

t.me/yasmeenbook

قد فقدت ابنتها للتو -قتلت الفتاة في حادثٍ وقع مباشرة قبل يوم زفافها. وساعدها وجود زوجي واعتناؤه بها لتتجاوز المحنة. كانت تطبخ له وتغسل ملابسه وتجلب له الماء ليستحم ويتوضأ للصلاة. عاملته معاملة طيبة. كان بمقدور زوجي المكوث هناك دون عمل -أعتقد أن هذا ما فعله الآخرون الذين طُرِدوا- لكنه اختار العمل. أصلح لهم معصرة زيتون كانوا يملكونها في القرية، وأعادها للعمل. فهو يحسن مثل هذه الأعمال. عبّوا جيوبه مصاري من ورا هالشغله. ما رضيش يوخذ فلوس لكنهم أعطوه بالرضى أو الغصب. حبّوا جوزي كثير. بعدها -بعد عدة أشهر من عودة زوجي إلى أبو غوش -عدنا للبقاع الغربي لنشكر الناس جميعًا، خاصة المرأة المسكينة التي فقدت ابنتها وأحسنت الاعتناء بزوجي. ما زالت تقاسي وضعًا صعبًا؛ فهي بلا زوج. قلب زوجي انفطر لحالها.

❦

رجع زوجي إلى عمله في الدير، ورجع كل إشي متل ما كان، وكملنا حياتنا. العمل في الدير يوفر لنا لقمة العيش، لكننا احتجنا لنقود لشراء أشياء أخرى -كالملابس والأحذية والأدوية وغيرها. ما كان زوجي يجني مالًا كافيًا لكل هذا. وعليه توجّب على ابني الأكبر العمل. أخرج أبو خالد ابننا عيسى من المدرسة بعد الصف السادس ليعمل في مصنع للإسمنت، وكذلك أخرج إبراهيم وحسن أيضًا بعد الصف الثامن، وهكذا استطعنا توفير متطلباتنا. استطاع ابني الأصغر خليل الذهاب للمدرسة، لكنه لم يرغب. ضربته مدرّسةٌ في الصف الأول، ولم يعد لها أبدًا. حاولتُ إجباره على العودة لكنه داوم على الرفض. يعملُ اليوم نادلًا.

بناتي الكبريات لم تخرجن للعمل إطلاقًا، بل بقين في البيت يساعدنني إلى أن تزوّجن. ذهبن للمدرسة بضع سنين، حتى الصف الثالث أو السادس.

مكتبة ياسمين

ابنتي الصغرى هي الوحيدة التي ذهبت للمدرسة الثانوية، وقلّة منهن -ماجدة ونادية وبثينة- عملن في مصنع للملابس في القدس. لم نكن في حاجة إلى نقودهن، لهذا احتفظن بها لأنفسهن لشراء الثياب أو ما شابه. مش غلط. هل كان خاطري يروحن الجامعة؟ لا، ما كانش بدّي. الثانوية كفايه عليهن. ما بدّيش ياهن يتركن القرية للدراسة، يشتغلن بمصنع الملابس مش مشكلة؛ واحد من ولاد أختي جليلة مديره. لكن الذهاب للجامعة يعود بالمتاعب، وربما انتشرت شائعات حولهن. بتعرفي كيف بتمشي الأمور. ترفع البنت إيدها تا تحكّ راسها بشوفها واحد بيفكر إنها بتشاور لزلمه بالشارع. ما كان بدّي يصير هيك لبناتي. لهيكد بحكي أحسن للبنت تتزوج بعد الثانوية. بعرف إنك مش موافقاني على هيك، إنتي درست بالجامعة، وأنا بعرف وبحترم عيلتك. لكن عندنا عشر بنات، وأنا بحكي أحسنلهن يتزوجن من غير ما يروحن على الجامعة. إذا الله رزق البنت زوج منيح وخلفت ولاد -ولاد وبنات- فهذا أحسن نصيب لها. ما بتحتاجش تروح عالجامعة عشان هيكد، صح؟

المشكلة تكمن في أنك لا تجدين دومًا زوجًا مناسبًا. هذا يعتمد على نصيبك. الناس فاكرين إنهم بيقدروا يرتبوها بمعرفتهم. لكن لكل وحده نصيبها. كله بإيد الله، مو بإيدنا. حاولنا اختيار أزواج مناسبين لبناتنا، لكن الله قدّر لهم في الأخير. نصيب بعض بناتي كان طيّبًا، وبعضهن لا. معظمهن يعشن حياةً طيبة، لكني أعترف بأن بعض بناتي لم يعشن حياةً هانئة مع أزواجهن.

تعد ماجدة ابنتي ذات الطالع السيء فعلًا. حدث هذا رغم أننا زوجناها من شخص نعرفه حق المعرفة، ابن عمها. تكشّف لنا أن ابن عمها هذا سكّير ومتسكّع ليلي. فماجدة دومًا وحيدة مع أطفالنا. تبدو بحالة مريعة؛ نحيلةٌ

t.me/yasmeenbook

جدًّا كما لو أنها على شفير الموت. بذّر زوجها مالها. أعطيتها سوارين ذهبيين هدية زفافها، سوارين مميزين أعطاهما لي والدي فيما مضى، وإيش، ما لبستهم ماجدة أبدًا. سألت ليش؟ وعرفت أنا وزوجي بعدين إن زوجها أخذهن منها وباعهن. كنت بفضل إنها ما تتزوج بالمرّه على إنها تتزوج واحد مثله.

أما ليلى، فتزوجت هي كمان من ابن خالتها، لكن نصيبها كان أحسن. أعترف إني كنت ضد هذا الزواج، مو مشان وليد -زوجها- لكن ما كنت بدي ليلى تتزوج وقتها، لأن خواتها الأكبر منها -زاهرة ورنا- ما كانن متزوجات. الدنيا بتمشي هيكد، الكبيرة بتتزوج بالأول. لكنهم جبروني جبر على الجيزة. وليد كان مصرًّا، وجعل أمي تطلبها لها. حتى أختي جليلة عارضت الأمر، لكن أمي حسمت الموقف، وهذا اللي صار. طلع الموضوع من إيدينا، وكتبوا الكتاب قبل ما تبلغ ليلى السن القانونية. ما كانش صحيح هالإشي، لكنهم عملوها. هلكيت، إذا سألتيني رأيي، لازم أعترف إن الحكاية عدّت على خير. نصيب ليلى كان منيح. زوجها وليد منيح، وولادها مرضيين، وما عندها مشاكل. ليلى بتعرف كيف تربي ولادها، وحنونة عليهم. حتى إنها بتربي ولاد الناس، عملَت منها شغلانه. حكيتلها ما تعملش هيك وتدير بالها على وليد وولادها، لكنها عملتها. ويبدو لي مش عاطل هاظا الإشي اللي عملته. تمثّل هي ووليد زوجين سعيدين. أتمنى لو تحظى بناتي جميعًا بزواجٍ طيّبٍ كزواجها.

بالنسبة لأولادي، فلم أتدخل كثيرًا؛ فأبو خالد هو من يهتم بتلك الأمور. معظم ولادي مدبرين حالهم منيح الحمد لله. المرة الوحيدة التي تدخلت فيها كانت مع عيسى. فهو أول من تزوج من أبنائي. كان ذلك بعد فترةٍ قصيرة من حرب 1967. أبلغنا عيسى برغبته في الزواج من خارج القرية، وطلب مني البحث عن عروس له من القدس الشرقية. إن السبب الذي دفعه لذلك مرّده

مكتبة ياسمين

أنه أخٌ في الرضاعة لعديد من فتيات القرية. بتعرفي شو معناته؟ صح؟ شوفي يا ستّي لما كان عيسى صغير، ما قدرت أرضعه. كنت حزنانه كثير وقتها. واحد من خواني -مروان- مات غرقان. كن حزنانه وحليب صدري نشف. لهيك دورت له على وحده ترضعه من القرية. وزوجي غضب عليّ وقتها لأن اللي بيرضع من غير أمه معناته -حسب دينا- بصيروا ولادها كلها أخوانه في الرضاعة. بصيروا متل الأخوة والخوات، وما بتقدري تتزوجي منهم[1]. لهيكد، شايفه، عيسى عنده خَوات كتار في القرية، ولهالسبب صار يدوّر على بنت من برّا القرية. حاولت أساعده. رجعت على القدس الشرقية ودوّرت في عائلات كنت بعرفها وأنا بنت. أرسلوني لبيوت بنات اقترحوهن عليّ، وكنت أروح أشرب قهوتي عندهم وأحكي مع البنت وأفحصها. بالنسبة للبنت اللي بتعجبني كانوا أهلها يرفضوا لسبب ولغير سبب. عيله من العِيَل حكولي صراحة: «ما بدنا بنتنا تتزوج من شاب عايش في «إسرائيل».» صار هالحكي بعد حرب الأيام الستة بوقت قصير، فاهمه عليّ. في النهاية، ما قدرت أعمل لعيسى إشي. صار لازم يتزوج بنت من القرية، بنت مو من عشيرتنا وأصغر منه بكم سنة وما يكون أخوها بالرضاعة. مشي الحال، وعندهم تسع ولاد. نصيبه، شفتي. مع إني حاولت أدور له بمطرح ثاني، لكن ما حصل نصيب. نصيب عيسى هو إنه يتزوج من القرية، وهذا اللي صار.

بدك تعرفي إيش صار بحرب 1967؟ ماشي، راح أحكيلك. يمكن ما بتتذكري إشي. كنتِ صغيرةً جدًّا عندما اندلعت الحرب، صحيح؟ وكمان

1. حسبما ورد في القرآن الكريم من سورة النساء يحرمُ الزواج على الأخوة في الرضاعة الطبيعية. لقوله تعالى: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وخالاتُكُمْ وبناتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وأخواتُكم مّن الرّضاعة» (النساء: الآية 23).

t.me/yasmeenbook

ما حصلش هالشي الكبير في القرية. مش متل ما حصل هناك في القدس أو الضفة الغربية. هناك صارت حرب حقيقية، والناس فيها اتبهدلوا.

أمي -الحمد لله- ما كانت هناك لما قامت الحرب. كانت رجعت مع أبوي لأبو غوش سنة 1965. وتوفي أبي بعدها، بعد سنة. استغرقنا الأمر حتى سنة 1965 لاستخراج أوراقها أخيرًا، وأعدناهما عن طريق الصليب الأحمر. لا، استحالت زيارتها لنا في الفترة من 1948 و1965. كانا في الضفة الغربية، ما بتقدريش تروحيلهم ولا بيقدروا ييجوكِ. وقتها كان يعيش والدي على معاش التقاعد من الإنجليز، ومعه بعض المال الذي يأتيه منهم لأن أخويّ ماتا بينما هما في الشرطة. هذا كل ما يملكونه، فوالدي لم يكن يعمل. أخبرانا عن ذلك لاحقًا عندما عادا. لمّا كانا في الضفة لم نعلم عنهما شيئًا. حاولنا ترتيب أمر رؤيتهما في إحدى المرات -عن بعد- في بيت صفافة، كان ذلك سنة 1963 أو 1964 أثناء عيد الفطر. بتعرفي إيش كانت بيت صفافة وقتها؟ كانت مقسّمة لقسمين: واحد أردني وواحد «إسرائيلي»، وعليها سياج من الجنبين وحدّ فاصل في الوسط. سمعنا إن أهالي أبو غوش راح ييجوا على الجانب الأردني من بيت صفافة في العطلة، فرحت أنا وزوجي لهناك لعل وعسى نشوف حد من قرايبنا. ما إجتش إمّه، لكن أبوي وإمي كانوا هناك مع وحده من خواتي، وأختي الثانية ما إجتش لأنها تزوّجت. ضلينا ننادي على بعض قريب ساعة. صعب نسمع بعض. والمكان مزحوم بالناس اللي بتهتف وبتصيّح والشرطة حوالينا. اتحسرت لأني ما بقدرش أقرّب منهم. إيش الواحد يعمل؟ خلعت سوارين من الذهب كانوا بإيدي، ثقيلين ومضفرين بيسوو كثير، ولفيتهم بمنديل ورميتهم، وصحيّت: «واحد إلك يا إمي، والثاني لحماتي». الحمد لله، السوارين وصلوا من ورا السّور ونزلوا عند رجلين إمي. أخدتهم، وهذا اللي صار. المرة اللي

مكتبة ياسمين

وراها اللي شفناهمش فيها كانت لما رجعوا لأبو غوش مشان يعيشوا فيها. كنت مسرورة لأن أبي عاد إلى أبو غوش قبل وفاته. لقد دفن هنا في المقبرة القديمة. إن لم يعودوا وقتها فما كان باستطاعة أبي -رحمه الله- رؤية القرية مجددًا. فبعد حرب الأيام الستة سيكون الأوان قد فات.

على كل حال، بدك تعرفي كيف كانت حرب الأيام الستة في أبو غوش؟ مش هيك؟ طيّب، طلعَت على فاشوش. قبل ما تقوم كلنا متنا من الخوف، تذكرنا حرب 1948، وخفنا كثير. هالمرة كنا عارفين إيش راح يصير. كل واحد منا معه راديو وشوي منا عندهم تلفزيون. سمعنا كل الأحاديث عن الحرب وعلمنا أن حربًا كبيرةً قادمة. أخذنا كل مالنا واشترينا المؤونة -من طحين وأرز وسكر وفاكهة وعصائر للشرب وشوكولاته وحلوى للأطفال إذا ما شرعوا يبكون- جهّزنا أنفسنا، وحمينا أنفسنا بتغطية النوافذ بأكياس الطحين، ووضع أكياس الإسمنت أمام الأبواب. بل وحتى أخذنا اثنين أو ثلاثة من أبنائنا الصغار ووضعناهم في المخزن في القبو لينناموا على فُرُش. حكينا لحالنا: «إذا متنا من قنبلة فيمكن هالاثنين اللي تحت يعيشوا.» كنا مرعوبين. دفنّا حالنا أحياء في بيوتنا، منتظرين قيام الحرب. وفي صبيحة أحد الأيام قامت الحرب. شرع الناس يتصايحون في الخارج: «حرب، حرب، الحرب قامت.» لكن بمجرد ما قامت خلصت! كانت يا دوب خمسة أيام، مش هيك؟ ما حصل في منطقتنا ضرب نار ولا رموا قنابل ولا إشي بالمرّة. في خمسة أيام هزم اليهود كل الدول العربية، وخِلصت. بعدها اتضح لنا كيف كان أثر الحرب مريعًا على الجانب الآخر، فأبو غوش بقيت هادئة ساكنة. ما انصابش حدا في القرية بخدش.

بمجرد ما خلصت الحرب، فتحت الدنيا علينا. بقدرة قادر صرنا نستطيع الذهاب للجانب العربي، وصار بإمكان أقربائنا المجيء إلينا. كنا

t.me/yasmeenbook

نعيش في بيتنا الجديد وقتها، وهو ذاته الذي نجلس فيه اليوم. إنه أكبر من بيتنا الذي نملكه في وسط القرية. أنهينا بناءه قبل اندلاع الحرب بقليل. مكوّنٌ من طابقين، علوي وسفلي، وأكثر من أربع غرف. عموم السلام بهذا الشكل كان خيرًا علينا. جاء كل أقاربنا من مختلف المناطق، وكل أولئك القاطنين في الضفة الغربية، لكن من هم في الأردن لم يستطيعوا المجيء. ذهبنا بأنفسنا لإحضار حماتي التي كانت مريضةً في نابلس. أعدناها لتعيش معنا، بينما جاء أقاربنا الآخرون لزيارتنا؛ أزواج أخواتي، وأعمامي وعماتي، وأبناء عمومتي. جاؤوا لزيارتنا لأسابيع وشهور. بحلف بالله بعد حرب 1967 ظلّ بيتنا عامرًا بالضيوف على الدوام، ومهما أحضرنا من طعامٍ أو شرابٍ فإنه ينفد سريعًا. أطباق مملوءة بالشوربة والأرز، ونصف خروفٍ في اليوم، وصندوق من السمك في يوم آخر. استمر الأمر على هذا الحال زمنًا. كانوا ضيوفنا وعاملناهم بما يليق. لكن أحكيلك الصّحيح، ما حبيتش الشغله كلها، صرنا نحسّ إن ضيوفنا -قرايبنا- بدهم يعصرونا عصر. حسّينا إنهم بيطّلعوا لنا بشكل مختلف، معتقدين أن كلّ ما لدينا يخصّهم بالضرورة. فهم رحلوا سنة 1948 وخسروا كلّ شيء. ومعرفوش يدبروا حالهم بالمكان اللي راحوا له، مش متل ما دبرنا حالنا. بيوتنا لسّاتها إلنا، وأملاكنا، وأرضنا، شوي من أرضنا. حسدونا. ومهما أكرمناهم وطعميناهم وجبنالهم هدايا، مش راح يرضوا عنا. جدّ، هاظا الصّحيح.

لما توقفت زياراتهم، أخيرًا، ما حسينا إننا بدناش نروح نزورهم فورًا. زرناهم بالأخير، لكن مش متل ما إنتي فاكره. وكمان صرنا نقدر نروح على الضفة الغربية لحالنا، ونخلّص أمورنا. انفتحت أبواب الدنيا، وصار بدنا نشوف شو حصل هناك. بالنسبة لي كنت أتسوق من هناك؛ رخيصة! بحكيلك، الأسعار هناك ولا إشي مقارنة باللي بندفعه هون. متل اليوم. كل

مكتبة ياسمين

إشي في الضفة الغربية أرخص بكثير. رحت مباشرة بعد الحرب واشتريت أشياء كثير؛ أرطال من اللحم وأمتار من القماش وصناديق ملأى بالأحذية لكل الأطفال. كنت أذهب إلى هناك على الأقل مرّة في الشهر باستمرار. بالنسبة لعرس بثينة، اشتريت كل الثياب وحتى فستان العروس الأبيض من هناك. كان ثمنه يبلغ خمسمائة شيكل فقط. إنه يساوي في «تل أبيب» أربعة آلاف. الجودة أعلى في «ـل أبيب» لكن ذلك يشكّل فرقًا في الثمن، أليس كذلك؟ أقسم بالله كانت شغلة منيحه إلنا، قدرنا نشتري بضاعتنا من هناك.

آه، صحيح، ترتّبت نتائج أخرى جيدة من قدرتنا على الذهاب للضفة الغربية والقدس. بتعرفي، تزوجت شقيقتاي من رجلين من هناك -نادية ومنى- فنادية تعيش في المدينة القديمة، لا يبعد بيتها عن المكان الذي نشأنا فيه. إنها تعيش بهناء وزوجها رجل طيب. لكن زواج منى لم يكن طيّبًا؛ فهي تعيش مع حماتها وعائلة أخوة زوجها في الرّام خارج القدس. يعيشون جميعًا في بيت واحد. حماتها تتحكم بهم جميعًا، وحياة منى صعبة. إيش تعملي؟ هذا نصيبها. حكيتلها تقوّي حالها مشان ولادها، مش لازم تترك. لوين بدها ترجع، لهون؟ لا، لازم تظلّ. يمكن الأمور تتحسن.

تزوجت ميساء أيضًا رجلًا من هنا، لكنه نشأ في الضفة الغربية. رجل طيب، ولا أدري لم وصل به الحال إلى ما هو عليه. فميساء ليست على ما يرام. لا أريد الخوض في ذلك، لكن بعد إنجابها أبناءها واجهت بعض المشكلات. تفكيرها مش سليم. مش قادرة تدبر أمور بيتها. رحنا لبعض الدكاترة هنا، لكن ما نفعوها، لهيكد قررنا ندور على مساعدة في القرية. إيش نوع المساعدة؟ طيّب، أخذناها لشيخة في أرطاس القريبة من بيت لحم. عندهم معالجين كثار في الضفة الغربية، وبعضهم مناح. ما بعرف إذا بتآمني بهالأمور، لكني بآمن فيها. شفت مثل هيكد كثير، آه، شفت. بآمن إنهم بيساعدوا. خاصة لما

t.me/yasmeenbook

الدكاتره يفشلوا -مثل ما حصل مع ميساء- ومثل ما صار مع حفيدتي نبيلة. أخذناها معنا لما رحنا لهناك. لدى نبيلة رعشة تسري في ساعدها وكتفها، وقد انتابها ذلك بعدما نبح عليها كلب. تظل ترتعش وترتعش، وليس بإمكانها إيقاف ذلك أحيانًا، ولهذا اصطحبنا كلتيهما، ميساء ونبيلة.

عندما وصلنا للشيخة كانت مشغولة، لكنها وافقت على إدخالنا. كانت شيخة شابة -تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا فحسب ربّما. ممتلئة وبيضاء وذات وجه جميل. سألتها: «وين تعلّمتِ الصنعة؟» فأجابت: «ما بعرفش أقرا ولا أكتب، لكنهم بيكتبوا لي.» سألت: «مين همّي؟» فقالت: «عندي مساعدين، شوية رجال، بيحكوا معي جوّاة راسي وبيرشدوني.» حماة الشيخة كانت بالغرفة معها، وقالت: «بجد، ما بدنا ياها تعمل هالشّغلة، لكنها بتوخد هدايا من وراها.» حماتها -سمعنا ذلك فيما بعد- امرأة جشعة؛ فهي تستأثر بكل ما تتلقاه الشيخة من عطايا ومال. على كل حال، قالت لنا الشيخة: «في حدا عمل سحر أسود لبنتكم، وحطّوه إلها في شجرة تفاح، ولهيك هي مريضة، وبتحتاج تيجي لعندي أربع مرات.» بعدها، التفتت لحفيدتي ودارت بالها عليها. أعطت أمها قطعة ورق عليها كتوبة، وطلبت منها تنقعها في المي وتغسل إيد نبيلة بالمي، وقالت لازم نسكب الباقي من المي في مكان نظيف متل الحديقة ومش بالمجاري. وأعطت أمها قنينة مي ثانية عشان تشربها البنت. المهم، نفذوا كل تلك الخطوات، بتعرفي إيش اللي حصل؟ تحسنت حفيدتي. ما عادت نبيلة ترتعش بعدها. ساعدتها الشيخة فعلًا. عجيب، صح؟ لكن بالنسبة لميساء فعندما ذهبنا في الزيارة الثانية لم نجد الشيخة؛ ماتت. قتلوها، وذلك لأن الناس انتابهم الحسد نتيجة كل الأموال التي جنتها حماتها من ورائها، فقام بعض أهالي القرية -أو الله عالم مين- بقتل تلك الشيخة الصبية المسكينة.

مكتبة ياسمين

بعدها، أخذنا ميساء لشيخة أخرى في نابلس، فقالت هي أيضًا إن سحرًا ألقي على ميساء. «مين اللي كان بده يتزوج بنتك قبل زوجها هاظا؟» لما سألتني الشيخة هالسؤال وقفت تا أفكّر. وتذكرت وجاوبتها: «ابن عمها كان بده ياها لكن الله ما كتب نصيب». فقالت الشيخة لنا: «في نسوان عملوا عمل لبنتك». أعطتنا الشيخة حجابًا[1] لميساء وطلبت منها أن تعود مرة أخرى. لكن عندما عادت ميساء للبيت ألقت الحجاب ورفضت ارتداءه. وإلى يومنا هذا ما زالت تعاني. لم نأخذها للشيخة مجددًا، رغم أن بعضهن جيدات. خلاص، الله وحده بيعلم إيش راح يكون نصيب بنتي الغلبانة هلكيت.

لم نعد نذهب هذه الأيام إلى الضفة الغربية كثيرًا كما كنا سابقًا. ما زلت أتسوق من حين لآخر في رام الله، بس هيك. ما بنتزاور ولا غيره، من وقت ما صارت الانتفاضة. فلما اندلعت الانتفاضة تعرضنا للهجوم في إحدى المرات في نابلس. كنا في طريقنا لشراء الكنافة من نابلس؛ لأنها طيبة هناك. كنت مع أختي زاهرة وابنها إبراهيم وزوجته. ولأننا نقود سيارة «إسرائيلية» تحمل لوحة معدنية صفراء، رجمونا بالحجارة. أثار ذلك فزعنا، فاستدرنا بسرعة عائدين إلى أبو غوش. من وقتها صارت مشاويرنا للضفة الغربية أقل بكثير. مين بدو الناس تحدّفه بالحجار؟ جد؟

إذا بتسأليني رأيي، فبحكيلك بصراحة، أنا ضد الانتفاضة. ليس عندنا هنا في أبو غوش رجم بالحجارة أو انتفاضة، وأنا سعيدة بذلك. حرام! ما بوافقش على قتل الناس، لا من هدول ولا من هدول. عندما أرى في

1. الحِجاب: يحتوي على ورقة مكتوب عليها بعض الآيات القرآنية أو رموز وخربشات، عادةً ما يستخدمه المعالجون التقليديون ويعطونه لزوارهم مع تعليمات بارتدائه أو حمله كتميمة، أو إذابته في سائل لشربه أو الاستحمام به، أو حرقه ومسح رماده على الماء.

t.me/yasmeenbook

التلفزيون أو أسمع في الراديو أن أحدًا قُتل فإنني أتضايق. لا يهمني من القتيل، أنا ضد القتل. شريعة الله لا تقضي بقتل الأبرياء. أقسم بالله حرام، ما نحتاجه هو السلام لا القتل. حتى الآن فإن العرب و«إسرائيل» يحاولون عقد الصلح. هذا منيح. أي حدا بيعارض هاظا الكلام غلطان. المسلمين اللي بيقفوا ضد هاظا -حماس- غلطانين. عقد الصلح خير. ليش ما نتصالح؟

كم سيدوم هذا الحال؟ ما بعرفش، مين بيدري؟ الله وحده العالم. ربما لسنة أو خمس سنوات، أو حتى خمس عشرة سنة. ربما سيحل السلام في المستقبل. مش راح يظلّ الحال هيكد. ما بظن. إن شاء الله يتغير. في عيلتنا كل حد بيتمنى السلام. بنآمن في الصلحة. أبو خالد، بيفكر نفس الإشي. هو رجل متدين، وضد الحرب. ما بيتدخلش بالسياسة. مش شغلته، ولا شغلتي.

ﷺ

تركنا أبو خالد منذ ست سنواتٍ مضت. يبدو الأمر كأنه حدث منذ وقت قريب، لكنه كذلك. الأيام بتركض ركِض. آه، هاي صورته على الحيط، أخذناها إلو بعدما رحنا للحج. هذا هو، هيكد كان شكله، دايما لابس طاقيته البيضا. أقسم بالله كان زلمه صالح، وطيب. حَب كل ولاده وما اشتكاش منهم أبدًا. كان زلمه صبور. اشتغل مع الرهبان وكان حليم متلهم. كنت بطلب من بناتي وولادي أحيانًا يرجعوا بيوتهم، أو ما بشجعهم يزورونا، لكن زلمتي كان مسعد، بدّو ياهم عنده على طول، ولما بيجوا بيتمنى يبقوا أكثر. ما أطيبه كان! الله يرحمه.

رحل عنّا فجأة. ما كان في المستشفى ولا مريض قبلها. رحل دون مقدمات. أصابته آلام حادة في المعدة وتقيأ دمًا. حدث ذلك من قبل لما كان يصاب بالتعب أو الغضب. فأسقيه الشاي بالمرمية، واعتقدنا أن الأمر

مكتبة ياسمين

سيمرّ على خير. عندما لم يجدِ الأمر نفعًا طلبنا سيارة إسعاف، وفي طريقنا للمستشفى تقيأ وتدلى لسانه من فمه ولفظ أنفاسه.

عندنا للبيت. غسلناه وجاء رجل يتلو القرآن. دفن في مقبرة جديدة على التلة. أما والديّ وأخوتي فقد دفنوا في المقبرة القديمة وسط القرية. أقسم بالله إنني لم أزر قبر زلمتي أبدًا. ولا حتى قبل والديّ. إن الزيارة متاحة لكنني لم أذهب قطّ. لساتني محتفظه بأغراضه؟ شوي منها، القليل. أعطيت هدومه للمساكين، وأخذ ولادي مصاحفه -كان عنده كذا مصحف- وكمان سجادات الصلاة. أما أنا فعندي صورته المعلقة على الحيط، وشوية أوراق قديمة ومفكرة كانت معه من يوم وهو شاب. لا أستطيع قراءتها، لكنني أعلم أن بعض هذه الأوراق -التي أكلت الفئران نصفها- تؤكد أن تسعة عشر دونمًا من عمواس تعود ملكيتها إليه. ولا أدري حقًّا ماذا في المفكرة. منذ مدة وجيزة طلبت من ابني الأصغر -خليل- قراءة بعض ما فيها لي. ما كان مكتوبًا فيها يدور حول البقرة التي كانت لدينا -عندما كانت حاملًا- وعندما ولدت عجلًا، وما كانت تأكل وأشياء من هذا القبيل. وفيها أمور عنه عندما كان في الواحد والعشرين أو الثانية والعشرين من عمره، لكن خليل لم يقرأ ذلك لي. لكن شوفي، مين محتاج يقرأ هالشغلات عشان يتذكّره؟ ما بدّيش. كان زلمة غير، أنا بتذكره كل يوم. بقينا مع بعض أكثر من خمسين سنة، وعشنا عيشة كريمة، وعملنا عيله طيبة. انكتب لي الخير. الله يرحمه.

من وقت ما رحل، وأنا عايشه في البيت مع بنتي الصغيرة سهاد. سهاد لم تتزوج بعد، كما أنها لا ترغب في الزواج حتى. إنها تبلغ السابعة والعشرين الآن، وأعتقد أن قطار الزواج فاتها. إيش رأيك يا رفيقه؟ إنت متعلمة، يمكن تلاقي واحد متعلم كبير في السن. سهاد خلصت الثانوية بس، والطابق الأول من البيت إلها متل ما بتعرفي. وبتبيع أدوات منزلية بتجيبها من «تل

t.me/yasmeenbook

أبيب». شغله بتكسب مصاري، لهيك ما بتطلب من خوانها إشي. وبتشتغل في محل، وبتساعدني بالبيت. فعلًا، ما بقدر أدبر حالي بلاها. لما يلتهب حلقي بتعمل لي حليب وبيض وبتدير بالها عليّ. يمكن من غيرها لمتت. سهاد هي اللي أنا عايشه بسببها. أقسم بالله إن الله عطاني ياها هدية من عنده عشان تساعدني بكبرتي. هيكد بفكّر. ومتل ما إنتي عارفه، أبو خالد هو اللي أصر نخلّف زياده. كم كان عمري لما جبت سهاد؟ خمسة وأربعين سنة يمكن؟ جبت بطن ووراه بطن مع إن ما كانش بدي كمان.

حرام تجهضي جنين ببطنك. اللي كانت ليلى بدها ياه ما بيجوز. حملت ببطن، وصارت تحكي إنها ما بدها ياه، وبدها تعمل شغله تا تخلص منه. حكيت لها: «ليلى، هاظ الإشي ما بجوز، لازم تكملي حملك.» وليد حكالها نفس الإشي. وبعدها، اللي صار إنها نزّلته. ما بعرفش بالضبط إيش صار، لكن لا بد كانت وقتها حزنانه. انشغلت بالاعتناء بأبناء خليل في تلك الأيام؛ فزوجة خليل مريضة، ولهذا فإن بناته الثلاث بقين مع ليلى. ولا ترغب ليلى في ذلك حقًّا، ومن ثمّ حملت أيضًا. هذا كثير عليها. ولهذا أجهضت. إلى الآن -على الأقل- لم تحمل مجددًا. حكيتلها هذا حرام. مين عارف إيش كان هالطفل حيكون؟ يمكن هدية لليلى لما تكبر، متل ما سهاد هدية إلي. الله وحده بيقدر المقادير.

بالنسبة لي، فإنني سعيدة بوجود سهاد؛ فهي التي ستعتني بي حتى يأخذ الله أمانته. كما أن اثنين من أحفادي سيأتيان للعيش معنا. سوف يسكنان في الطابق الأرضي -مقابل محل سهاد- حين يتزوجا. إن جمال هو ابن عيسى، وأمل ابنة رنا. إنهما أبناء عمومة، وإني واثقة أنهما سيشكلان زوجًا سعيدًا. أنا اللي دبّرت هاي الزيجة. كان جمال قريبًا جدًّا مني ومن أبو خالد. وقد عاوننا كثيرًا لأنه ولد، ووضع له زوجي مبلغًا من المال في البنك. واقترحت على

مكتبة ياسمين

جمال الزواج من أمل، ووافق. سوف يتزوجان في شهر سبتمبر القادم ثم ينتقلان للسكن هنا.

وهيكد راح يصير حواليّ ناس أكتر. منيح. ما بعرف كم بقالي من سنين أعيشها، لكن منيح يكون حواليّ أحفادي، وكمان سهاد. بدي أقضي اللي باقيلي من حياتي في هذا البيت، في بيت أبو خالد. برتاح فيه. مكان حلو على قمة أبو غوش. مش هيكد يا رفيقة؟ قضيت حياتك كلها هون، صح؟ أحلى مكان تعيشي فيه، هواها نقي، وبتقدري تشوفي كل القرية من هون. أبو غوش مباركة، فِكرِك؟

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

خاتمة

لأختتم هذه الدراسة، وأقدّم نفسي للقارئ، فإنني أود ذكر حدثٍ مررتُ به عندما كنت في الثانية من عمري. لا أتذكر هذه الحادثة، ولكن جدتي ووالديّ كرروها على مسمعي عدّة مرات طوال السنوات الماضية حتى أصبحت حاضرةً في ذهني إن صحّ القول.

ما حدث كان التالي؛ خضعت للعلاج في مستشفى القدس من حمّى شديدة. رقدت هناك لأسابيع ولم يستطع والديّ زيارتي يوميًّا؛ لأن والدي مقاولٌ مشغولٌ بأعماله، وأمي منشغلةٌ هي الأخرى في البيت مع أخويّ وأختيّ. وفي أحد الأيام وصل ساعي البريد حاملًا رسالةً مكتوبةً بالعبرية. ولم يكن ساعي البريد أبرع من والديّ في قراءة العبرية، ولهذا فقد قرأ: «لقد توفيت ابنتكم، يرجى تسلّم الجثة.» أصيب والداي بالصّدمة والحزن، وحاولت جدتي لأبي تهدئة روعهما بقولها: «الحمدلله إن الله أخذ بنت، مش ولد من ولادكم!» وصل والداي لاستلام جثتي، فحييتهما بمرح طفلةٍ في الثانية من عمرها لا تدرك المصير الذي توقعوه لها. عدنا إلى أبو غوش وأنا أرتدي ثوبًا وحذاء حمراوين اشتراهما لي والديّ ونحن في طريق العودة. وأصيبت جدّتي بالصدمة وهي ترى حفيدتها وقد دبّت فيها الروح بعد أن كانت مشغولةً في البيت بالتجهيز لدفنها.

سمعت هذه الحكاية مراتٍ عديدة طوال السنوات الماضية، وقد

t.me/yasmeenbook

أصبحت ذات مغزى خاص بالنسبة إليّ. ففيما يتعلق بجدتي، كنت أعاملها بفظاظة غالبًا. مذكّرةً إياها باستمرار لعدة سنوات كلما طلبت مني طلبًا -كأن أحضر لها كوب ماء مثلًا- بقولي: «مين اللي راح يعملك هالشغلة هلأ، إذا أنا -البنت- كنت متت؟» هذا ليس عدلًا. رغم كل ما حصل، فجدتي المسكينة ليست ملامةً إطلاقًا على تصرّفها؛ فالمجتمع الذي عاشت فيه قادها إلى التصديق بأن البنات لسن على نفس الدرجة من الأهمية مع الأولاد. المجتمع العربي، مجتمعي، هو من جعل جدتي تفكر بأن من الأفضل أن تموت امرأةٌ مثلها على أن يموت أحدٌ من الجنس الآخر. إن جدتي المسكينة حملت إيمانها هذا معها إلى القبر. وبما أنني لم أشكرها في مقدمة الكتاب، فإنني واثقة اليوم بأنها مسؤولة عن رغبتي في العمل على هذا الكتاب كمسؤولية أي شخصٍ آخر عرفته.

لمعظم النسوة المولودات في مجتمعنا قصص مشابهة -أو أسوأ. فقد كان على النسوة الست في هذا الكتاب جميعًا أن يتعاملن مع مشكلة اعتبارهن أدنى مرتبةً لأنهن نساء. وكما أوضحت قصصهن، واجهت كل واحدةٍ منهن هذه المشكلة بطريقتها -بمزيج من القبول والرفض -وبمقارنة قصص الأمهات مع البنات، فإن النقطة التي تجلّت لي هي النقلة العظيمة -والثورية تقريبًا- التي حدثت لمجتمعنا منذ زمن جدتي -وأثناءه- وأيّ مشوارٍ علينا قطعه لتختفي عدم المساواة بين الجنسين بجميع أشكالها.

أبرزنا في المقدمة الخطوط الرئيسة لبعض النقلات المحورية التي برزت على الصعيد النسائي في مجالات التعليم والعمل والحرية الشخصية. وما أود إضافته ههنا هو بعض الآراء الشخصية المتعلقة بهذه المسألة. سأبدأ بقضية التعليم؛ فمن المسلم به أن النساء اليوم قطعن شوطًا في التعليم يفوق

مكتبة ياسمين

ما كانت عليه أمهاتهن، ولا مجال للشك في أن هذا التطور أدى -وسيؤدي -إلى ضغطٍ أكبر على مجتمعنا. ربما سيكون من الصعب على من نشأ في مجتمعٍ غير عربي أن يفهم كم تجذّر الإيمان بأن الرجال هم العارفون والنساء هنّ الجاهلات في عديدٍ من المناطق. من المؤلم رؤية مدى خطأ هذه الفكرة بين الأمهات في عينتنا البسيطة هذه (رغم أن أم عبدالله -أصغر الأمهات سنًّا شرعت بمحاربتها). ومن المشجع أن نرى درجةً جديدة من الوعي بدت بين امرأتين متعلمتين (هما ماريان وسميرة). فهما تدّعيان معرفتهما بالعالم والحياة بدرجةٍ مساوية للرجال -في بعض الأمور -بل حتى أكثر منهم.

لقد كانت تجربةً غنيّة ومحفزة لي حيث شعرت كم بدت النسوة من كبيرات السن ممتنّات في هذا الكتاب لأن أحدًا أبدى اهتمامًا بالسؤال عن حياتهن. فهنّ مدركاتٍ للحياة الزاخرة التي عشنها، ولكن فكرة أن تكون قصصهن ذات قيمة لترد في كتابٍ كانت أمرًا لا يمكنهن تخيله. إنني أشعر بالفخر لتمكّني من تقديم هذه القصص، آملة فحسب أن تتمكن الترجمة من الإحاطة بأسلوبهن السرديّ العاميّ الغنيّ. أما بالنسبة للبنات -خاصة ماريان وسميرة- فلم تكونا متفاجئتين من رغبة أحدٍ ما في إدراج أفكارهما في كتاب. فكلتاهما مطلعتان على الكتب. بالإضافة إلى أن لدى كلتيهما شيئًا قيّمًا يستحق أن تقولانه لجمهورٍ عريضٍ ومجهول.

مما لا شك فيه أن التعليم -خاصة التعليم الجامعي- أعطى مستوى عاليًا من المصداقية للنسوة الفلسطينيات؛ فقد فتحت تجربة مغادرة الأسرة والالتحاق بالجامعة عيون النساء. فكل فتاة غادرت بيتها لتلتحق بالجامعة قدمت مثالًا يحتذى لمن تلتها. ففي قريتي كنتُ واحدةً من الرائدات في هذا المضمار، ومعظم بنات أخوالي وأعمامي الآن التحقن بالجامعة أو يفكرن فيها. إن التفاوت بيننا وبين اللواتي لم يلتحقن بالجامعة -مثل ليلى- عميقٌ فعلًا.

t.me/yasmeenbook

لكنني رأيت أن ارتفاع الشعور بالاعتماد على الذات لدينا -نحن الجامعيات- عاد بالفائدة أيضًا على شقيقاتنا اللواتي بقين في البيت. فقد استفدن من علوّ شأننا على العموم. فليلى امرأةٌ ذات أفكار قوية -مما لا يريح والدتها- فهي لا تتوانى عن إبداء رأيها لزوجها. ففي عصر الأمهات، يعد التعبير عن الآراء هكذا عيبًا. وعليه، فإننا اجتزنا دربًا طويلًا في هذا الخصوص.

إن المشكلة الماثلة أمامي الآن تتمثل في أن المكانة التعليمية المتزايدة للمرأة لم تعد عليها حتى الآن بمكانةٍ لائقة على صعيد أسرتها. باختصار؛ ما زال المجتمع يعتقد أن على المرأة أن تكون ربة بيت وأمًّا بالطريقة التقليدية ذاتها، حتى لو كانت تعمل في وظيفةٍ بدوامٍ كامل خارج المنزل. أعرف أن النساء في الغرب يناضلن ضد هذه المشكلة أيضًا، لكنهن كسبن المعركة التي نناضل نحن من أجلها. من النادر أن يشارك الرجل زوجته في الاعتناء بالأطفال الصغار وأعمال المنزل في المجتمع الفلسطيني -كما تفعل سميرة وزوجها. فليلى أكثر قربًا إلى نموذج النساء القرويات، وماريان (فتاة المدينة التي لم تتزوج بعد) ما زالتا على بُعد جيلٍ أو جيلين من التغيير الحقيقي في هذا المجال، رغم أنه يبدو لي أننا نمضي ببطء في الاتجاه الصحيح.

هناك مجالٌ آخر ما زال التقدم فيه بطيئًا؛ ألا وهما المغازلة والزواج. لقد جنينا بعض الثمار في الواقع، فثلاث أمهات (وليلى) تزوّجن جميعًا من أزواجٍ اختيروا لهن، بينما بدت سميرة وماريان قد امتلكتا حق اختيار شريكيهما -بموافقة والديهما. إن المشكلة الرئيسة الآن -كما أرى- هي أن مجتمعنا لا يقبل إمكانية التقاء الرجال بالنساء في أماكن عامة، ومواعدة بعضهم بعضًا بطريقة أكثر انفتاحًا ليتعارفوا على بعضهم بعضًا قبل الزواج. بالنسبة للنساء اللواتي يقطنّ في المدينة -أو النسوة العربيات المسيحيات (اللواتي يغلب الطابع الغربي على الشرقي في عائلاتهن)- فإنهن أكثر حرية نوعًا ما.

مكتبة ياسمين

أما بالنسبة للنسوة القرويات فالقيود شديدة، ومن تكسرها منهن تُقدم على مخاطرةٍ كبيرةٍ قد تكلفها أحيانًا حياتها. وحتى بالنسبة للنسوة الجامعيات -مثل سميرة وماريان- فإن بإمكاننا رؤية حجم القمع الذي تمارسه الأسرة والمجتمع عليهما عندما يتعلق الأمر بمواعدة الجنس الآخر أو المغازلة. فكلٌّ منهما شعرت بضرورة اتخاذ تدابير سرية قصوى، ونستشعر كم هو مهين هذا حقًّا. والنتيجة المعتادة لكل هذه القيود هي انتهاء المطاف بالرجال والنساء الفلسطينيين إلى الزواج بشريك بالكاد يعرفونه. وهذا يقود -بالتأكيد- إلى التعاسة الزوجية. أستطيع القول على الصعيد الشخصي -باعتباري امرأة غير متزوجة- أنني أصاب أحيانًا باليأس من إمكانية حصول النسوة في مجتمعنا على درجةٍ من الحرية في هذا الجانب الذي يبدو لي حقًّا أساسيًّا ومهمًا في المطلق.

❧

هذا يدعوني إلى ذكر نقطةٍ أخرى أرغب في مناقشتها: قرار المشاركة في كتابٍ مع صديقي وزميلي مايك غوركن. تحدث مايك عن ذلك في المقدمة، وأشرنا له في بضع ملاحظات من فصول الكتاب. كان الخروج معه -بالنسبة إليّ -على مرأى الملأ، ومقابلة النسوة الفلسطينيات يُعرّضني -وعائلتي -للرفض الاجتماعي. وكنتُ على تمام العلم بذلك لما شرعتُ فيه. فنوع الملاحظات التي أبدتها أم محمود حولي (راجع الحوار) تنبأتُ بها سلفًا؛ فقد أبدت رأيها بالتحدث حتى أكثر من الأخريات عن الموضوع. إنني ممتنّةٌ لوالديّ اللذين وافقا على تعريض نفسيهما لنقدٍ مُحتملٍ من هذا النمط -بل وربما أشد وطأةً- ولم يحمّلاني عبء إنجاز هذا المشروع في السرّ.

الآن وبعد أن أنجزنا هذا الكتاب معًا، فإنني أحس بأن النقد الذي سيطالني سيرجع لمصدرٍ آخر؛ فقد تلومني بعض الصديقات الفلسطينيات لإنجازي هذا المشروع مع رجلٍ غريب -وشخصٍ يعاني (كما أقرّ بنفسه في

t.me/yasmeenbook

المقدمة) من صعوبات محورية في العمل معي باعتباري امرأة فلسطينية. لمَ لمْ أختر إنجاز هذا الكتاب مع امرأة فلسطينية؟ إن الإجابة بسيطة بالنسبة إلي. ففكرة هذا الكتاب جاءت عن طريق مايك. عندما التفتَ إليّ -مُقدّرًا حاجته إلى أنثى من أهل البلد للعمل معه- شخصًا يساعده على إنجاز المقابلات وإعطاءِ بُعدٍ آخر للمادة، لم أتردد أبدًا في المشاركة. أردتُ دومًا الحديث على الملأ عن وضع المرأة في مجتمعنا، ولأعيد سرد جميع أنواع القصص التي سمعتها طوال حياتي، القصص التي تنقل تصوّرًا حيويًّا وغنيًّا، بل وحتى التي لم تُدرك عن كل أجيال النساء الفلسطينيات. وإنّ كتابًا يتناول الأمهات والبنات يبدو فضاءً رحبًا لذلك. لم يساورني أدنى تردّد إزاء عملي مع مايك خصوصًا؛ فقد عملنا معًا من قبل في الورقة التي تناولت المعالجين التقليديين في المجتمع الفلسطيني، وإنني أقدّر كتابه -أيام العسل وأيام البصل، قصة أسرة فلسطينية في «إسرائيل». كنتُ واثقةً من قدرة مايك على التعامل بصراحة وعدالة مع أي مصاعب يمكن أن تواجهنا، وقد واجهتنا فعلًا بعضها كما ورد في المقدمة. وشعرتُ بأن ثقتي في محلها. إن «عيوب» مايك (وكذلك عيوبي بالطبع) أصبحت أكثر جلاءً الآن. لكن صداقتي معه راسخة. وإذا ما كنتُ قد أثرتُ استياء أي شخصٍ جراء «تعاوني» مع مايك، فإن كل ما يمكنني قوله -على الأقل -إنني لستُ آسفة على ذلك.

أثناء عملي على هذا الكتاب واجهتني مصاعب معينة مع كل امرأتين، ومصاعب أخرى عامة تعدّ جزءًا من تبعات إجراء الدراسة في مجتمعٍ عربي. توجب عليّ التعامل مع حقيقة مفادها صعوبة فصل دور المُحاوِر عن العلاقة الشخصية مع الطرف الذي تتم مقابلته (هناك بعض المقالات التي تطرقت إلى ذلك: المرأة العربية في ميدان البحوث الاجتماعية: في وطني أبحثُ،

مكتبة ياسمين

تأليف: ثريا التركي وكاميليا صلح. [سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز: 1988]). فعندما شرعتُ في سؤالهن أسئلة شخصية وخصوصية -وأتلقى منهن إجابات- وجدتُ نفسي في دور الصديقة أكثر من دور «المحاوِرة الودودة». لقد أصبحتُ «صديقةً تُجري المقابلات». ناقش مايك هذه المشكلة معي وفهمت أنها مشكلةٌ ظهرت في الغرب أيضًا -وإن لم يكن بالدرجة نفسها- على ما أعتقد. على سبيل المثال؛ وجدتني ألعبُ فورًا دور الصديقة بالنسبة لماريان. كانت تمرّ بمرحلة صعبةٍ من حياتها، واختارت أن تُفضي لي بما يخالجها. لم أستطع الرفض ولم أرغب فيه كذلك. وكنتُ أعلم أني إذا رفضتُ عرض الصداقة ذاك فإن ماريان قد تنزعج وتضعف رغبتها بالمشاركة في الدراسة. لهذا قررنا أنا ومايك اتباع قاعدةٍ في العمل ساعدتنا على الفصل ما بين المحاوِر والصديق؛ ألا وهي الأخذ بما يقال على شريط التسجيل حصرًا. رغم أن الإبقاء على المحاوِر والصديق معًا أيضًا جعلني أشعر غالبًا بالتّذبذب بين العمل والصداقة. لا أعتقد أن هناك حلًّا جذريًّا لهذا الصراع، وإنه لأكثر صعوبةً إذا ما كنت عربيًّا تُجري دراستك في مجتمعٍ عربي.

بالنسبة لليلى وأمها، فالمشكلة كانت أكثر تعقيدًا لأننا من نفس القرية. فرغبتهما في المشاركة في الدراسة إشارةٌ حتمية إلى اعتبارهما لي «صديقة»، حتى وإن لم أزر أيًّا منهما من قبل إطلاقًا. فإن ميزة قبولي الفوري بدت جليّة. لقد تحدّثت ليلى وأم خالد عن أمورٍ حميمية بشكل أسرع من النسوة الأخريات. ولأنني من قريتهما كذلك فقد سمعت قصصًا عن أفرادٍ من عائلتيهما وبات بإمكاني السؤال عن بعض تلك الأحداث. على سبيل المثال؛ كنت أعرف أن أبا خالد اعتقل في الخمسينيات، وأمكنني سؤال أم خالد عن ذلك والحصول على ردود ذات قيمة منها. رغم ذلك فإن الحساسية بالنسبة لاعتباري «ابنة القرية» عنت أيضًا أن هناك عددًا امن المواضيع التي يتوجب عليّ تجنبها. لم

t.me/yasmeenbook

أستطع السؤال عن الأمور الجنسية مثلًا. فمجرد سؤال النسوة من خارج القرية عن ذلك الأمر بدا صعبًا، وهو بالنسبة لأم خالد وليلى مرفوضٌ إطلاقًا منّي. حتى مجرد الاستعلام عن وفاة أبي خالد كان على المحك فيما يمكن أن أسألها عنه؛ وذلك لأن على «الصديق» أن يتجنب السؤال عن أمورٍ قد تجعل الطرف الآخر غير مرتاح. وباعتباري قاطنةً في أبو غوش، ومن المتوقع أن أكون موجودةً فيها بعد طباعة الكتاب، لم أستطع فعل أي أمرٍ من شأنه أن يقلق راحة هؤلاء الناس. ربما أخطأت ومايك في اختيار العمل مع هاتين المرأتين من قريتي، لكنني آمل أن ترفع المادة الممتعة الناتجة عن المقابلات التي أجريت معهما شيئًا من القيود التي شرعتُ بأنني مجبرة على التقيد بها باعتباري ابنة البلد.

بالنسبة لأم عبدالله وسميرة، واجهتني مشكلةٌ أخرى -مشكلة لم أواجهها مع أيّ من الأخريات. إنها مشكلةٌ معقّدةٌ متعلقة بكوني فلسطينية تعيش في «إسرائيل». باختصار؛ نحن الذين نعيش في «إسرائيل» وأشقاؤنا الفلسطينيون في الأراضي المحتلة نتشاطر ثقافةً واحدة، لكن مصيرنا السياسي مختلف. فنحن نعتبر أقلية داخل «إسرائيل»، وهذا ما يشعرنا بهويتنا الفلسطينية. ولكن بما أننا لا نقبع تحت الاحتلال، وباعتبارنا مواطنين من الأقلية طوّرنا مجتمعًا خاصًّا بنا فإننا نتمتع ببعض تلك العوائد. وفوقها استفادتنا من عدم فقدان قرانا وبيوتنا. إن زيارة سميرة وأم عبدالله كانت قاسية عليّ جراء ذلك. لقد جعلتاني أشعر شخصيًّا بالراحة والترحاب، لكن قيادة السيارة داخل مخيم اللاجئين بلوحةٍ أرقام «إسرائيلية» صفراء -لا لوحةً زرقاء- تُظهر المنطقة التي أقطن فيها أشعرتني بعين الريبة ممن حولي. ولقد قلقتُ فعلًا على سلامة زميلي اليهودي. إن الفترة التي أنفقتها في زيارة أم عبدالله وسميرة كانت الأكثر طولًا وتركيزًا من بين كل الزيارات التي

مكتبة ياسمين

أجريتها مع الذين يسكنون في مخيمات اللاجئين. وجدتُ نفسي أتساءل في وقتٍ من الأوقات عما قد تبدو عليه حياتي إذا لم يتمكن والديّ -اللذين نزحا عام 1948 - من العودة إلى قرية أبو غوش. إن الاستماع إلى قصص أم عبدالله وسميرة أشعرتني بالإعجاب بشجاعتهما وقوتهما. لكن ينتابني حزنٌ بالغٌ لأن كلتيهما مثلي، وليستا مثلي أيضًا.

رغم هذا وبأبسط الطرق، فإنهن جميعًا؛ أم عبدالله وسميرة، وأم خالد وليلى، وأم محمود وماريان، مِثلي دون ريب. فجميعنا نساء، وبغض النظر عن اختلافي عنهن، شعرتُ طوال مغامرة التعرف عليهنّ أن وجودنا باعتبارنا نساءً يجمعنا معًا. هذا الكتاب في النهاية هو كتابٌ يتناول قصص نساء، حياة فلسطينيات كما رأينها من خلال أعينهن باعتبارهن نسوة. وسوف يُطبع الكتاب باللغة الإنجليزية، وإنني مسرورة لأن متحدّثي الإنجليزية -من النساء خصّيصًا- سيقرؤون هذه القصص. أريد أن يتعرف الآخرون علينا. لكني آملُ أيضًا أن تتوافر هذه القصص باللغة العربية. أرغبُ أن تقرأ أمي وأخواتي وصديقاتي عن «حياتهن». وكذلك أبي وأخوتي. وبالتأكيد، إن كانت جدّتي -الأميّة -على قيد الحياة، لتمنيت أن يقرأ لها أحدٌ هذه القصص. إنني متأكدةٌ أنها كانت لتستمتع بها. في الحقيقة، كان ليسعدني حقًّا أن أقرأ لها بنفسي. وإذا طلبت مني ذلك، فسأحضر لها كأسًا من الماء هذه المرّة دون أن أنبس ببنت شفة.

رفيقة عثمان

أكتوبر 1995

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

التسلسل الزّمني

1917	حكم الامبراطورية العثمانية لفلسطين
1917 – 18	وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني نتيجة سقوط الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى. (في عام 1922 منحت عصبة الأمم بريطانيا حق الانتداب لتصبح فلسطين تحت سلطتها، حيث استمر هذا الوضع حتى عام 1948 حيث خرجوا منها كليًّا.
1917	إعلان وعد بلفور (نوفمبر)، وذلك في رسالة بعثها وزير الخارجية البريطاني إلى اللورد روتشيلد -رئيس جمعية يهود لندن -صرح فيها بأن الحكومة البريطانية رأت أن من الأفضل تأسيس وطنٍ قوميّ للشعب اليهودي في فلسطين، مضيفًا إلى أنه يجب «ألا يؤثّر ذلك على الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين».
1936 – 39	ثورة العرب عارمة الانتشار في فلسطين ضد السياسات البريطانية، والاتفاق البريطاني، خاصة ما يتعلق بتأسيس الوطن اليهودي على أراضيهم، حيث حارب الفلسطينيون أثناء هذه الثورة كلًّا من البريطانيين واليهود.

t.me/yasmeenbook

1947	إعلان اتفاقية التقسيم (نوفمبر) الذي قررت فيه الأمم المتحدة تقسيم فلسطين إلى دولتين -دولة يهودية ودولة عربية -حيث قبل اليهود الاتفاقية بينما عارضها العرب.
1947 - 49	اندلاع حرب داخلية بين العرب الفلسطينيين واليهود منذ إعلان اتفاقية التقسيم وحتى الخروج الجماعي للبريطانيين وإعلان الدولة اليهودية على أرض فلسطين في 15-14 مايو 1948. استمرت الحرب إلى أن وقّعت اتفاقيات هدنة عام 1948 -فقد نشبت الحرب أيضًا بين «إسرائيل» المحتلة وخمس دول عربية هي: سوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، ومصر. أثناء هذه الفترة دُمّر الاحتلال قرابة 370 قرية وبلدة فلسطينية، وأصبح ما يقارب 600000 إلى 760000 فلسطينيًّا في عداد اللاجئين، إذ نزح معظمهم إلى قطاع غزّة (الذي بات أثناء الحرب تحت الوصاية المصرية) أو الضفة الغربية لفلسطين (التي وقعت تحت وصاية الأردن وأصبح تحت سلطتها عام 1948) وبقي 160000 عربي فلسطيني فحسب داخل حدود «الدولة اليهودية الموسّعة» الجديدة.
1964	تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية التي ضمت عدة أجنحة على رأسها حركة فتح بقيادة الرئيس ياسر عرفات، وعدّت حينها واحدة من أهم منظمات التحرير الفلسطينية في الستينيات.
1967	حرب يونيو 1967، أو ما يُعرف بحرب الأيام الستة. حيث سيطرت «إسرائيل» في الحرب على قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء في مصر، ومرتفعات الجولان في سوريا، والضفة الشرقية الفلسطينية التي كانت تحت وصاية الأردن.

مكتبة ياسمين

1973	حرب أكتوبر، أو حرب العاشر من رمضان كما يعرفها المصريون، أو حرب يوم الغفران كما يعرفها اليهود. حيث هاجمت كلٌّ من مصر وسوريا اليهود في سيناء ومرتفعات الجولان. ونتيجة لذلك أبرمت اتفاقية وقف إطلاق نار أعيد ترسيم الحدود بعدها في كل من سيناء والجولان.
1979	توقيع أنور السادات -رئيس مصر- ومناحيم بيجن -رئيس وزراء «إسرائيل»- لمعاهدة السلام «الإسرائيلية المصرية» (مارس). وافقت «إسرائيل» حينها على إعادة سيناء برمتها جزءًا من بنود المعاهدة.
1982	حرب لبنان (يونيو -سبتمبر). اجتاحت «إسرائيل» لبنان، وذلك في إطار حملتها لطرد منظمة التحرير الفلسطينية من قواعدها على الأراضي اللبنانية، والعمل على إنشاء حكومة لبنانية موالية «لإسرائيل».
1987	اندلاع الانتفاضة الأولى أو ما يعرف بانتفاضة الحجارة (ديسمبر) في غزة والضفة الغربية، ثم انحسرت تدريجيًّا حتى انتهت نتيجة لإعلان اتفاقية الحكم الذاتي بعض الأراضي الفلسطينية (سبتمبر 1993).
1991	حرب الخليج (يناير -فبراير). هزَمت الولاياتُ المتحدة وحلفاؤها العراقَ، وطُردت القوات العراقية من الكويت.

t.me/yasmeenbook

1993	الإعلان عن اتفاقية بين منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة في أبو مازن وبين «إسرائيل» ممثلة بوزير الخارجية «الإسرائيلية» شمعون بيريز (سبتمبر)، وقد تم هذا الاتفاق في البيت الأبيض في واشنطن، حيث عرفت باسم اتفاقية أوسلو، ونصت على تشكيل سلطة حكم ذاتي فلسطيني انتقالي.
1994	تم التوقيع على المرحلة الأولى من اتفاقية الحكم الذاتي (مايو) في كلٍّ من قطاع غزة ومدينة أريحا في الضفة الغربية فيما كان يعرف وقتها بـ(غزّة -أريحا أولًا).
1995	التوقيع على المرحلة الثانية من اتفاقية أوسلو (سبتمبر). إذ نصت الاتفاقية على زيادة رقعة الحكم الذاتي للسلطة الفلسطينية لتشمل الضفة الغربية، حيث يعيش أغلبية السكان الفلسطينيين.

مكتبة ياسمين

عن المؤلفَين

مايكل غوركن

طبيب نفسي ممارس يهودي أمريكي، مهتم بالأبحاث المتعلقة بعلم الإنسان، ودراسات وصف الأعراق البشرية، وله عدة مؤلفات بحثية في هذا المجال.

صدر له:

- Border kibbutz, 2011
- From Grandmother to Granddaughter: Salvadoran Women's Stories, 2000
- Days of Honey, Days of Onion: The Story of a Palestinian Family in Israel, 1991
- From Beneath the Volcano, 1971
- The Uses of Countertransference, 1987

t.me/yasmeenbook

رفيقة عثمان

مؤلفة فلسطينية في أدب الطفل، وتكتب مراجعات نقدية أدبية، ومحاضرة في كلية التربية (أحفا)، وعملت مديرة لقسم التربية الابتدائية في القدس، ومعلمة.

صدر لها:

- اليوم الأول في الصف الأول، 2016.
- الطائرة الورقية، 2016
- القطة تمارا في البيارة، 2010م.
- يوم من رمضان، 2007م.

مكتبة ياسمين

عن المترجمة

أمل إسمـاعيل

فلسطينية، مقيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة.

صدر لها:

أدب:

- بيَدٍ واحدة، شعر، 2021م.
- أعرني انتباهك أيها الغريب، شعر، ط1: 2019م، ط2: 2022م.
- خطايا شارع عشرين، نصوص سردية، 2018م.
- نورة والحذاء العجيب، قصة قصيرة للأطفال، 2016م.
- نبضات، نثيرات شعرية، 2008م.
- لأنها لا تموت، مجموعة قصصية، 2004م.
- أمـومة وطن، شعر -نشر إلكتروني 2013م.
- اعترافات لا تدلي بها النساء، نثر -نشر إلكتروني، 2015م.

t.me/yasmeenbook

أسرة وتنمية ذاتية وإدارة:

- رداء المعرفة الأحمر، رحلة في عالم إدارة المعرفة، 2018م.
- أفكار إبداعية لأسرة عصرية، أسرة وتنمية ذاتية، 2016م.
- طفلك والحضانة، أم وطفل، 2014م.

من ترجماتها إلى العربية:

- لنفكّر معًا، 2022م.
- أفكارٌ كبيرة لأطفالٍ صغار، 2023م.
- حوارات مع الأطفال، 2023م.

فائزة بجائزة توليولا الإيطالية لعام 2020 للشعر غير الإيطالي، ترجمت قصائدها للإيطالية، والصينية، والإنجليزية، والمقدونية. تكتب في الدوريات الثقافية العربية، وعملت مديرا لتحرير مجلة جهات الثقافية، ومحررا ومشرفا ثقافيا على عدد من المواقع الأدبية الإلكترونية، ومن مؤسسي مبادرة رأس الخيمة تقرأ.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين